

أغاني كريستي



ذو البَدَلَةِ البُنِيَّةِ



الْجِيل
لِلتَرْجُمةِ وَالتَّنْصِيفِ
R/766_Publishers



Agatha Christie



The Man in the Brown Suit

ذو البَدَلَة البُنِيَّة

لقد جاءت آن إلى لندن بحثاً عن المغامرة، وقد عثرت عليها على الفور على رصيف قطار الأنفاق في محطة الهابيد بارك. هناك، حيث تراجع الرجل النحيل مذعوراً ليسقط على قضبان القطار ويموت بالصعقة الكهربائية.

الشرطة يقولون إن الوفاة حادثة عَرَضية، لكن آن غير مقتنعة. وعلى أية حال: مَنْ كان الرجل ذو البَدَلَة البُنِيَّة الذي انكب على الجثة؟ وما هي تلك الرسالة الغريبة التي سقطت منه وهو يولّي هارباً؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي «بلا جدال» - أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِع منها ألفي مليون نسخة!



رقم هذه الرواية حسب ترتيب
صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق المحصور
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYL Publishers

ISBN 2-1957-2645-8



978219572645

US \$ 4.00

سعر البَدَلَة ١٥ ريالاً

استهلال

وقفت الممثلة الروسية نادينا (التي أثارَت الاهتمام في باريس) على خشبة المسرح لتحية المشاهدين وانحنت لهم مرة ثم أخرى، ومضى الفرنسيون المتحمسون يضربون الأرض بأرجلهم تعبيراً عن إعجابهم بينما كانت الستارة تُسدل محدثةً حفيفاً ومخيفةً وراءها بريق الألوان الحمراء والزرقاء والبنفسجية للديكور الغريب.

غادرت الممثلة خشبة المسرح بثوبها الأزرق والبرتقالي الفضيض، وتلقاها رجلٌ ملتححٌ مرحباً بحماسة. كان ذلك هو المدير الذي صاح قائلاً: رائعة يا صغيرتي، رائعة. لقد تفوقت على نفسك الليلة.

تقبلت السيدة نادينا هذا الثناء بما خلفته لها العادة من قلة احتفاء بذلك، وأسرعت إلى غرفة تغيير الملابس حيث تكدست باقات الزهور في كل مكان دون ترتيب، وحيث كانت الملابس ذات التصميمات العصرية معلقة على المشاجب، وكان الجو حاراً يعبق برائحة الأزهار والعطور.

وأسرعت الوصيصة المسؤولة عن ملابس نادينا لمساعدة سيدتها وهي تتحدث على نحو متواصل وتغدق عليها المديح المقيت، لكن دقائق على الباب قطعت عليها سيل مدائحها، فذهبت لترى من بالباب

لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الروسية.

ونتيجة لهذا الاتفاق شرعاً يتحدثان بالإنكليزية، ولم يعد بمقدور أحد الآن - وقد اختفت سلوكيات الكونت المميزة - أن يشك أن الإنكليزية ليست لغته الأم. والحقيقة أنه بدأ حياته العملية في لندن فناناً بغير أدواره بسرعة.

قال: لقد حققت نجاحاً باهراً هذه الليلة... أهنتك على ذلك.

قالت المرأة: ومع ذلك فأنا قلقة. إن وضعي الآن ليس كما كان؛ فالشكوك التي ظهرت أثناء الحرب لم تخدم أبداً. أحسّ بمن يراقبني ويتجسس علي باستمرار.

- ولكن لم تُوجّه لك أبداً تهمة الجاسوسية؟

- إن خطط رئيسنا أكثر حرصاً من أن توقعني بذلك.

قال الكونت مبسماً: عاش «الكولونيل»! أليست مذهلة تلك الأخبار القائلة إنه يعترم التقاعد؟ تماماً مثل أي طبيب أو جزّار أو سمكري.

أكملت نادينا: أو كأني رجل أعمال آخر. يجب أن لا نفاجأ بهذا؛ هكذا كان «الكولونيل» دائماً... رجل أعمال رائعاً. لقد نظّم الجريمة كما ينظّم المرء مصنع أحذية. لقد قام -دون توريث نفسه- بتخطيط وإدارة سلسلة من العمليات الهائلة، ملتماً بكل فرع من فروع «مهنته» إذا صح التعبير. سرقة جواهر، تزوير، تجسس (وهذه الأخيرة مريحة جداً وقت الحرب)، أعمال تخريب واغتيالات سرية... لا تكاد تجد شيئاً لم يمارسه. إنه أكثرهم حكمة ويعرف متى يتوقف، وعندما بدأت اللعبة

ثم عادت وهي تحمل بيدها بطاقتها.

- أتريد السيدة استقبال هذا؟

- دعيني أنظر.

مدت الممثلة بدأ كسلي، ولكن ملامح الاهتمام المفاجئة بدت في عينها عندما رأت الاسم المكتوب على البطاقة: «الكونت سيرجيوس باولوفيتش». قالت: نعم، سأقابله. أعطيني هذا الثوب الفخفاض الأصفر بسرعة، وعندما يأتي الكونت يمكنك الانصراف.

- حسناً يا سيدتي.

أحضرت الوصيفة الثوب الفخفاض، ولبسته نادينا بسرعة وجلست بتبسم مع نفسها وهي تنقر بيدها على زجاج طاولة الزينة دقائق بطيئة.

أما الكونت فقد سارع لاغتنام الفرصة التي مُنحت له لرؤيتها. كان رجلاً متوسط الطول، ونحيفاً جداً، وأنيقاً جداً، وشاحياً جداً، وسيماً لدرجة غير عادية. أما ملامحه فلم يكن فيها ما يميّزه كثيراً، كان رجلاً يصعب تمييزه ثانية إذا ترك المرء سلوكه المميز جانباً. وقد انحنى بتعذيب مبالغ فيه قائلاً: سيدتي، إنها فرصة رائعة حقاً.

هذا ما استطاعت الوصيفة أن تسمعه قبل مغادرتها الغرفة مغلقة الباب وراءها. وعندما اختلت نادينا بزاثيرها تغيرت الإهتامة التي كانت ترتسم على شفتيها وقالت: رغم أننا من بلد واحد إلا أننا لن نتحدث بالروسية.

وافها ضيقها قائلاً: قد يكون ذلك أفضل، طالما أن أياً منّا

تصبح خطيرة نقاعد مولود السلامة بعدما جمع ثروة ضخمة!

قال الكونت بارتنايب: هممم! الأمر... مزعج لنا جميعاً. فنحن دون عمل الآن.

- لكننا تسلمنا حسابنا، وبكل سخاء أيضاً!

كان في نبرتها شيء من السخرية الخفية جعل الرجل ينظر إليها نظرات حادة. كانت تبسم مع نفسها وقد أثارت نوعية ابتسامتها فضوله. لكنه واصل حديثه بطريقة دبلوماسية: نعم، لقد كان «الكولونيل» عظيم الكرم دائماً. إنني أعزو الكثير من نجاحه لهذا السبب، وإلى خطته الثابتة في تقديم كيش فداء مناسب. إنه عقل عظيم، لا شك أنه عقل عظيم! وهو رائد المبدأ القائل: «إذا أردت شيء» أن يتم بأمان فلا تفعله بنفسك! ها نحن جميعنا متورطون في الجريمة تماماً، ونحن في قبضته كلياً، ومع ذلك ليس لأي منا أي نقطة يمكن أن تدينه. نعم، ليس لأحد منا نقطة ضده... ومع ذلك فالرجل العجوز يؤمن بالخرافات. أعتقد أنه ذهب قبل سنوات لواحدة من العرافات اللاتي يقرأن الطالع، وقد تنبأت له بحياة مليئة بالنجاح، ولكنها أخبرته أن سقوطه سيكون عن طريق امرأة.

أثار الكونت اهتمامها الآن. رفعت بصرها متلهفة وقالت: هذا غريب، غريب جداً! أفلت عن طريق امرأة؟

ابتسم ورفع كتفيه، ثم قال: لا شك أنه سيتزوج الآن بعد أن نقاعد. ربما شابة من حسناوات المجتمع تقوم بتبذير ملايينه بأسرع مما جمعها.

هزت نادينا رأسها وقالت: لا، لا، ليست هذه طريقة سقوطه.

اسمعني يا صديقي، سأذهب غداً إلى لندن.

- ولكن ماذا عن عقدك هنا؟

- سأغيب ليلة واحدة فقط، وسوف أذهب متكررة بحيث لن يعرف أحد أنني غادرت فرنسا. وما هو سبب ذهائي حسب اعتقادك؟

- ليس من أجل المتعة في هذا الوقت من العام. إن شهر كانون الثاني (يناير) شهر يكثر فيه الضباب البغيض! لا بد أن ذلك لتحقيق منفعة، أليس كذلك؟
- بالضبط.

نهضت واقفة أمامه وكل ما فيها ينضح بالكبرياء المغرور وقالت: لقد قلت لتوك إن أحداً منا لا يملك أية نقطة تؤخذ على الرئيس. حسناً، لقد كنت مخطئاً في ذلك؛ فأنا لذي. أنا، المرأة، كان لي من الذكاء والشجاعة (نعم؛ لأن الأمر يحتاج للشجاعة) ما يجعلني أخدعه وأخونه. هل تذكر قضية ألماسات شركة دي بير؟

- نعم، أتذكرها. في كيمبرلي قبل اندلاع الحرب بقليل، أليس كذلك؟ لم تكن لي علاقة بالأمر ولم أسمع بالتفاصيل أبداً، فقد أخفيت القضية لسبب معين، أليس كذلك؟ كانت غنيمة كبيرة أيضاً.

- بلغت قيمة أحجار الألماس مئة ألف جنيه. لقد قمنا بها اثنين... بناء على أوامر الكولونيل بالطبع، وهناك رأيت القرصة متاحة لي. كانت الخطة تقضي بتبديل بعض ألماسات دي بير بعينات من أحجار الألماس التي أحضرت من أميركا الجنوبية بواسطة اثنين من المتقنين عن الألماس صادف وجودهما في كيمبرلي في ذلك الوقت، وكان من المحتمل أن

نظر الرجل إليها بفضول وقال بشكل عرضي: دعينا - إذن - نأمل
أن لا يعود للحياة مرة أخرى.

صاحت بحدة: ماذا تعني؟

بدا أن الكونت قد فوجئ بعض الشيء وقال: لقد قصدت فقط
أن من شأن بعث الأموات أن يكون فظيلاً بالنسبة لك... مجرد نكتة
سخيفة.

تنهدت بارتياح وقالت: آه، كلا، إنه ميت وقد شيع موتاً؛ لقد
لُتل في الحرب. كان رجلاً أحبني ذات يوم.

سألها الكونت دون مبالاة: في جنوب أفريقيا؟

- نعم، بما أنك سألت. في جنوب أفريقيا.

- أي في موطنك الأصلي، أليس كذلك؟

أومات برأسها موافقة، ونهض الزائر وذهب لأخذ قبعة قائلاً:
حسناً، أنت تعرفين أمورك أفضل مني، ولكن لو كنت مكانك لخشيت
من «الكولونيل» أكثر من خشيتي من أي عاشق بئس. إنه رجل من السهل
جداً التقليل من خطره.

ضحكت ضحكة استهزاء وقالت: وكأنني لا أعرفه بعد كل هذه
السنين!

قال بهدوء: أتساءل إن كنتِ تعرفينه حقاً؛ أشك بذلك كثيراً.

- آه، لست مغفلة! كما أنني لست وحيدة في هذا. إن سفينة
البريد القادمة من جنوب أفريقيا سترسو في ميناء ساوثهامبتون غداً،

تقوم الشوك حولهما.

تدخل الكونت معلقاً باستحسان: عمل ذكي جداً.

- إن الكولونيل ذكي دائماً. لقد قمت بدوري، ولكني فعلت
شيئاً لم يتوقعه الكولونيل أيضاً. لقد احتفظت ببعض الألماسات التي
أحضرت من أميركا الجنوبية، ومن السهل تماماً إثبات أنها لم تمر
أبداً بين يدي شركة دي بير. وبوجود هذه الألماسات بحوزتي تكون
لبي الهيمنة على رئيسي المحترم؛ فبمجرد أن تتم تبرئة الشابين سيبدأ
الشرطة في الاشتباه بدوره في هذا الأمر. إنني لم أقل أي شيء طوال هذه
السنين، فقد اكتفيت بوجود هذا السلاح بيدي لاستخدامه عند اللزوم،
ولكن الأمور اختلفت الآن. أريد ثمناً لسكوتي... وسيكون ثمناً باهظاً،
بل أكاد أقول مذهلاً.

قال الكونت: أمر غريب، ولا شك أنك تحملين هذه الألماسات
معك أينما ذهبت؟

جالت عيناه بهدوء في الغرفة غير المرتبة. ولكن نادينا ضحكت
بهدوء وقالت: لا حاجة لأن تفترض شيئاً من ذلك؛ فلست مغفلة. إن
الألماسات في مكان أمين لا يحلم أحد أبداً بالبحث عنها فيه.

- لم أحسبك مغفلة أبداً يا سيدتي العزيزة، ولكن هل لي أن أتجرأ
وأقول إنك متهوره نوعاً ما؟ إن الكولونيل ليس من النوع الذي يتساهل
في أمر ابتزازه.

ضحكت وقالت: لست خائفة منه. رجل واحد فقط خفت منه في
حياتي... وقد مات.

وعلى ظهرها رجل جاء من أفريقيا بناء على طلبي بشكل خاص، وقد قام بتنفيذ أوامر معينة أعطيته إياها، وسيتوجب على الكولونيل أن يتعامل معنا كليتنا، لا مع واحد منا فقط.

- هل هذا من الحكمة؟

- هذا ضروري.

- هل أنت واثقة من هذا الرجل؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة وقالت: "أنا واثقة منه تماماً. هو ليس بالكفء، ولكنه موثوق تماماً". سكنت ثم أضافت بنبرة غير مكرثة: إنه -في الحقيقة- زوجي.

* * *

الفصل الأول

الجميع كانوا يطلون مني كتابة هذه القصة مرتبة؛ بدءاً بأهمهم (اللورد ناسي) وانتهاءً بأدناهم (إيميلي، خادمتنا السابقة التي رأيتها في آخر زيارة لي إلى إنكلترا وقالت لي: يا إلهي يا سيدتي! يمكنك أن تكتبي من كل هذا قصة رائعة... تماماً كقصص الأفلام!).

وسأعترف أن لدي مؤهلات معينة للقيام بهذه المهمة؛ فقد كنت على صلة بالقضية من بدايتها، وكنت مشغولة بها طوال الوقت، بل وساهمت في نهايتها أيضاً. ولحسن حظي أيضاً فأنني غطيت النقص الذي لم أشهده من فكرة السير يوستيس بيدلر التي رجاني أن أستخدمها.

ها هي القصة إذن، وها هي آن بيدنغفيلد تروي مغامراتها.

* * *

لقد أحببت المغامرات دائماً؛ فحياتي كانت رتيبة جداً. كان والدي، البروفسور بيدنغفيلد، أحد أعظم الخبراء في إنكلترا في موضوع الإنسان البدائي. كان عبقرياً حقاً... كان الجميع يشهدون له بذلك، وكان ذهنه يعيش في العصور الحجرية القديمة، وكان ما ينقص عليه حياته أن جسده يسكن العالم الحديث. لم يكن أبى يهتم بالإنسان

المعاصر، بل إنه كان يزدري إنسان العصر الحجري الحديث باعتباره مجرد راع للمواشي، ولم تكن حماسته تبدأ إلا عندما يصل لفترة العصر الحجري الأوسط!

ولعله من سوء الحظ أن لا يستطيع المرء الاستغناء تماماً عن الإنسان المعاصر؛ فهو مجبر على شيء من التعامل مع الجزائريين والخبازين وبناعي الحليب والمخضار. وبما أن أبي كان منغمساً في الماضي، وبما أن أمي ماتت عندما كنت طفلة رضية، فقد تعين عليّ أنا أن أتولى الجانب العملي من معيشتنا. وبصراحة فإنني أكره الإنسان الحجري، سواء أكان من العصر الحجري القديم أو الأوسط أو الحديث أو من أي عصر آخر. ورغم أنني قمت بطباعة ومراجعة كتاب والذي «إنسان البناتدرتال وأسلافه» إلا أن رجال النياندرتال أنفسهم كانوا يسيبون لي الاشمتزاز، وكنت دائماً أشعر أن من حسن حظي أنهم انقضوا في عصور سحيقة.

لا أعرف إن كان أبي قد شعر بأحاسيسي هذه أم لا. ربما لم يشعر، وعلى أية حال لم يكن ليهتم. لم يكن يهتم بوجهات نظر الآخرين أبداً، وأظن أن ذلك كان في الحقيقة علامة على عظمته. وبنفس الطريقة عاش بعيداً تماماً عن مستلزمات الحياة اليومية. كان يأكل ما يوضع أمامه بطريقة رائعة، ولكنه كان يبدو متألماً ببعض الشيء عندما يأتي موضوع دفع ثمن الطعام. ولم يكن لدينا مال أبداً؛ فشهرته لم تكن من النوع الذي يدر عائداً نقدياً. ورغم أنه كان عضواً في كل الجمعيات المهمة تقريباً، وحمل ألقاباً كثيرة، إلا أن عامة الناس لم يكونوا يعرفون عنه إلا القليل. ورغم أن كتبه الضخمة العميقة كانت تثرى المعرفة الإنسانية، إلا أنها لم تكن تجذب العامة. في مناسبة واحدة فقط قفز والذي فجأة ليحتل مكاناً تحت الأضواء العامة. كان قد قرأ بحثاً في إحدى الصحف حول

موضوع صغار الشمبانزي. إن صغار الشمبانزي تشبه الإنسان أكثر مما يشبهه الشمبانزي الناضج الكبير، وقد سارعت تلك الصحيفة التجارية «ديلي بديجيت» -وقد افترت إلى الموضوعات المثيرة- إلى الصدور بعناوين بارزة تقول: "إننا لا ننحدر من القرود، ولكن هل انحدرت القرود منا؟" أستاذ بارز يقول إن الشمبانزي إنسان انحط. بعد ذلك بوقت قصير جاء أحد الصحفيين لرؤية أبي وحاول إغراءه بكتابة سلسلة من المقالات الشعبية عن هذه النظرية، وقد غضب أبي غضباً نادراً ما كنت أراه منه؛ لقد أخرج الصحفي من البيت دون حفاوة، مما شعرت معه بالأسف في سري، لأننا كنا بحاجة ماسة إلى المال في ذلك الوقت. والحقيقة أنني فكرت -وقتها- بأن أركض وراء ذلك الشاب وأخبره بأن والذي قد غير رأيه وسوف يرسل له المقالات المطلوبة. كنت أستطيع كتابتها بنفسي بسهولة، وكان المرجح ألا يعلم والذي أبدأ بالصفحة؛ إذ لم يكن من لزام صحيفة ديلي بديجيت. ومع ذلك فقد رفضت ذلك الأسلوب لأن فيه مغامرة كبيرة، ولذلك لبست أفضل قبعة عندي وذهبت حزينة إلى القرية لمقابلة بقائنا الغاضب الذي لا يلام على غضبه.

لقد اشتقت إلى المغامرة وإلى الإثارة، وبدا أنني قد حُكمت عليّ أن أحيي حياة تقديم الخدمات المملة الرتيبة. كان في القرية مكتبة عامة مليئة بالكتب الروائية البالية، وكنت أستمتع بقصص المغامرات. وكنت أذهب للنوم وأحلم بالرجال الأقوياء الذين يُسقطون خصومهم من أول ضربة. ولم يبدُ أن أحداً في القرية يستطيع إسقاط خصمه من ضربة واحدة أو حتى من عدة ضربات!

كانت عندنا أيضاً السينما التي تعرض حلقات أسبوعية عن «مغامرات بامبلا». كانت بامبلا شابة رائعة لا يخيفها شيء. كانت تسقط من الطائرات وتغامر في الغواصات وتتسلق ناطحات السحاب وتدخل

قال وهو ينهض بعد انتهائه من الطعام: يجب أن نبدأ على الفور؟
لا وقت نضيعه، يجب أن نكون في موقع الحدث... لاشك بوجود الكثير
من الأمور التي يمكن اكتشافها في المنطقة. سأكون مهتماً بملاحظة
ما إذا كانت الأدوات هي نفسها التي كانت مستعملة في العصر الحجري
الأوسط... وأظن أن بقايا الثور اليدائي ستكون موجودة هناك، ولكن
ليس بقايا الكركدن ذي الصوف. نعم، لن تليث مجموعات كبرى أن
نبدأ العمل قريباً جداً. يجب أن نكون على رأسهم. هل ستكتفين لشركة
كوك اليوم يا أبي؟

ألمحت له بإشارة رقيقة: ماذا عن المال يا أبي؟

نظر إليّ نظرة تأنيب وقال: إن أفكارك تصيبني بالارتباك دائماً
يا ابنتي. يجب أن لا نبخل. كلا، كلا، يجب أن لا يبخل المرء في
سبيل قضية العلم.

- أشعر يا أبي أن شركة كوك قد تبخل.

بدا والذي متألماً وقال: يا عزيزتي آن، ستدفعين لهم نقداً.

- ليس عندي أي نقد.

بدا والذي مغتاضاً جداً وقال: لا أريد يا ابنتي إزعاج نفسي بهذه
التفاصيل المالية السوقية. ماذا عن المصرف... لقد تلقيت من مدير
المصرف بالأمس ما يفيد بأن لدي في رصيدي سبعة وعشرين جنياً.

- أظن ذلك المبلغ هو ما أنت مدین به للمصرف.

- أه، صحيح! اكتبی للناشرين الذين يشرون كتبی.

أذعنْتُ لأمره بارتياح؛ لأن كتب والذي كانت تحقق من المجد

عالم الإجمام دون خوف. لم تكن - في الحقيقة - ذكية؛ فقد كان رئيس
المجرمين يمسك بها في كل مرة، ولكن لأنه كان يبدو مشتمراً من
ضربها على رأسها ضربة بسيطة، فقد كان يحكم عليها دائماً بالإعدام
في غرفة الغاز أو باستخدام وسائل مبتكرة وبارعة بحيث كان البطل
ينجح دائماً في إنقاذها عند بداية حلقة الأسبوع التالي. كنت أخرج من
السيما ورأسي يدور... ثم أصل إلى البيت لأجد إنذاراً من شركة الغاز
يهدد بقطع الغاز عتاً إذا لم ندفع الفاتورة المتركمة!

ومع ذلك، ورغم أنني لم أكن أتصور الأمر، إلا أن كل لحظة
كانت تقرب مني المغامرة أكثر.

ربما لم يسمع كثير من الناس في هذا العالم عن اكتشاف جمجمة
قديمة في منجم بروكن هل في روديسيا الشمالية. لقد نزلت من غرفتي
ذات صباح لأجد والدي مهتماً بجمجمة جديدة. قصص علي القصة كلها:
أنفهمين يا آن؟ إن في هذه الجمجمة - دون شك - تشابهاً معيناً مع
جمجمة جاوة، ولكنه تشابه ظاهري... ظاهري فقط. كلا، إننا هنا أمام
ما كنت أردده دائماً... شكل أسلاف سلالة نياندرتال. لماذا نسلم بأن
جمجمة جبل طارق هي أكثر جماجم نياندرتال المُكتشفة حداثة؟ لماذا؟
لأن موطن هذه السلالة كان في أفريقيا. وقد عبروا إلى أوروبا...

قلت بسرعة وأنا أمسك بيد والدي الذاهل: لا تضع المرين على
السلك يا أبي. نعم، ماذا كنت تقول؟

- لقد عبروا إلى أوروبا على...

عند هذه الكلمة سكت إذ غص غصة كادت تخنقه نتيجة لقمة
فيها عظام السمك.

أكثر ما تحقق من المال. أحببت فكرة الذهاب إلى روديسيا كثيراً، ثم رأيت في مظهر أبي شيئاً غير عادي لفت انتباهي فقلت: أنت تلبس حذاء غريباً يا أبي. اخلع الحذاء البني والبس الأسود بدلاً منه. ولا تنس اللقاع حول رقبتك؛ فالجو بارد جداً اليوم.

بعد دقائق خرج أبي يمشي متشامخاً وقد لبس الحذاء المناسب لللقاع. وقد عاد متأخراً في تلك الليلة، وقد حزنّت إذ رأيته عائداً دون لفاعه ومعطفه.

- يا إلهي! أنت على حق يا أبي؛ لقد خلعتكما لكي أدخل الكهف لأن المرأة يتسخ كثيراً عندما يدخل هناك.

أومات برأسي بإشفاق وأنا أتذكر مرة عاد فيها أبي وهو ملطخ بالطين من رأسه حتى أخمص قدميه.

إن السبب الأساسي لإقامتنا في ليلت هامبسلي هو أنها قرية قريبة من كهف هامبسلي، وهو كهف مدفون ومليء بأثار من العصر الحجري الحديث. كان في قريتنا متحف صغير وكان أبي وأمين المتحف يقضيان معظم ساعات النهار في التنقيب تحت الأرض وإخراج بقايا حيوانات الكركردنّ الصوفي ودببة الكهوف.

سعل أبي سعالاً شديداً طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي لاحظت ارتفاع درجة حرارة جسمه وطلبت له الطبيب.

مسكين والدي... لم تنح له الفرصة أبداً؛ لقد أصيب بمرض ذات الرئة، ومات بعد ذلك بأربعة أيام.

الفصل الثاني

كان الجميع لطفاء معي. وقد قدّرت لهم هذا الموقف رغم ما كنت فيه من ذهول. لم أشعر بحزن شديد؛ فوالدي لم يجنبي أبداً. كنت أهرق ذلك جيداً، ولو أنه أجنني فربما كنت سأحبه. لا، لم يكن بيننا حب، ولكن كلاً منا كان يتمي للآخر. وقد اعتنيت به وأعجبت في قرارة نفسي بعلمه وإخلاصه غير المحدود للعلم، وقد آلمني أن يموت أبي عندما وصل اهتمامه بالحياة إلى أكبر مدى. كنت سأشعر بسعادة أكبر لو تمكنت من دفنه في كهف مع رسومات حيوانات الرنة والأدوات الحجرية، ولكن قوة الرأي العام جعلتني أكتفي بقبور مرتب له (مع لوح من الرخام) في المقبرة الكريهة لقريتنا.

وقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى اتضح أمامي أنّ الشيء الذي كنت أتوق إليه دائماً (وهو الحرية) قد أصبح الآن ملكاً لي. كنت يتيمة ومفلسة عملياً، ولكنني كنت حرة. وفي نفس الوقت أدركت سر هذا اللطف غير العادي الذي غمرني به كل هؤلاء الناس الطيبين. لقد حاول أحد أصدقاء أبي جاهداً أن يقنعني بأن زوجته كانت في أمس الحاجة لمساعدة واحدة معها في البيت، وفجأة قررت مكثتنا المحلية الصغيرة أنها بحاجة لمساعدة لأمين المكتبة، وأخيراً زارني الطبيب، وبعد تقديمه

- ليتك تعيدين التفكير...

- لا أستطيع.

تهند ثانية وقال: لدي عرض آخر أقدمه لك. لي عمه تعيش في ويلز وتريد فتاة شابة تساعدنا. هل هذا يناسبك؟

- لا يا دكتور، أنا ذاهبة إلى لندن. إن كان من مكان تحدث فيه الأمور فهو لندن. سأبقي عيني مفتوحتين لأن شيئاً سيظهر! سنتمع عتي بعد ذلك في الصين أو في أي من بلاد الدنيا.

كان زائري التالي هو السيد فليمنغ، محامي والدي في لندن. وقد جاء من المدينة خصوصاً لرؤيتي. كان هو نفسه عالم أجناس متحمساً، ومعبباً جداً بأعمال والدي. كان رجلاً طويلاً هزيلاً بوجه نحيف وشعر أشيب. نهض لتحتي عندما دخلت الغرفة وربت على يدي وهو بمسكهما بحنان وقال: طفلاتي المسكينة... المسكينة!

ودون رياه واع، وجدت نفسي أقوم بدور اليتيمة المحرومة؛ فقد دفعتني يسحره إلى هذا الموقف. كان عطوفاً ولطيفاً وأبوياً... ولا يراودني أدنى شك في أنه اعتبرني فتاة مغلقة تماماً تركت على غير هدى لتواجه هالماً قاسياً. وقد شعرت من البداية بعدم جدوى إقناعه بأنني على العكس من ذلك. وقد أرنتي الأمور فيما بعد أن إحجامي عن تلك المحاولة كان أفضل.

- طفلاتي المسكينة، هل نعتقد أن بوسعك الإصغاء إليّ وأنا أحاول توضيح بعض الأمور لك؟

- آه، نعم.

لأعداد سخيفة مختلفة حول عدم قدرته على إرسال فاتورة مناسبة همهم وتلثم كثيراً وفجأة طلب الزواج بي.

ذهلت كثيراً. كان الطبيب أقرب إلى سن الأربعين منه إلى الثلاثين، وكان رجلاً صغير الحجم بديناً. كان أبعد ما يكون شيئاً عن بطل المغامرات بامبيلا، وفكرت دقيقة ثم سألته لماذا يريد الزواج بي. وبدا أن سؤالي هذا قد أربكه كثيراً وتمتم قائلاً إن وجود زوجة يشكل عوناً كبيراً للطبيب العام. وبدا موقفه بعد هذا التبرير أقل شاعرية من ذي قبل، ومع ذلك فقد ألتح عليّ شيء في داخلي بأن أقبل عرضه هذا. كان الأمان هو ما عرضه عليّ. الأمان... والبيت المريح. وإنني - إذا فكر الآن في هذا الأمر - أرى أنني ظلمت ذلك الرجل الضئيل. كان يحيني بصدق ولكن رقة في غير مكانها منعت من طرح قضيتي على هذا الأساس.

على أية حال فقد ثار حبي للرومانسية فقلت: إنه لطف كبير منك، ولكن لا. لا أستطيع أبداً الزواج برجل إلا إذا أحببته بجنون.

- ألا تظنين...

قلت حازمة: نعم؛ لا أظن.

تهند وقال: ولكن - يا فتاتي العزيزة - ما الذي تنوين عمله؟ أجبته دون تردد: أريد المغامرة ومشاهدة العالم.

- آنسة آن، أنت ما تزالين طفلة تماماً. أنت لا تفهمين...

- الصعوبات العملية؟ نعم، أفهمها يا دكتور. لست طالبة عاطفية ساذجة. إنني فتاة جشعة عبيدة سليطة اللسان، وكان من شأنك أن تعرف ذلك لو تزوجتني!

قلت: هذا جميل منك. أحقاً أستطيع الحضور إليكم؟ ففي الوقت الذي أدرس فيه الاحتمالات يجب أن أبحث عن عمل أكسب منه رزقي.

- نعم، نعم يا طفلي العزيزة. أفهم ذلك تماماً. سوف نبحث عن شيء... مناسب.

أحسست غريزياً بأن آراء السيد فليمنغ فيما يخص «الشيء المناسب» متباعدة كثيراً عن آرائني، ولكن تلك لم تكن اللحظة المناسبة للتعبير عن آرائني.

- إذن فقد اتفقتا. لم لا تعودين معي اليوم؟

- آه، أشكرك، ولكن هل السيدة فليمنغ...

- ستساعد زوجتي كثيراً بمجيئك إلينا.

وإنني لأنساءل إن كان الأزواج يعرفون زوجاتهم بالقدر الذي يظنونونه؟ إذ لو كان عندي زوج لكرهت أن يُحضر إلى البيت أيتاماً دون أن يستشيرني أولاً.

أكمل المحامي: سوف نرسل لها برفية من المحطة.

وسرعان ما حزمت أمتعتي الشخصية القليلة. تأملت قبعتي بحزن لبل أن البسها. كانت في الأصل ما أسميه بقبعة ماري، وأعني بهذا نوعية القبعة التي يجب على الخادمة أن تلبسها في يوم خروجها في إجازة... ولكنها لا تلبسها! قبعة مهلهلة من القش الأسود لها حافة منخفضة انخفضاً مناسباً. وبإلهام العبقري رفستها بقدمي ذات مرة. ونخستها مرتين وبعجتها في أعلاها وثبتت فيها شيئاً تشكيمياً يشبه الجزيرة، وكانت

- كما تعرفين كان والدك رجلاً عظيماً جداً، وسوف تقدّره الأجيال القادمة، لكنه لم يكن رجلاً بارعاً في أمور العمل.

كنت أعرف ذلك تماماً، إن لم يكن أفضل من السيد فليمنغ نفسه، ولكني امتنعت عن قول ذلك. واصل حديثه: لا أحسبك تفهمين الكثير في هذه الأمور. سأحاول شرح الأمور لك قد الإمكان.

شرح لي شرحاً مطولاً لا ضرورة له. ويدا أن زبدة الكلام هي أن والذي قد تركني أواجه الحياة بمبلغ سبعة وثمانين جنياً وبعض الجنيه. بدا ذلك مبلغاً قليلاً لدرجة غريبة. انتظرت بذعر ما سيقله لي بعد ذلك، وخشيت أن يكون للسيد فليمنغ عمه في أي مكان تحتاج لفناة شابة لمراقبتها. ولكن بدا أنه لا يملك مثل هذه العمه.

أكمل حديثه: إن السؤال هو المستقبل. لقد فهمت أنك لا تملكين أقارب أحياء؟

قلت وقد خطر ببالي من جديد شهي ببطلة أحد الأفلام: أنا وحيدة في هذا العالم.

- هل لديك أصدقاء؟

قلت بامتنان: كان الجميع لطفاء معي.

- ومن لا يكون لطيفاً مع واحدة بهذا الشباب وهذا السحر؟ حسناً، حسناً يا عزيزتي، يجب أن نرى ما يمكننا عمله.

تردد لحظة ثم قال: ماذا لو تأتينا عندنا لبعض الوقت؟

قفزت لهذه الفرصة. لندن! المكان الذي تحدث فيه الأمور.

عندما نزلت لاحظت أن السيدة فليمنغ قد ركزت نظرها على أذني المكشوفتين بنظرات لطيفة تماماً. كان السيد فليمنغ يبدو مرتبكاً. ليس عندي شك في أنه كان يقول في قرارة نفسه: "ما الذي فعلته الطفلة بنفسها؟". وإجمالاً فقد انقضت بقية اليوم على أحسن ما يرام، واستقر الأمر على أن أبدأ على الفور البحث عن شيء أفعله.

عندما ذهبت للتوم نظرت إلى وجهي في المرأة نظرات جادة. أكنت حقاً جميلة؟ وبصدق فإنني لا أستطيع القول إنني أرى ذلك! لم يكن عندي أنف إغريقي مستقيم أو فم وردي صغير أو أي شيء من الأشياء التي يجب أن تكون عند الفتاة الجميلة. كنت أفضل كثيراً أن تكون لي عينان زرقاوان أيرلنديتان بدلاً من العينين الخضراوين الداكنتين المرقلتين بالأصفر! ومع ذلك فاللون الأخضر جيد للمغامرات.

لقد فتت ثوباً أسود حولي بإحكام ثم مشطت شعري فوق أذني مرة أخرى، وأخيراً لففت كتفي بشريط أحمر وغرست ريشة قرمزية على شعري... النتيجة كلها أفرحتني كثيراً.

قلت بصوت مرتفع وأنا أومئ برأسي لصورتني في المرأة: أنا المغامرة. الحلقة الأولى: بيت كينسينغتون!.

حقاً إن الفتيات سخيقات.

* * *

النتيجة جميلة تماماً. كنت قد القيت بالجزرة طبعاً، وبدأت الآن أخرب بقية عملي اليدوي. عادت «قبة ماري» إلى حالتها السابقة مع زيادة في مواقع ضربها مما جعلها تبدو أكثر إثارة للاكتئاب من قبل، وربما كان من الأفضل أن أبدو منسجمة مع المفهوم السائد عن البيتم. كنت مرتبكة قليلاً خشية سوء استقبال السيدة فليمنغ لي، ولكني رجوت أن يكون لمظهري تأثير مخفف للنتمة.

كان السيد فليمنغ مرتبكاً أيضاً؛ أدركت ذلك ونحن نصعد الدرج إلى البيت المرتفع في ساحة كينسينغتون الهادئة. حينتي السيدة فليمنغ بترحاب كبير. كانت ممثلة الجسم وهادئة من نوع «الزوجة والأم الطيبة». أخذتني إلى غرفة نوم نظيفة وتمنت أن يكون فيها كل ما احتاجه، وأخبرتني بأن الشاي سيكون جاهزاً بعد ربع ساعة، وتركتني أرتب أغراضي الخاصة.

سمعت صوتها يرتفع قليلاً عندما دخلت غرفة الاستقبال في الطابق الأول. كانت تقول: "حسناً يا هنري، لماذا...". لم أسمع بقية كلامها، ولكن مرارة النبرة كانت واضحة. وبعد ذلك بضع دقائق وصلت إلى مسامعي عبارة أخرى بصوت أكثر مرارة: "أوافقك الرأي؛ فهي بالتأكيد فتاة جميلة جداً".

إنها حياة قاسية حقاً؛ إذ لا يكون الرجال لطفاء مع المرأة ما لم تكن جميلة، ولا تكون النساء لطيفات معها إن كانت كذلك.

تابعت ترتيب شعري وأنا أتهدد بعنق. عندي شعر جميل؛ إنه أسود (أسود حقيقي، وليس بنياً داكناً) وهو يغطي أذني. عندما أنهيت تسريحتي كدت أبدو مثل البيتمة التي تخرج بضعفيرة وقلنسوة من تلك التي تُربط تحت الذقن وردداه أحمر.

لم تقدم شؤوني الخاصة بسرعة كبيرة؛ فقد بيع البيت والأثاث، ولم يكد الثمن يكفي إلا للوفاء بديوننا فقط. وحتى ذلك الوقت لم أوفق في الحصول على وظيفة... دون أن يعني ذلك أنني أردت بحق العثور على وظيفة! فقد كان لدي كل الاقتناع بأنني إذا ذهبت أبحث عن مغامرة فإنني سأجدها في وسط الطريق. إن نظريتي هي أن المرء يحصل دائماً على ما يريد. وكانت نظريتي توشك أن تُثبت عملياً.

كان ذلك في بداية شهر كانون الثاني (يناير)، بل في الثامن منه توخياً للدقة. كنت عائدة من مقابلة غير موفقة مع سيدة قالت إنها تريد سكرتيرة مُرافقة، ولكن بدا -في الواقع- أن ما تطلبه هو خادمة تنظيف لوفية تعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم مقابل خمسة وعشرين جنيهاً في العام. وبعد أن تركتها ونحن نتبادل كلاماً مُبطناً غير مؤدب مشيت في شارع إدجووير (فقد جرت المقابلة في بيت في منطقة سينت جون وُد)، ثم عبرت حديقة الهايد بارك إلى شارع مستشفى سينت جورج. وهناك دخلت محطة قطار الأنفاق عند زاوية هايد بارك، وأخذت تذكرة لوصولني إلى طريق غلوستر.

وعندما وصلت إلى الرصيف (داخل محطة الأنفاق) مشيت حتى آخره. كان عقلي الفضولي يريد أن يقنع نفسه إن كانت هناك حقاً محاولات للسكة الحديدية وفتحته بين النفقين بعد المحطة مباشرة في الجهة شارع داون، وقد تملكني سرور أحرق إذا اكتشفت أنني كنت على صواب. لم يكن على الرصيف الكثير من الناس، وفي نهايته كنت أقف أنا ورجل واحد فقط. وبينما كنت أمرّ بجانبه أخذت أشمُّ بارتياب؛ فلئن كانت توجد رائحة لا أطيحها فهي رائحة كرات نفتالين العث، وكان المعطف الثقيل لهذا الرجل يعبق بتلك الرائحة. كان معظم الرجال قد

الفصل الثالث

أحسست بملل كبير في الأسابيع التي تلت ذلك. بدت لي السيدة فليمنغ وصديقاتها مملات جداً؛ كنَّ يتحدثن لساعات عن أنفسهن وأطفالهن والصعوبات التي يواجهنها للحصول على حليب جيد للأطفال وعما يقلنه لشركة الألبان عندما لا يكون الحليب جيداً، ثم يعرجن للحديث عن الخدم وصعوبات العثور على خدم جيدين وعما قلنه للموظفة في مكتب تشغيل الخدم وعما قلته الموظفة لهن. لم يبد أنهن يقرأن الصحف أبداً أو يعتنين بما كان يحدث في العالم. كنَّ يكرهن الأسفار؛ إذ يرين كل شيء مختلفاً عن إنكلترا، ولكن كانت الريفييرا لا بأس بها بالطبع لأن المرء يلتقي فيها بجميع أصدقائه.

كنت أصغي إليهن وأكبج عواظي بصعوبة. كانت غالبية هؤلاء النسوة ثريات، وكان العالم الراسع الجميل كله ملكاً لهن يستطعن التجول فيه، ومع ذلك كن يفضلن البقاء في لندن القذرة المملة ويتحدثن عن باتي الحليب والخدم! وعندما أتذكر الماضي الآن أرى أنني ربما كنت قليلة التسامح نوعاً ما، ولكنهن كن غيبات بالفعل... غيبات حتى في عملهن الذي اخترنه: فقد كانت لمعظمهن حسابات منزلية يُجريها بشكل غريب جداً ومهلل إلى أبعد حد.

لم يكن هذا الشيء حقيقياً... لا يمكن أن يكون كذلك. وفي النهاية نهض الطبيب وهز رأسه قائلاً: لقد مات وشيع موتاً. لا يمكن فعل شيء.

كنا قد تجمعنا كلنا واقتربنا أكثر، ورفع حمّال حزين صوته قائلاً: أرجو أن تتراجعوا إلى الوراء. ما معنى التجمع حوله؟

تملكتي غثيان مفاجئ، واستدرت على غير هدى وأسرعت لأصعد الدرج ثانية نحو المصعد. أحسست أن الأمر كان مرعباً جداً ويجب أن أخرج إلى الهواء الطلق. كان الطبيب الذي فحص الجثة قد سبقني تماماً. كان المصعد على وشك أن يصعد، وانطلق يركض. وعندما انطلق أسقط ورقة صغيرة.

وقفت والتقطتها وركضت ورائه، ولكن بوابة المصعد أغلقت في وجهي، وبقيت ممسكة بالورقة بيدي. وما أن وصل المصعد الثاني إلى مستوى الشارع حتى وجدت أن لا أثر للرجل. تمنيت أن لا تكون الورقة التي فقدها ذات أهمية، ثم تفحصتها لأول مرة. كانت قصاصة هادئة من ورق الملاحظات خُرِبت عليها بعض الكلمات والأرقام بالظلم الرصاص. هذه صورة عنها:

١٧،١٢٢ كيلوموردن كاسل.

من المؤكد أنها لم تبدأ -ظاهرياً- ذات أهمية، ومع ذلك ترددت في إلفاتها. وبينما كنت أقف هناك أحملها بيدي فركت أنفي لا إرادياً بالضمير... رائحة النفتالين ثانية! رفعت الورقة بقرف إلى أنفي وشممتها. لهم، كانت رائحتها رائحة نفتالين قوية. ولكن...

طويت الورقة بعناية ووضعتها في حقيبتي، وسرت إلى البيت ببطء أفكر طوال الطريق.

بدووا يلبسون معاطفهم الشتوية قبل شهور، ولذلك كان ينبغي لرائحة النفتالين أن تكون قد تلاشت بمرور هذا الوقت. كان الرجل يقف أبعد مني قريباً من حافة النفق. بدا غارقاً في التفكير، وكان يمكنني التحديق فيه دون أن أبدو وقحة. كان رجلاً ضئيل الجسم نحيفاً ذا وجه بني داكن وعينين ذرقاوين، وكانت له لحية سوداء صغيرة.

استنتجت في نفسي: لقد جاء لثوه من الخارج... هذا هو سبب الرائحة التي تفوح من معطفه. لقد جاء من الهند. إنه ليس ضابطاً بالجيش، وإلا لما كانت له لحية. ربما يعمل في زراعة الشاي.

في هذه اللحظة استدار الرجل وكأنه يعود أدراجه على الرصيف من حيث أتى. نظر إليّ نظرة عابرة ثم وقعت عيناه على شيء ورأيت تغيير وجهه. تقلص وجهه خوفاً... بل كاد يكون ذعراً. تراجع خطوة إلى الوراء وكأنه يتقبض عفوياً تفادياً لخطر، ناسياً أنه كان يقف في أقصى طرف الرصيف، فسقط وانقلب. صدرت عن السكة التماعه ضوء قوي وصوت طقطقة. صرخت، فجاء الناس مسرعين. وخرج اثنان من مسؤولي المحطة من حيث لا أدري وتوليا الأمر.

بقيت حيث كنت، مشدودة إلى المكان بشيء من السحر الرهيب. كان جزء مني مرتاعاً من هول الكارثة المفاجئة، في حين كان الجزء الآخر مهتماً ببرود بالطريقة التي استخدمت لرفع الرجل عن السكة وإعادةه إلى الرصيف.

- دعوتي أمر، أرجوكم... أنا طبيب.

اندفع رجل طويل بلحية بنية اللون من جانبي وانحنى فوق الجسد الهامد، وفيما هو يفحصه بدا أن إحساساً غريباً بعدم الواقعية يملكتني.

على النهر القريب من مارلو. وكان الطلب باسم ل. ب. كارتون، فندق
راسل. وقد تعرف موظف الفندق على الرجل وقال إنه وصل إلى الفندق
في اليوم السابق لمقتله وأنه حجز غرفة بذلك الاسم. تم تسجيله باسم
ل. ب. كارتون من كيمبرلي، جنوب أفريقيا. كان واضحاً أنه جاء من
السفينة مباشرة.

كنت الوحيدة التي رأيت شيئاً من الحادث. سألتني قاضي التحقيق:
الظنن أنه كان حادثاً؟

- أنا متأكدة من هذا. لقد أخافه شيء، وتراجع إلى الورا دون
التفكير بما كان يفعله.

- ولكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي أخافه؟

- هذا ما لا أعرفه. ولكن كان هناك شيء. كان يبدو مذعوراً.

أشار أحد المحلفين البليدين إلى أن بعض الرجال يخافون من
القطط وأن الرجل ربما رأى قطعة. ولم أر في رأيه هذا ذكاء كبيراً، ولكن
بدأ أن المحلفين قد اكتفوا برأيه ذاك وقد بدا واضحاً أنهم يريدون العودة
إلى بيوتهم بسرعة، وسرهم أن يتمكنوا من إصدار حكم بأن الأمر كان
حادثاً لا انتحاراً.

قال قاضي التحقيق: أمر غريب بالنسبة لي أن لا يتقدم الطبيب
الذي فحص الجثة أول مرة للشهادة. كان يجب أخذ اسمه وعنوانه في
ذلك الوقت. إن عدم فعل ذلك مسألة شاذة جداً.

ابتسمت في نفسي. كانت لي نظرية خاصة فيما يخص الطبيب،
واستكمالاً لهذه النظرية قررت القيام بزيارة لشرطة سكوتلاند يارد في
أقرب وقت ممكن.

أوضحت للسيدة فليمينغ أنني شهدت حادثاً مروعاً في نفق القطار
وأنتي متضايقة وأريد الذهاب إلى غرفتي لكي أستلقي قليلاً. أصرت
المرأة الكريمة على أن أشرب فنجاناً من الشاي، وبعد ذلك تركتني
أذهب لشأني، وعندها شرعت في تنفيذ خطة وضعتها وأنا عائدة في
طريقي إلى البيت. أردت أن أعرف ما الذي سبب ذلك الإحساس الغريب
بعدم الواقعة الذي شعرت به وأنا أراقب الطبيب وهو يفحص الجثة. في
البداية استلقيت على الأرض متخذة وضع الجثة، ثم وضعت وسادة
بدلاً مني وبدأت - حسب أفضل ما أذكره - تقليد كل حركة وإيماءة قام
بها الطبيب. وعندما انتهيت كنت قد حصلت على ما أردته. أقيمتُ على
أعقابي وقطبت جبتي وأنا أنظر إلى الجدران أمامي.

نشرت صحف المساء خبراً مختصراً عن رجل قتل في نفق القطار
قائلة إن شكوكاً تحوم حول ما إذا كان ذلك حادثاً أم انتحاراً. وقد بدا
لي أن ذلك يجعل واجبي واضحاً، وعندما سمع السيد فليمينغ روايتي
واقضي الرأي وقال: لا شك أنهم سيطلبونك للتحقيق. أتقولين إن أحداً
غيرك لم يكن قريباً بحيث يرى ما حدث؟

قلت: لدي إحساس بأن أحدهم كان قادماً من روايتي، ولكن
لا يمكنني الجزم... وعلى أية حال لم يكن القادم قريباً منه كما كنت
أنا.

عُقدت جلسة التحقيق، وقام السيد فليمينغ بعمل جميع الترتيبات
وأخذني إلى هناك معه. بدا خائفاً من أن يشكل التحقيق محنة قاسية
بالنسبة لي، وكان علمي أن أخفي عنه رباطة جأشي.

حددت هوية القتيل، وهو ل. ب. كارتون، ولم يعثر الشرطة
على شيء في جيبه ما عدا طلباً من أحد مدماصرة البيوت لمعاينة بيت

ولكن صباح اليوم التالي حمل معه مفاجأة؛ فقد كانت أسرة فليمغ مشتركة بصحيفة «ديلي بذجيت»، وكانت الصحيفة قد فازت يومها بصيد ثمين: «تكملة غريبة لحادث تفق القطار»، «العثور على امرأة مخنوقة في بيت منعزل». وقرأت الخبر بلهفة:

الفصل الرابع

لم يتقدم أحد للتعرف على المرأة القتيلة، وقد خلص التحقيق إلى الحقائق التالية: بعد الساعة الواحدة بقليل من يوم الثامن من كانون الثاني دخلت امرأة أنيقة تتكلم بلكنة أجنبية مكاتب شركة باتلر وبارك، وهي شركة عقارات في نايتسبريدج. وقد أوضحت بأنها تريد استئجار أو شراء بيت على نهر التيمز يكون قريباً من لندن. وقد أعطيت لها مواصفات بيوت عديدة بما فيها بيت ميل هاوس. وقد قدمت نفسها باعتبارها السيدة «مي كاستينا» وعنوانها فندق ريتز، ولكن ثبت عدم وجود أحد بهذا الاسم بقيم هناك، وفشل العاملون في الفندق في التعرف على الجثة.

وقد أدلت السيدة جيمس، زوجة البستاني الذي يعمل عند السير بوسنيس بيدلار بشهادتها، وكانت تقوم بالناية بالبيت وتسكن في البيت الصغير المخصص للبواب والذي يطل على الشارع العام. قالت إن سيدة جهات لرؤية البيت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم. وقد أبرزت إلهاً من وكلاء البيت، وكما كانت العادة المتبعة أعطتها السيدة جيمس مفاتيح البيت. كان البيت يبعد قليلاً عن بيت البواب، ولم يكن من هادئها مرافقة الذين يعتمون استئجار البيت. بعد ذلك ببضع دقائق جاء شاب، وقد وصفته السيدة جيمس بأنه شاب طويل عريض المنكبين ذو وجه برونزي وعينين رماديتين فاتحتين. كان حليق اللحية ويلبس بدلة

تم أمس اكتشاف مثير في «ميل هاوس» في منطقة مارلو. فمتزل «ميل هاوس» (وصاحبه هو عضو البرلمان السير بوسنيس بيدلار) كان معروضاً للإيجار غير مفروش، وقد عُثر على طلب بمعاينة هذا البيت في جيب الرجل الذي اعتقد في البداية أنه انتحر بإلقاء نفسه على خط السكة الحديدية في محطة قطار الأنفاق قرب الهاید بارك. وقد عُثر في الغرفة العلوية في ميل هاوس على جثة امرأة شابة جميلة بالأمس، وقد خنفت. ويُعتقد بأنها أجنبية، ولكن لم يتم التعرف على هويتها حتى الآن، وقد ذكر أن لدى الشرطة خيطاً يدل على ذلك. ويقوم السير بوسنيس بيدلار، صاحب البيت، بقضاء عطلة الشتاء في الريفيرا.

* * *

بنية اللون. أوضح للسيدة جيمس أنه صديق للسيدة التي جاءت لمعاينتها عصر اليوم التالي باستثناء ذلك الشاب مدار الحديث، فقد بدا البيت ولكنه تخلف عنها عند مكتب البريد حتى يعث ببريقة. أرشده من المنطقي الاستنتاج بأنه هو قاتل سيئة الحظ السيدة دي كاستينا. وقد إلى البيت ولم تعد تفكر بالأمر بعد ذلك.

بعد ذلك بخمس دقائق عاد الرجل ثانية وأعاد إليها المفاتيح وأوضح بأن البيت لا يناسبهما. لم تر السيدة جيمس المرأة، ولكنها ظنت أنها ذهبت قبله. وقد لاحظت أن الشاب بدا متزعجاً جداً من شيء ما... "بدا كرجل رأى شيئاً، وحسبته مريضاً".

وفي اليوم التالي جاءت سيدة ورجل آخران لرؤية البيت فاستكشفا الجثة ملقاة على أرضية إحدى الغرف في الطابق العلوي. وقد شهدت السيدة جيمس بأنها جثة المرأة التي جاءت في اليوم السابق، كما تعرف عليها العاملون في شركة العقارات باعتبارها «السيدة دي كاستينا». وقال الطبيب الشرعي إنه يرى أن المرأة قد توفيت قبل العثور عليها بأربع وعشرين ساعة تقريباً. وقد سارعت صحيفة ديلي يدجيت إلى الاستنتاج بأن الرجل الذي قُتل في حادث نفق القطارات هو الذي قتل المرأة ثم انتحر بعد ذلك. وحيث أن ضحية نفق القطارات كان قد قتل الساعة الثانية، فيما كانت المرأة حية ترزق الساعة الثالثة، فإن النتيجة المنطقية الوحيدة التي يمكن التوصل إليها هي عدم وجود علاقة بين الحادثين، وأن إذن معاينة البيت في مارلو الذي وُجد في جيب الرجل القتيل كان مجرد واحدة من تلك الصدوف التي تظهر كثيراً في هذه الدنيا.

كانت هذه هي التفاصيل التي أذاعتها الديلي يدجيت، وكانت صرختها اليومية هي: "ابحثوا عن الرجل ذي البذلة البنية". وكان يكتب للمصحفة نحو خمسمئة شخص يومياً زاعمين أنهم نجحوا في بحثهم، وكان الشباب الطوال ذوي الوجوه السمراء المسفوعة يندمون على اليوم الذي أقتنعهم فيه خياطوهم بتفصيل بذلة بنية. أما حادث نفق القطار (الذي أسلعه باعتباره مصادفة) فقد تلاشى من عقول العامة.

وكان الحوادث مصادفة؟ لم أكن واثقة من ذلك. لا شك أنني كنت مذهولة؛ لحادث القطار كان لغزي الأثير الخاص، ولكن بدا لي أن من المؤكد وجود صلة ما بين الوفايتين؛ ففي كلا الحادثين كان يوجد رجل لاروجه مسفوع... واضح أنه رجل إنكليزي يعيش في الخارج، وكانت توجد أشياء أخرى. إن تفكيري بهذه الأشياء الأخرى هو الذي دفعني في النهاية إلى ما اعتبرته خطوة جريئة؛ حيث ذهبت إلى سكوتلاند يارد وطلبت مقابلة المسؤول عن قضية ميل هاوس.

وقد استغرق طلي وقتاً طويلاً حتى تم فهمه لأنني كنت قد ذهبت عن غير قصد - إلى القسم المختص بالمفقودات، ولكن في نهاية الأمر تم اقتيادي إلى غرفة صغيرة وقُدمت إلى المفتش ميدوز.

وقد أصدر قاضي التحقيق حكمه بأنها "جريمة قتل عمداً ارتكبتها مجهول". وتُرك الشرطة (وصحيفة ديلي يدجيت) ليبحثوا عن «الرجل ذي البذلة البنية». وحيث أن السيدة جيمس كانت واثقة من عدم وجود شخص داخل البيت عندما دخلته المرأة، وأن أحداً لم يدخل البيت

وقد أصدر قاضي التحقيق حكمه بأنها "جريمة قتل عمداً ارتكبتها مجهول". وتُرك الشرطة (وصحيفة ديلي يدجيت) ليبحثوا عن «الرجل ذي البذلة البنية». وحيث أن السيدة جيمس كانت واثقة من عدم وجود شخص داخل البيت عندما دخلته المرأة، وأن أحداً لم يدخل البيت

كان المفتش ميدوز رجلاً صغير الحجم ذا شعر بني اللون وأسلوب وجدته مزعجاً جداً، وكان رجل آخر يلبس الملابس المدنية يجلس في الإلقاء بشهادته أبداً؟ إحدى الزوايا دون تفضل.

جزيت معه مساراً آخر: ألا تعتقد أن من الغريب أن لا يأتي الطبيب
- ليس من شأن طبيب مشغول جداً أن يقرأ الصحف في الغالب.
ربما نسي كل شيء عن الحادث.

قلت بلطف: الحقيقة - أيها المفتش - أنك عازم على أن لا تجد شيئاً قريباً.

- أنا أميل إلى الظن بأنك مفرمة قليلاً بهذه الكلمة يا آنسة بيدنغفيلد. أعرف أن القتيات شاعريات... يعرمن بالأغاز الغامضة وما إلى ذلك. ولكن بما أنني رجل مشغول...

فهمتُ تلميحهُ فنهضتُ، ولكن الرجل الجالس في الزاوية قال بصوت ضعيف: ربما رغبتِ الآنسة بأن نقول لنا باختصار ما هي أفكارها حقاً حول الموضوع أيها المفتش؟

أبدى المفتش استعداداً فورياً للاستجابة لهذا المقترح وقال: نعم، هذا إذن يا آنسة بيدنغفيلد، لا شعري بحرج. لقد طرحتِ أسئلة ولمحتِ إلى أمور؛ أخبرينا بشكل مباشر بما يدور في ذهنك.

ترددت بين كبريائي المجروح والرغبة العارمة في بسط نظريتي، لم هربت بكبريائي المجروح عرض الحائط.

- لقد قلت في التحقيق إنك واثقة أن الأمر لم يكن انتحاراً، أليس كذلك؟

- بلى، أنا واثقة تماماً من ذلك. كان الرجل خائفاً... ما الذي

قلت بارتباك: صباح الخير.
- صباح الخير. هلاً جلست؟ لقد فهمتُ أن لديك ما تريدني قوله لي وترين أنه قد يفيدنا.

بدا من نبرة صوته أن ذلك أمر مستحيل تماماً، وأحسست بتعكر مزاجي. قلت: أنت تعرف أمر الرجل الذي قُتل في نفق القطارات؟ الرجل الذي كان يحمل في جيبه إذناً لمعاينة نفس البيت في مارلو.

قال المفتش: آه! أنت الآنسة بيدنغفيلد التي أدلت بشهادتها في التحقيق. كان الرجل يحمل في جيبه إذناً بالتأكيد. ربما كان مثل هذا الإذن في جيوب كثير من الناس... إلا أنهم لم يصدف أن قُتلوا.

استجمعت قواي وقلت: ألم ترَ غرابة في عدم حمل هذا الرجل تذكرةً في جيبه؟

- من أسهل الأشياء في الدنيا أن تسقط التذكرة من المرء. لقد حدث ذلك معي شخصياً.

- ولا مالاً أيضاً.

- كان معه بعض القطع المعدنية في جيب بنطاله.

- ولكنه لم يكن يحمل معه أوراقاً نقدية.

- بعض الرجال لا يحملون معهم أية محفظة جيب.

أخافه؟ لم يكن أنا، ولكن ربما كان هناك شخص قادم على الرصيفاً بعد أي شيء يريد من جيوبه.
باتجاهنا... شخص مئزّه الرجل.

- ألم تري أحداً؟

- نعم؛ فأنا لم ألتفت. وبعدها، بمجرد رفع الجثة عن السكة اندفع رجل لكي يفحصها قائلاً إنه طيب.

قال المفتش ببرود: لا شيء غير عادي في ذلك.

- ولكنه لم يكن طبيياً.

- ماذا؟

كررت: لم يكن طبيياً.

- وكيف عرفت ذلك يا آنسة بيدنغفيلد؟

- من الصعب توضيح ذلك بالضببط. لقد عملت في مستشفيات أثناء الحرب، ورأيت الأطباء وهم يتعاملون مع الجثث. يوجد نوع من البرود والرشاقة المهنية مما لم يكن لدى هذا الرجل. ثم إن الطبيب لا يتحسس قلب المريض على الجانب الأيمن من جسده عادة!

- وهل فعل ذلك؟

- نعم، لم أتبه لذلك بشكل خاص وقتها... إلا أنني شعرت بشيء غير طبيعي. ولكنني أدركت ذلك عندما عدت إلى البيت، وهناك فهمت لماذا بدا لي الأمر كله مفتقراً للبراعة والإقناع.

همهم المفتش وهو يبحث ببطء عن قلم وورقة، فيما قلت: كانت له فرصة سانحة وهو يمرر يديه فوق الجزء العلوي من جسد الرجل لكي

قال المفتش: يبدو أمراً غير محتمل بالنسبة لي. ولكن... حسناً، هل يمكنك وصفه؟

- كان طويلاً عريض المنكبين، يلبس معطفاً داكناً وحذاءً أسود ولحمة سوداء مستديرة. كانت له لحية سوداء مديبة، ويلبس نظارة ذات إطار ذهبي.

قال المفتش متذمراً: إذا حذفنا المعطف واللحية والنظارة فلن نكون لدينا الكثير مما يمكن أن نستدل به عليه. إنه يستطيع تغيير مظهره بسهولة كافية خلال خمس دقائق إن أراد ذلك... وهو ما سيفعله إن كان بارهاً في النشل كما تُلّمحين.

لم يكن في نيتي التلميح لشيء كهذا، ولكنني - منذ تلك اللحظة - اعتبرت المفتش ميؤوساً منه.

سألني وأنا أنهض للمغادرة: ألا يوجد شيء آخر تقولينه لنا عنه؟ قلت: "بلى". وانتهزت الفرصة لأرمي له بالقتلة الوداعية: كان رأسه عريضاً وقصيراً بشكل ملفت للانتباه، ولن يكون من السهل عليه لهدبل ذلك.

* * *

لقد أخذت هذه البطاقة ونظفتها بعناية وكتبت عليها بالقلم الرصاص الكلمات: "أرجو أن تعطي الأسة بيدنغفيلد القليل من وقتك". لا يجب أن تكون المغامرات شديداً الورد في أساليبي!

نجحت الخطة؛ فقد استلم الخادم البطاقة وذهب بها، وفي الحال جاء سكرتير شاحب اللون. تملصت من أسلته فرجع مهزوماً، ثم عاد ثانية وطلب مني أن أتبعه، فبعتنه. دخلت غرفة كبيرة، عبرت من جانبي بسرعة طابعتُ اختزال يبدو عليها الخوف وكأنها طائر قادم من عالم الأرواح، ثم أغلق الباب وأصبحت مع اللورد ناسبي وجهاً لوجه.

كان رجلاً ضخماً، كبير الرأس، كبير الوجه، كبير الشاربين، كبير البطن. واستجمعت قواي، فأنا لم أت هنا للتعليق على بطن اللورد ناسبي، وقد بدأ يزار قاتلاً: حسناً، ما الأمر؟ ماذا يريد لومسلي؟ هل أنت سكرتيرته؟ ما الأمر؟

قلت بكل ما استطعتُ استجماعه من برودة أعصاب: أولاً أنا لا أعرف اللورد لومسلي، وهو لا يعرف عني شيئاً بالتأكيد. لقد أخذت بطاقته عن الطاولة في بيت الناس الذين أقيم معهم وكتبت هذه الكلمات عليها بنفسي. كنت أريد رؤيتك لأمر مهم.

بدا للحظات أن اللورد ناسبي يوشك أن يُصاب بسكتة، وفي نهاية الأمر بلغ ريقه مرتين ثم تغلب على حالته تلك وقال: أنا معجب ببرودة أعصابك أينها الفتاة. حسناً، ها قد رأيتني! إذا أثرت اهتمامي فسوف تستمرين في رؤيتي لدقيقتين أخريين بالضبط.

أجبت: سيكون هذا كافياً، وسوف أثير اهتمامك. إنه لغز ميل هاوس.

الفصل الخامس

وفي ذروة السخط وجدت أن خطوتي التالية كانت سهلة على نحو غير متوقع. كنت قد وضعت شبه خطة في ذهني عندما ذهبت إلى سكوتلانديارد؛ خطة كنت سأنفذها إذا كانت مقابلتي هناك غير مرضية (وقد كانت غير مرضية أبداً)، وإذا ما وجدت الشجاعة لتنفيذها. إن الأمور التي يخاف المرء عادة من القيام بها يكون من السهل الإقدام عليها في حمأة الغضب، ودون أن أعطي نفسي وقتاً للتفكير ذهبت إلى بيت اللورد ناسبي مباشرة.

كان اللورد ناسبي هو المليونير الذي يملك صحيفة الديلي بديجيت. كان يملك صحفاً أخرى عديدة، ولكن الديلي بديجيت كانت صحيفته المدللة، وكان معروفاً لدى كل بيت إنكليزي بصفته مالكاً لتلك الصحيفة. ولأن تحركات الرجل العظيم اليومية كانت قد نُشرت لتوها في الصحيفة فقد عرفت أين أجده بالضبط في تلك اللحظة. كانت تلك هي الساعة التي يلعب فيها بريده على سكرتيره في بيته.

لم أفترض طبعاً أن أبة فتاة تختار المجيء إليه وطلب رؤيته سيتم إدخالها فوراً لمقابلته المهيبة، ولكني كنت قد احتوت لهذا الجانب من المسألة. لاحظت على الطاولة في صالة منزل السيد فليمنغ وجود بطاقة المركز لومسلي، النبيل الرياضي الأكثر شهرة في إنكلترا. كنت

فاطمني على عجل: إذا كنت قد وجدت الرجل ذا البدلة البنية، ولقد أخذتها عن الأرض. كانت رائحة كرات العث نفوح منها، وكذلك فاكثني إلى رئيس التحرير.

قلت بعناد: إن كنت ستقاطمني فسأمكث أكثر من دقيقتين. أنا لـ أجدر الرجل ذا البدلة البنية، ولكن يُرجع جداً أن أجده.

- دعيني أراها.

مدّ اللورد ناسي يده دون مبالاة فقلت مبتسمة: لا أرى ذلك؛ إنه اكتشافي أنا.

- أنا مصيب؛ فأنت فعلاً فتاة ذكية. إنك مصيبة تماماً في تمسكك بها. ألم تشعرني بحرج من عدم تسليمها إلى الشرطة؟

- ذهبت هناك صباح اليوم لكي أفعل ذلك، وقد أصروا على عدم وجود صلة بين هذا الأمر وبين جريمة مارلو، ولذلك رأيت أن من حلني -في هذه الظروف- الاحتفاظ بالورقة. وإلى جانب ذلك فقد كان العفش مستهتراً بي.

- إنه رجل قصير النظر. حسناً يا فتاتي العزيزة، إليك ما أستطيع فعله لك: واصلني عملك هذا، وإذا حصلت على أي شيء... أي شيء صالح للنشر... فأرسله مباشرة وسوف تحصلين على فرصتك. لدينا عالمنا مجال في الدليلي بـدجيت للموهوبين الحقيقيين. ولكن يجب أن تثبتني نجاحك أولاً. أفهمت؟

شكرته واعتذرت له عن أسلوبه في المجيء إليه، فقال: لا تأبهني لذلك. إنني أحب القليل من الوقاحة... من فتاة جميلة. على فكرة، لقد كتبت دقيقتين وقد مكثت هنا ثلاث دقائق بسبب المقاطعة. وهذه مسألة

فاطمني على عجل: إذا كنت قد وجدت الرجل ذا البدلة البنية، ولقد أخذتها عن الأرض. كانت رائحة كرات العث نفوح منها، وكذلك فاكثني إلى رئيس التحرير.

قلت بعناد: إن كنت ستقاطمني فسأمكث أكثر من دقيقتين. أنا لـ أجدر الرجل ذا البدلة البنية، ولكن يُرجع جداً أن أجده.

شرحت له في أقل ما أستطيعه من كلمات حقائق حادث فق القطارات والاستنتاجات التي توصلت إليها. وعندما أنهيت كلامي قال على نحو غير متوقع: ماذا تعرفين عن الرؤوس العريضة القصيرة؟

ذكرت له والذي فقال: الرجل القرد؟ إيه؟ يبدو أن في رأسك عقلاً من نوع معين أيها الفتاة. ولكن ما تعرفينه ضئيل جداً. ليس فيه الكثير مما يمكن العمل بموجبه، وهذا لا يقيدنا... بوضعه الحالي.

- أنا أدرك هذا تماماً.

- إذن ماذا تريدان؟

- أريد وظيفة في صحيفتك لكي أحقق في هذه المسألة.

- لا أستطيع ذلك. لدينا صحفي خاص يتولى هذه القضية.

- ولديّ معلوماتي الخاصة أيضاً.

- أهي ما أخبرتني به الآن؟

- آه، لا يا لورد ناسي. ما زلت أحتفظ بشيء عندي.

- أهذا صحيح؟ تبدين فتاة ذكية. حسناً، ما هو هذا الشيء؟

- عندما دخل هذا الطيب المزعوم إلى المصعد أسقط ورقة،

ملقطة تماماً للنظر عندما تأتي من امرأة لا يد أن ذلك عائد لتدريب
العلمي.

خرجت إلى الشارع ثانية أنتفس بصعوبة وكأني كنت أركض. وة
وجدت اللورد ناسبي مُتعباً كرجل أتعرف عليه حديثاً!

* * *

الفصل السادس

عدت إلى البيت وقد غمرني إحساس بالبهجة. لقد نجحت خطتي
أكثر مما كنت أتوقع. كان اللورد ناسبي لطيفاً جداً، وأصبحت الكرة
الآن في ملعبي لكي أثبت نجاحي كما قال. وعندما أغلقت عليّ غرفتي
المخرجت ورقتي الثمينة وتفحصتها باهتمام. هنا مفتاح اللغز.

«١٧، ١٢٢ كيلموردن كاسل».

ماذا تعني هذه الأرقام؟ كانت خمسة أرقام مع وجود فاصلة بين
الرقمين الثاني والثالث من اليسار... سبعة عشر على الجهة اليسرى،
وعدة واثنان وعشرون على الجهة اليمنى... لم يبد أن ذلك يفضي إلى
شيء.

بعدها جمعت هذه الأرقام، فهذا ما يحدث غالباً في الروايات
ويؤدي إلى نتائج مذهلة: واحد وسبعة يساوي ثمانية، وواحد يساوي
تسعة، واثنان يساوي أحد عشر، واثنان يساوي ثلاثة عشر!

ثلاثة عشر؟ رقم مشؤوم! أكان ذلك تحذيراً لي لأترك البحث في
هذا الأمر؟ محتمل جداً. وعلى أية حال فقد بدا الأمر - من غير صفة
التحذير - عديم الفائدة تماماً. رفضت التصديق بأن أي متأمر يمكن أن

يكتب الرقم ثلاثة عشر بهذه الطريقة، فلو كان يقصد كتابة ثلاثة عشر الاسم. لماذا اخترع شخصُ اسماً كهذا ويكتبه على قصاصة من الورق؟
لكان كتبها بالأرقام، هكذا: ١٣.
هنا سحفت!

كانت بين رقم واحد ورقم اثنين مسافة، فطرحت اثنين وعشرين من مئة وواحد وسبعين. كانت النتيجة هي مئة وتسعة وخمسون. فعلت ذلك ثانية، وجعلتها مئة وتسعة وأربعين. لا شك أن هذه التمارين الحسابية تعد تمريناً رائعاً، ولكنها بدت -بالنسبة لحل اللغز- عقيدة تماماً. تركت الحساب دون أن أحاول القيام بعمليات قسمة أو ضرب، وانتقلت إلى الكلمات.

كلموردن كاسل (أي قلعة كلموردن)؛ كان هذا شيئاً محدداً... مكاناً. قد يكون موطن عائلة أرسنطراطية (وريث مفقود؟ أو مُطالب بقلب؟)، أو ربما أثر غريب جميل (كنز مدفون؟).

نعم، ملث إجمالاً إلى نبي فكرة الكنز المدفون؛ فالأرقام تتوافق دوماً مع الكنوز المدفونة. خطوة واحدة إلى اليمين، سبع خطوات إلى اليسار، احفر قدماً واحداً في الأرض، اهبط اثنين وعشرين درجة... مثل هذه الأفكار. أستطيع حل ذلك فيما بعد. المهم هو الوصول إلى قلعة كلموردن في أسرع وقت ممكن.

خرجت بهجمة استراتيجيية من غرفتي لأعود محملة بالكتب المرجعية، بدءاً بموسوعة «الأعلام» وانتهاء بكل المراجع التي تتحدث عن تاريخ البلد وأثاره وعائلاته العريقة.

مر الوقت وأنا أبحث دون كلل، ولكن انزعاجي كان يزداد، وأخيراً أغلقت الكتاب الأخير بقوة. بدا لي أنه لا يوجد مكان يدعى قلعة كلموردن. وكان هذا عائقاً غير متوقع. لا بد من وجود مكان بهذا

ولكن كيف سأدخل إلى البيت؟ استبعدتُ بعضاً من أساليب المخابرات ورأيت استخدام أسلوب بسيط جداً. كان البيت معروفاً للإيجار، ويقترض أنه ما زال كذلك. سأذهب على شكل واحدة تبحث عن بيت للإيجار. وهكذا قررت زيارة وكلاء البيت، والتغطية على هدفي بأسطراراض بعض البيوت الأخرى في سجلاتهم.

ولكني هنا لم أستعن بمضيبي. قدّم لي موظف خفيف الظل مواصلات لنحو ستة بيوت جيدة، وقد تطلب الأمر مني استعمال كل مهارتي لأجد أسباباً لرفضها، وخشيت في النهاية أن أكون قد وصلت إلى طريق مسدود.

سألت الموظف وأنا أحدق حزينة إلى عينيه: "ألا توجد لديكم

قلت مصعوقة وأنا أخرج إذن المعايينة: لقد فهمتُ أن البيت معروف للإيجار، ولكن إن كان أحد قد استأجره...

- آه، أرجوك أن تسامحيني يا آنسة. لقد أزعجني كثيراً هؤلاء الصحفيون... لا أكاد أجد دقيقة راحة. لا، البيت لم يؤجر بعد، ولا يُحتمل أن يؤجر بعد الآن.

سألتها باهتمام: هل توجد مشكلة في المجاري؟

- يا إلهي! إن المجاري طبيعية يا آنسة، ولكن لا بد أنك سمعت عن تلك المرأة الأجنبية التي قتلت هنا؟

قلت دون مبالاة: أعتقد أنني قرأت شيئاً عن هذا في الصحف.

أثارت لامبالاتي هذه فضول المرأة الطيبة، ولو أنني أظهرت اهتماماً لكانت تكتمت على الأمر أيما تكتم. وهكذا انطلقت في الحديث مطامخة.

- لا بد أنك قرأت عنها بالفعل! لقد نُشرت القصة في جميع الصحف. إن صحيفة الديلي بدجيت ما تزال تبحث عن القاتل، ويبدو مما يقرؤونه- أن الشرطة عندنا غير أكفاء أبداً. أرجو أن ينجحوا في القبض عليه... رغم أنه كان شاباً وسيماً دون شك. كان في مظهره ما يوحي بالسمت العسكري... حسناً، ربما كان ممن جرحوا في الحرب، وهم يصبحون غريب الأطوار بعد ذلك أحياناً. ابن أخي حدث معي ذلك. ربما كانت تسيء معاملته... هؤلاء الأجانب سيئون للبر، رغم أنها كانت امرأة جميلة. وقفت هنا حيث تقفين أنت الآن.

قلت مغامرة: أكانت سمراء أم بيضاء؟ لا يمكن للمرء أن يعرف ذلك من الصور التي تنشرها الصحف.

آية بيوت أخرى؟، ثم أضفت وأنا المخص أوصاف ميل هاوس كم عرفتها من الصحف: بيت على النهر مباشرة، بحديقة واسعة، وبيت صغير للبوابة؟

قال الرجل بارتياح: لدينا طبعاً بيت السير يوستيس بيدلار، المسمى ميل هاوس.

قلت متلعثمة: أليس هو... أليس... (كان التلعثم هنا حقاً ضريبة معلّم).

- بلى؛ إنه البيت الذي حدثت فيه جريمة القتل. ولكنك قد لا ترغين...

قلت وأنا أتناظره بالتماسك: آه! لا أظنني أهتم لذلك.

أحسست أن أوراقي الثبوتية قد ترسخت تماماً الآن، فأضفت قائلة: وربما أحصل عليه بأجرة أرخص... بسبب ذلك.

رأيت أن هذه كانت ضريبة معلّم هي الأخرى. وقد أجباني الرجل: حسناً، هذا محتمل. لن نزعّم أن تأجيره سيكون سهلاً الآن... بسبب رفض الخدم للعمل فيه وما إلى ذلك. إذا أعجبك البيت بعد معاينته فإني أنصحك بتقديم عرض لاستجاره. هل أكتب لك إذناً بمعاينة البيت؟ - أرجوك.

بعد ذلك بربع ساعة كنت أقف عند بيت البواب التابع لميل هاوس. وعندما طرقت الباب فُتح وأطلت منه امرأة طويلة متوسطة العمر وقالت: لا يمكن لأحد دخول البيت، هل تسمعين هذا؟ لقد سئمت جداً منكم معشر الصحفيين. إن أوامر السير يوستيس تقول...

- كان شعرها أسود، أما وجهها فكان شديد البياض. أحسستُ أنه أكثر بياضاً من أن يكون طبيعياً. وكانت تضع أحمر شفاه صارخاً. أنا لا أحب رؤية أحمر الشفاه.

أصبحنا نتحدث الآن مثل صديقتين قديمتين. طرحت عليها سؤالاً آخر: أكانت تبدو عصبية أو مزعجة؟

- أبدأ. كانت تبتسم مع نفسها هادئة، وكأنها مسرورة من شيء. هذا هو السبب الذي أصابني بالذعر عندما جاء هؤلاء الأشخاص بعد ظهر اليوم التالي يركضون ويطلبون الشرطة ويقولون إن جريمة قتل قد وقعت. لن أتمكن من نسيان ذلك الموقف أبداً، ولن أجرؤ علي وضع قدمي في ذلك البيت أثناء الليل بعد ذلك. بل إنني ما كنت لأبقى هنا في الكوخ لولا توسل السير يوستيس إلي لأبقى.

- ولكنني ظننتُ أن السير يوستيس بيدلار موجود في مدينة كان؟

- نعم يا آنسة، ولقد عاد إلي إنكلترا عندما سمع الخبر. وبالنسبة لتوسله إلي فهو كلام مجازي، حيث أن سكرتيره السيد باجيت قد عرض علينا راتباً مضاعفاً لكي نبقي هنا، وكما يقول زوجي جونز فإن المال هو العامل هذه الأيام.

اتفقت تماماً مع زوجها جونز في عبارته التي يعرفها الكبير والصغير.

قالت السيدة جيمس وهي تعود فجأة إلى نقطة سابقة في الحديث: أما ذلك الشاب فقد كان مزعجاً بالفعل. كانت عيناه الفاتحتان تلتمعان تماماً، وقد لاحظتهما بشكل خاص. شعرت بأنه متفعل، ولكنني لم

أصور وجود شيء غير طبيعي. ولا حتى عندما خرج من البيت ثانية وهو يبدو غريباً.

- كم بقي داخل البيت؟

- آه، لم يمكث طويلاً؛ ربما نحواً من خمس دقائق فقط.

- كم كان طوله برأيك؟ نحو ستة أقدام؟

- أظن ذلك.

- أقلت إنه كان حليق الوجه؟

- نعم يا آنسة. لم يكن له حتى شاربان صغيران كنتك الشوارب التي تشبه فرشاة الأسنان.

سألتهما بدافع مفاجئ: أكان ذقته لامعاً؟

حدقت السيدة جيمس إلي بشيء من الرهبة وقالت: غريب أن لكهري ذلك يا آنسة، فقد كان لامعاً بالفعل. كيف عرفت ذلك؟

رمتُ توضيحاً مبهماً: مسألة غريبة، ولكن للفتلة ذقوناً لامعة بشكل عام.

قبلت السيدة جيمس هذا التبرير بحسن نية وقالت: عجيب يا آنسة، إنني لم أسمع بذلك من قبل أبداً.

- أظن أنك لم تلحظي شكل رأسه، أليس كذلك؟

- إنه من النوع العادي يا آنسة. هل أحضر لك المفاتيح؟

أخذتها وأكملت طريقي إلى منزل ميل هاوس. اعتبرت الخطوات

للاشت البسمة عن شفتيها وهل اقترب من قلبها خوف مجهول؟ أم أنها سعدت الطابق العلوي وكانت ما تزال تبسّم دون وعي للخطر الذي سيداهمها بعد وقت قصير؟ تسارعت نبضات قلبي أكثر. هل كان البهت فارغاً حقاً؟ هل ينتظرني الخطر أنا الأخرى هنا؟ لأول مرة فهمت معنى الكلمة الشائعة «الجوء». كان في هذا البيت جو ما، جو من القسوة والخطر والشر.

التي قمت بها جيدة حتى الآن. لقد أدركت طوال الحديث أن الفروقات بين الرجل الذي وصفته السيدة جيمس وبين الطبيب الذي رأيته في نفق القطارات لم تكن فروقات جوهرية. معطف، ولحية، ونظارات ذات إطار ذهبي. لقد بدا «الطبيب» في أواسط عمره، ولكنني تذكرت أنه انحنى على الجثة كأنه شاب نسيباً؛ فقد كانت في جسمه مرونة تدل على شبابه.

ضحية الحادث (وهو ما أسميته مع نفسي رجل الفتالين) والمرأة الأجنبية (السيدة دي كاستينا، أو مهما كان اسمها الحقيقي) كانا قد حدّدا موعداً للالتقاء في ميل هاوس. هكذا جمعت الأمرين معاً. إما لأنهما كانا يخشيان مراقبة أحدٍ لهما أو لسبب آخر، ولذلك اختارا الأسلوب الذكي في أن يحصل الاثنان على إذن بمعاينة نفس البيت. وهكذا سيبدو لقاؤهما هناك مجرد صدفة.

أما الحقيقة الأخرى التي كنت واثقة منها فهي أن رؤية رجل الفتالين لذلك «الطبيب» كانت مفاجأة غير متوقعة أبداً ومخيفة جداً له. ما الذي حدث بعد ذلك؟ تخلص الطبيب من مظاهر التخفي التي كان يضعها وتبع المرأة إلى مارلو. ولكن من الممكن -إن كان قد تخلص من اللحية بسرعة- أن تكون بقايا الصمغ قد بقيت عالقة على ذقنه، ولذلك كان سوالي الذي سألته السيدة جيمس.

وبينما كنت مستغرقة في التفكير وصلت إلى باب ميل هاوس المنخفض القديم. فتحت بالمفتاح ودخلت. كان سقف الصالة منخفضاً، وكان المكان معتماً تدل رائحته على أنه مهجور والعفن يملؤه. ارتعشت رغباً عني. ترى ألم تشعر المرأة التي جاءت إلى هنا قبل بضعة أيام وهي «تبسّم مع نفسها» بخطر مرتقب عندما دخلت هذا البيت؟ هل

التي أعطني على خيبتني في الفشل في مساعي. وعندما كنت أعيد قلم الرصاص إلى حقيبتني اتزلق من بين أصابعي وتدحرج على الأرضية.

كان ميل هاوس بيتاً قديماً حقاً، وكانت أرضياته غير مستوية، ولذلك تدحرج القلم باطراد وحركة متسارعة إلى أن استقر تحت إحدى النافذتين. وفي الفتحة التي توجد أسفل كل من النافذتين كان يوجد مطبق نافذة عريض وتحت خزانه، وكان قلبي قد توقف عند باب الخزانة تماماً. كانت الخزانة مغلقة، ولكن خطر لي فجأة أن القلم كان سيدخل الخزانة لو كان بابها مفتوحاً. فتحت الباب فتدحرج قلبي فوراً ودخل ليستر في زاوية الخزانة البعيدة. أخرجه مع ملاحظة أن القلم لم يكن بالإمكان رؤيته، بل يجب التحسس باليد بحثاً عنه، وذلك بسبب عدم وجود ضوء. وبسبب التصميم الخاص للخزانة. وفيما عدا قلبي كانت الخزانة خاوية. ولأني لا أحب إغفال شيء بحكم طبيعتي فقد جربت فتح الخزانة الأخرى أسفل النافذة المقابلة.

بدأت من النظرة الأولى وكأنها فارغة هي الأخرى، ولكنني نقتبت في داخلها بدأب، وكانت النتيجة أن أمسكت بيدي أسطوانة قاسية كانت تستقر في ثغرة معينة أو مُنخفض في الزاوية البعيدة للخزانة. وحالما أمسكتها بيدي عرفت ما هي؛ كانت لفافة من أفلام كوداك. لقد صرت أمام اكتشاف جيد!

أدرت -بالطبع- أن هذا الفيلم قد يكون فلماً قديماً يخص السير بولسبيس بيدلار تدحرج هنا ولم يتم العثور عليه عندما أفرغت الخزانة. ولكنني لم أقتنع بذلك؛ فالورقة الحمراء كانت أحدث منظراً من أن تكون كذلك. لم تكن مغيرة إلا بالقدر الذي يمكن أن يلحق بها إذا ما وُضعت في هذا المكان قبل يومين أو ثلاثة أيام... أي منذ اليوم الذي ارتكبت

الفصل السابع

دفعت عن نفسي الأحاسيس التي ضايقتني وصعدت إلى الطابق العلوي بسرعة. لم أجد صعوبة في العثور على الغرفة التي وقعت بها المأساة؛ ففي اليوم الذي اكتشفت فيه الجثة كانت السماء قد أمطرت مطراً غزيراً ولذلك كانت آثار الأحذية الموحلة تملأ أرضية الغرفة العارية في كل اتجاه. تساءلت ما إذا كان القاتل قد ترك آثاراً لقدميه في اليوم الذي سبق ذلك. كان المرجح أن يتكتم الشرطة على هذا الأمر لو كان ترك آثاراً، ولكنني عندما فكرت في هذا الأمر قررت أنه لم يكن محتملاً، لأن الجو يومها كان جميلاً غير ممطر.

لم يكن في الغرفة ما يشير للاهتمام. كانت غرفة مربعة تقريباً، ذات نافذتين كبيرتين بارزتين إلى خارج البيت، وجدران بيضاء خالية، وأرضية غير مفروشة، وكانت الألواح الخشبية للأرضية متسخة عند الحواف حيث تنتهي أطراف السجادة. فتشفت الغرفة بعناية، ولكنني لم أعثر فيها على شيء ذي دلالة مهما صغر، ولم يبدُ محتملاً أن نكتشف «امرأة التحري» الموهوبة الشابة أي دليل تم إهماله.

كنت قد أحضرت معي قلم رصاص ودفتر ملاحظات. ولم يبدُ أنه يوجد الكثير مما يمكن تدوينه، ولكنني رسمت مخططاً مختصراً للغرفة

الأرقام دلالة جديدة. ماذا لو كانت هذه الأرقام تاريخاً؟ ١٧، ١، ٢٢
أي السابع عشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٢. لا بد أن يكون
الأمر كذلك بالتأكيد! كنت غبية إذ لم أفكر بهذا من قبل. ولكن في هذه
العائلة يجب أن اكتشف مكان قلعة كيلموردن، فاليوم هو عملياً الرابع
عشر من كانون الثاني. بقيت ثلاثة أيام؛ وقت غير كاف... بل يكاد يكون
مستحيلًا، خاصة إن لم يعرف المرء أين يبحث!

كان الوقت متأخراً لإيداع القلم للتحميص، واضطرتُّ للإسراع
هالدة إلى البيت في كينسغتن حتى لا أتأخر على العشاء. وهناك خطر
بهائي وجود طريقة سهلة للتأكد من صحة بعض استنتاجاتي. سألت السيد
فليمنج إن كانت بين أغراض الرجل القتل آلة تصوير، فقد كنت أعرف
أنه كان مهتمًا بالقضية ومطلعاً على جميع التفاصيل.

ولشدة دهشتي وانزعاجي ردّ علي بأنه لم يكن يحتفظ بأية آلة
لتصوير، فقد تم تفتيش جميع أغراض كارتون تفتيشاً دقيقاً على أمل
الطرق على شيء قد يلقي الضوء على حالته الذهنية، وكان السيد فليمنج
مؤكداً من عدم وجود آلة تصوير من أي نوع بين أغراضه.

كان ذلك أشبه بنكسة لنظريتي؛ فإن لم تكن معه آلة تصوير،
فلماذا يحمل أفلاماً؟

انطلقت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لأحمض فلمي
الذهبن، وكنت شديدة الحرص بحيث ذهبت مباشرة إلى محلات كوداك
الرئيسية في شارع ريجنت حيث سلمت القلم لرجل هناك وطلبت نسخة
من كل صورة.

أنهى الرجل جمع عدد من الأفلام المعبأة في علب صفراء صغيرة
لإرسالها إلى الخارج، ثم أخذ فلمي فنظر إليه وقال وهو يتسّم: أظن

فيه الجريمة، ولو كانت موضوعة هناك منذ مدة أطول لكان الغبار الذي
يعملوها كثيفاً جداً.

من أسقطها هنا؟ المرأة أم الرجل؟ تذكرت أن محتويات حقيبتها
كانت سليمة ولم تمس كما ظهر من التحقيق. لو أن حقيبتها افتتحت
أثناء العراك وسقطت منها لفافة القلم لكان مؤكداً أن تسقط منها أيضاً
بعض القطع النقدية وتتبعثر في المكان. لا، لم تكن المرأة هي التي
أسقطت القلم.

استشقت فجأة وبارتياب. أتراني أصبحت موسوسة برائحة
الفتالين؟ كنت واثقة بأن لفافة الأفلام تضح منها نفس الرائحة أيضاً.
رفعتها إلى أنفي. كانت تخرج منها -كالعادة- رائحتها القوية الخاصة
بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك استطعت تمييز تلك الرائحة التي أكرهها
بوضوح. عرفت السبب في الحال؛ كان خيط صغير من القماش عالقاً
في الحافة الخشنة من البكرة التي يلتف عليها القلم، وكان خيط القماش
هذا مشربياً برائحة الفتالين. لقد كان هذا القلم في وقت ما داخل جيب
معطف الرجل الذي قُتل في نفق القطارات! هل كان هو الذي أسقطه هنا؟
لا يكاد ذلك يكون ممكناً؛ فتحركاته كلها قد تم إحصاؤها وذكراها.

لا، كان من أسقطه هو الرجل الآخر... الطبيب. لقد أخذ القلم
عندما أخذ الورقة، وهو الذي أسقطه هنا خلال صراعه مع المرأة. لقد
حصلت على طرف خيطا سوف أحمض القلم، وعندها ستكون عندي
معلومات أخرى أعمل بموجبها.

تركت البيت فرحة جداً، وأعدت المفاتيح إلى السيدة جيمس،
وتوجهت بأقصى سرعة ممكنة إلى محطة القطارات. وفي طريق عودتي
إلى المدينة أخرجت ورقتي الصغيرة وتفحصتها ثانية. وفجأة اكتسبت

أنك قد أخطأت.

- آه، لا؛ أنا متأكدة أنني لم أخطئ.

- لقد أعطيتني البكرة هذه بالخطأ؛ إنه فلم غير مصوّر.

خرجت من عنده أستجمع ما تبقى من كبريائي. أحسب أن من المفيد للمرء أن يعرف من وقت لآخر مقدار غباهه، ولكن أحداً لا يستطيع هذه العملية!

وبعد ذلك -عندما كنت أمر من جانب إحدى شركات الملاحة الكبيرة- توقفت فجأة. كان معروضاً في واجهة المكتب نموذج جميل لإحدى سفن الشركة، وكان مكتوباً عليها: أقلعة كينيلوورث. خطرت ببالي فكرة اعتباطية طائشة، فدفعت الباب ودخلت، ثم ذهبت إلى مكتب الاستقبال وقلت بصوت متلعثم (وحقيقي هذه المرة!): قلعة كيلموردن؟

- ستقلع يوم السابع عشر من ساوثهامبتون. أتريدين السفر إلى كيب تاون؟ في الدرجة الأولى أم الثانية؟

- كم سعر التذكرة؟

- للدرجة الأولى سبعة وثمانون جنياً...

قاطعت. كانت الصدفية أكبر من أن أستوعبها؛ إنه بالضبط نفس مبلغ إرثي! سأضع كل البيض عندي في سلة واحدة. قلت: الدرجة الأولى.

أصبحت الآن ملتزمة -بالتأكيد- بالمضي في المغامرة.

* * *

الفصل الثامن

(مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار،

عضو البرلمان)

أمر غير عادي أن لا أبدو قادراً على الحصول على شيء من الراحة أبداً. أنا رجل يحب الحياة الهادئة. إنني أحب النادي الذي أنتمي إليه، ولعب البريدج، والطعام المطبوخ جيداً. أحب إنكلترا في الصيف والريلميرا في الشتاء. ليست عندي أية رغبة بالمشاركة في أحداث مثيرة. أهاباً لا أمانع -وأنا أمام الموقد- بقراءة شيء عن مثل تلك الأحداث في الصحيفة، ولكن هذا هو أقصى ما يمكن أن أذهب إليه. إن هدفي في الحياة هو الحصول على الراحة التامة، وقد كرست مقداراً معيناً من التفكير ومقداراً معيناً من المال لتحقيق ذلك الهدف، ولكنني لا أستطيع القول إنني نجحتُ يوماً في ذلك. فإذا لم تحدث الأمور معي أنا فهي تحدث حولي، ولذلك أتورط فيها غالباً رغماً عن نفسي... وأنا أكره العورط.

كل هذه المقدمة لأن غايي باجيت جاء إلى غرفة نومي هذا الصباح يعمل بيده برقية ووجهه كوجه أخرس في جنازة.

وغاي باجيت هو سكرتيري، وهو رجل متحمس ومجتهد ورائع في كل شيء، وأنا لا أعرف أحداً يزعجني أكثر منه. ولقد كنت منذ وقت طويل أفكر في كيفية التخلص منه، ولكنك لا تستطيع طرد سكرتير لأنه يفضل العمل على اللعب ويحب النهوض من نومه مبكراً في الصباح وليست فيه أية عيوب. إن الشيء الوحيد المسأل في هذا الرجل هو وجهه. إن له وجه أولئك الذين كانوا يدسون السم في القرن الرابع عشر... من ذلك النوع الذي كان من شأن قيصر يورجيا أن يستخدمه ليقوم عنه بالمهمات القذرة.

قلت: هل خرجت الجنازة يا عزيزي... أم أنها ستجري في وقت لاحق هذا الصباح؟

لم تكن السخرية الجافة تروق لباجيت. اكتفى بالتحديق في وجهي وقال: إذن فأنت تعرف يا سيد يوستيس؟

قلت بغضب: أعرف ماذا؟ لقد استنتجتُ من تعابير وجهك أن أحد الباروك المقربين الأعراف سيدفن هذا الصباح.

لجاهل باجيت مزاحي قدر الإمكان، وقال وهو ينقر على البرقبة: ظننت أنك لا تعرف عن هذه. أعرف أنك تكره أن يوقفك أحد مبكراً... ولكنها الآن التاسعة صباحاً (بُصر باجيت على اعتبار الساعة الفاصلة صباحاً منتصف النهار عملياً)، وقد اعتقدتُ أنك بسبب هذه الظروف...

لم ربت على البرقية ثانية، فسألته: ما هذا الشيء؟

- إنها برقية من شرطة مارلو. لقد قُتل امرأة في بيتك.

أبقتني كلماته هذه تماماً، فصححت: أي وقاحة كبيرة هذه! لماذا لي يعني أنا؟ من الذي قتلها؟

- إنهم لا يقولون. أظن أن علينا أن نعود إلى إنكلترا فوراً يا سيدي.

- لا حاجة لأن نظن شيئاً من ذلك. لماذا يجب أن نعود؟

ومع ذلك ما كنت لأهتم كثيراً لو لم يجعلني باجيت أعمل أيضاً. إن فكرتي عن العمل هي أنه شيء يجب القيام به بمرح وخفة... بل العيب به في الحقيقة! وأنا أشك في أن يكون غاي باجيت قد عبث بأي شيء في حياته، فهو يأخذ كل شيء على محمل الجد، وهذا ما يجعل العيش معه صعباً.

راودتني - في الأسبوع الماضي - فكرة ذكية في إرساله إلى فلورنسا. لقد تحدثت عن فلورنسا ومدى رغبته في الذهاب إلى هناك فصححت: يا صاحبي العزيز، ستذهب إلى هناك غداً، وسادف لك جميع مصاريفك.

إن كانون الثاني (يناير) ليس الوقت المعتاد للذهاب إلى فلورنسا، ولكن الأمر سيكون سيان بالنسبة لباجيت. أتخيله وهو يتجول هناك بحمل كتاباً مرشداً بيده ويزور جميع معارض الرسومات. وما أرخص ذلك الثمن مقابل أسبوع من الحرية!

كان أسبوعاً جميلاً. فعلت فيه كل شيء أردته، ولم أفعل فيه أي

- الشرطة ...

- وما علاقتي أنا بالشرطة؟

- إنه بيتك.

- يبدو ذلك سوء طالعني أكثر منه خطئي.

مز غاي باجيت رأسه عابساً وقال باكئتاب: سيكون لهذا تأثير مؤسف جداً على جمهور ناخبيك.

بعد ثلاثة أيام:

لا أصدق كيف يمكن لأحدٍ يستطيع الهروب من إنكلترا في الشتاء أن لا يفعل ذلك! فمناخها سيء جداً، وهذه المتاعب كلها مزعجة جداً. يهول وكلاء البيت إن تأجير ميل هاوس بعد هذه الفضيحة سيكون أقرب إلى المستحيل. لقد هدأت كارولين... بمضاعفة راتبها. كان بوسعنا أن نرسل لها برفقة بهذا المعنى من كان، والحقيقة - كما قلت من البداية - لم أجد هرفساً من عودتنا إلى هنا. سأعود إلى هناك غداً.

* * *

بعد يوم واحد من ذلك:

حدثت عدة أشياء مذهشة جداً. أولاً قابلت أوغستوس ميلراي، وهو أفضل نموذج مثالي للحمار تنتجه الحكومة الحالية. أخذني في النادي جانباً عند زاوية هادئة بأسلوب ينضح بالسرية الدبلوماسية الخطيرة، ثم تحدث كلاماً كثيراً... عن جنوب أفريقيا والوضع الاقتصادي هناك، وعن الإشاعات المتزايدة عن حدوث إضراب في الراند، وعن الأسباب السرية التي تقف وراء ذلك الإضراب. كنت أصغي له بكل ما أوتيت

لا أفهم لماذا يكون له هذا التأثير... ومع ذلك لدي إحساس بأن غرائز باجيت تكون دائماً على حق في مثل هذه الأمور، فمن حيث الظاهر لن يقلل من كفاءة عضو في البرلمان أن تأتي شابة تائهة فتقتل في بيت فارغ له... ولكن أحداً لا يستطيع التنبؤ بوجهة النظر التي يراها الجمهور البريطاني المحترم إزاء أية قضية.

أكمل باجيت حديثه عابساً: وهي امرأة أجنبية أيضاً، وهو ما يجعل الأمر أسوأ.

مرة أخرى أظنه على حق؛ فإن كان مقتل امرأة في بيتك يضر بسمعتك فإنه يكون أكثر ضرراً إن كانت المرأة أجنبية. ثم خطرت لي فكرة أخرى فصحت: يا إلهي! أرجو ألا يضايق هذا كارولين.

كارولين هي المرأة التي تطبخ لي، وقد صدف أنها زوجة البستاني الذي يعمل عندي. ولئن كنت لا أعرف كيف تقوم بدور الزوجة، إلا أنها طاهية ممتازة. ومن ناحية أخرى فإن جيمس ليس بستانياً جيداً... ولكنني أوافق على كسله وأسكنه عندي في بيت البواب بسبب طهي كارولين فقط.

- لقد فكرت في السفر إلى هناك بعد نحو شهر.
- أليس باستطاعتك القيام بهذه الزيارة في وقت أقرب؟ هذا الشهر؟
- أر هذا الأسبوع في الحقيقة؟
- قلت وأنا أنظر إليه باهتمام: أستطيع، ولكن لا أظني أريد ذلك.
- إنك تؤدي بذلك خدمة عظيمة للحكومة... خدمة عظيمة جداً.
- ولن نجد منها... جحوداً لذلك.
- أعني أنك تريدني أن أكون ساعي البريد؟
- بالضبط. إن موقعك غير رسمي ورحلتك مبررة تماماً. سيكون كل شيء ممتعاً جداً.
- قلت ببطء: حسناً، ليس عندي مانع في ذلك. الشيء الوحيد الذي أهتم به هو الخروج من إنكلترا ثانية في أقرب وقت ممكن.
- ستجد مناخ جنوب أفريقيا ممتعاً... ممتعاً جداً.
- أعرف كل شيء عن المناخ يا عزيزي؛ لقد كنت هناك قبل الحرب بوقت قصير.
- أنا شاكر لك كثيراً يا بيدلار. سوف أرسل لك حزمة الرسائل مع العرائس لتسلمها بيد الجنرال سماتز مباشرة، أفهمت؟ إن «قلعة كهلوردن» ستبحر يوم السبت... وهي باخرة رائعة.
- راقبته لمسافة قصيرة في شارع بول مول قبل أن نفرق. صافحتني بهرارة وشكرني ثانية بإسراف. وعدت إلى البيت سيراً على الأقدام أفكر في الفوائد الفرعية الغربية لسياسة الحكومة.

من صبر، وأخيراً خفّض صوته حتى أصبح همساً وهو يشرح لي بأر مستندات معينة قد ظهرت ويجب أن تسلّم إلى الجنرال سماتز.

قلت وأنا امتع نفسي من التثاؤب: ليس عندي شك بأنك علمي حق تماماً.

- ولكن كيف نوصلها له؟ إن موقفنا في هذه المسألة حساس - حساس جداً.

قلت مبتهجاً: ما عيب اليريد؟ ضع طابعاً بقيمة بنسيتين، ثم ضعها في أقرب صندوق بريد.

بدا وكأنه قد صُدم تماماً من هذا الاقتراح. قال: يا عزيزي بيدلار! نضعها في البريد العادي!

كان أحد الألباز التي لم أفهمها أبداً هو إصرار الحكومات على توظيف مراسلي بريد واهتمامها الشديد بمستنداتها السرية. قلت له: إن كنت لا تحب البريد فأرسلها مع أحد رجالك. سوف يستمتع بالرحلة.

قال ميلراي وهو يهز رأسه الخرف: مستحيل، لدينا أسباب يا عزيزي بيدلار... أوكد لك أن لدينا أسباباً تمنع ذلك.

قلت وأنا أنهض: حسناً، إن الحديث معك مشوق جداً، لكني يجب أن أذهب...

- دقيقة واحدة من فضلك يا عزيزي بيدلار، دقيقة واحدة. أخبرني الآن بيني وبينك، أليس صحيحاً أنك تعزم القيام بزيارة لجنوب أفريقيا قريباً؟ إن لك مصالح كبيرة في روديسيا، كما أنك تولي مسألة انضمام روديسيا إلى الاتحاد اهتماماً قوياً.

ابنهم زائري وقال: قد يكون مرض الصفراء أو لا يكون، هذا
ما سيكشفه الزمن. ولكنني أستطيع إخبارك - يا سير يوستيس - بأن السيد
ميلراي لن يُفاجأ إذا ما جرت محاولة للتخلص من سكرتيرك. آه،
لا حاجة لأن تخشى على نفسك...

أظن أن خوفاً مؤقتاً ظهر على وجهي، ولذلك أكمل الزائر قائلاً:
إذا تم إبعاد سكرتيرك عن الطريق فسيكون الوصول إليك
سهلاً. على أية حال فإن السيد ميلراي يريد مني مرافقتك. تكاليف السفر
سنتكفل من شأننا بالطبع، ولكنك ستقوم بالإجراءات الضرورية المتعلقة
بمحوال السفر باعتبار أنك قررت طلب خدمات سكرتير ثان.

هذا شاباً مصمماً. حدّق كل منا إلى الآخر كما لو كان هناك صراع
إلا أنني، ولكنه غلبني فقلت بصوت ضعيف: حسناً.
- لا تخبر أحداً بموضوع مرافقتي لك.
قلت ثانية: حسناً.

ربما كان من الأفضل في نهاية الأمر أن آخذ هذا الشاب معي،
ولكنني شعرت بهاجس داخلي بأنني سأتورط في أمر ما، تماماً في الوقت
الذي ظننت فيه أنني حصلت على الراحة!
أولفت زائري عندما أراد أن يغادر وقلت ساخراً: قد يكون من
الأفضل أن أعرف اسم سكرتيري الجديد.

فكر دقيقة ثم قال: يبدو هاري رايبون اسماً مناسباً تماماً.
كانت طريقة غريبة في التعبير، وقلت للمرة الثالثة: حسناً.



في مساء اليوم التالي أبلغني خادمي جارفيس أن رجلاً يرغب
برؤيتي في أمر خاص، ولكنه رفض أن يعطيه اسمه. كنت أعرف أساليب
مندوبي شركات التأمين، ولذلك أخبرت جارفيس أن يقول له إنني
لا أستطيع رؤيته. ولسوء الحظ عندما كنت في حاجة حقيقية لخدمات
غاي باجيت كان طريح الفراش بسبب مرض الصفراء. إن هؤلاء الشباب
العجاذين معرضون دائماً للإصابة بداء صفراء الكبد.

عاد جارفيس وقال: الرجل قد طلب مني أن أخبرك - يا سيدي - أن
جاء إليك من طرف السيد ميلراي.

لقد غيرت هذا طبيعة الأمور. فبعد ذلك ببضع دقائق كنت أقتف
مواجهاً لزائري في المكتبة. كان شاباً قوي البنية ذا وجه برونزي، وكان
أثر لجرح يمتد مانلاً من زاوية عينه حتى فكه مشوهاً ما كان من شأنه أن
يبدو - لولا ذلك - وجهاً وسيماً رغم ملامح القسوة عليه.

قلت: حسناً، ماذا عندك؟

- لقد أرسلني السيد ميلراي إليك يا سير يوستيس، يُفترض أن
أرافقك إلى جنوب أفريقيا كسكرتير لك.

قلت: لدي سكرتيري الخاص يا عزيزي، ولا أريد سكرتيراً آخر.

- أعتقد أنك تريد يا سيدي. أين سكرتيرك الآن؟

- إنه مصاب بتوبة من مرض صفراء الكبد.

- أنت متأكد أنها مرض صفراء الكبد فقط؟

- بالطبع؛ إنه يعاني من هذا المرض دائماً.

قلت وأنا أكبح صبري النافذ: ماذا في الأمر؟

إن مربية الأطفال، الأنسة إمري، ستركتني. وبما أنك لم
تجديني إلى الآن بالعثور على أي وظيفة، فهل يمكنك البقاء معنا؟

لقد تأثرت؛ فقد كنت أعرف أنها لم تكن تريدني. إن مجرد الإحسان
هو الذي جعلها تعرض عليّ الوظيفة. أحسست بالندم لأنني كنت أفقدها
في نفسي، فنهضت وأسرعت نحوها بانفعال وألقيت بذراعي حول عنقها
وقلت: إنك امرأة عزيزة، عزيزة، عزيزة! أشكرك كثيراً. ولكن الأمر على
ما يرام الآن، فأنا مسافرة إلى جنوب أفريقيا يوم السبت.

لقد أجفل اقتضاضي السريع المرأة الطيبة. لم تكن معتادة على
إظهار العواطف المفاجئ، كما أن كلماتي أجفلتها أكثر. وسألني
بدهشة: إلى جنوب أفريقيا؟! يجب أن ندرس كل شيء من هذا النوع
دراسة متأنية يا عزيزتي.

كان ذلك آخر شيء أريده. شرحت لها أنني قد حجرت تذكرتني
والتي عندما أصل إلى هناك أنوي القيام بوظيفة خادمة استقبال. كان
الطلب هو الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به ارتجالاً. قلت إن في
جنوب أفريقيا طلباً كبيراً على خادמות الاستقبال، وطمأنتها إلى أنني
فأفارق على الاهتمام بنفسني، وفي النهاية تقبلت المشروع دون سؤال
وهي لتنهذ بارتياح لاتزياح مسؤوليتي عن كاهلها. وعند المغادرة دست
مخلفاً في يدي، وقد وجدت بداخله خمسة جنيهات جديدة مع عبارة:
"أرجو أن لا يجرح هذا مشاعرك، وتقبله مع حبي". كانت امرأة رائعة
والطبله. ما كنت أستطيع الاستمرار في العيش معها في نفس البيت،
ولهاي عرفت قيمتها الحقيقية.

الفصل التاسع

(متابعة لسرد آن)

من المخجل تماماً أن تصاب البطلة بدوار البحر. في القصص
كلما كان الدوران وتقاذف الموج للسفينة أكثر كلما أحببت ذلك أكثر،
وعندما يكون جميع من في السفينة مرضى تبقى هي الوحيدة التي تتهاوى
على ظهرها تحدى العوامل الجوية وتستمتع بالعاصفة. يؤسفني القول
إنني انقلبت شاحبة وأسرعت إلى أسفل السفينة عند أول تمايل للسفينة
كيلموردن. وقد استقبلتني مضيئة متعاطفة وقدمت لي خبزاً جافاً وشراب
الزنجبيل.

بقيت في حجرتي أتألم ثلاثة أيام، وقد نسبت البحث الذي كنت
أقوم به ولم يعد لي أي اهتمام بحل الألغاز الغامضة. كنت مختلفة تماماً
عن تلك الفتاة التي عادت من شركة الملاحة مسرعة مبتهجة إلى ساحة
ساوث كينسغتن.

ابسمت الآن وأنا أتذكر دخولي المفاجئ إلى غرفة الاستقبال.
كانت السيدة فليمنغ هناك وحيدة، وعندما دخلت التفتت إلي برأسها
وقالت: أهذه أنت يا عزيزتي آن؟ عندي شيء أود الحديث معك
بخصوصه.

وها أنذا أواجه العالم وأواصل مغامراتي وفي جيبي خمسة وعشرون جنياً.

وفي اليوم الرابع من رحلتي ألححت عليّ المضيضة في الصعود إلى ظهر السفينة. وكنت قد رفضت -ببساطة- مغادرة سريري وأنا مقتنعة بأن موتي هنا سيكون أسرع مما لو كنت على ظهر السفينة، لكنها أغرتني بقولها إننا نقترب من ماديرا. اعتملت الأمل في صدري؛ فأستطيع الآن مغادرة السفينة والتزول إلى الشاطئ والعمل خادمة استقبال هناك. إنني مستعدة أن أعمل أي شيء بشرط الوصول إلى اليابسة.

صعدت إلى ظهر السفينة بخطوات ضعيفة وأنا ألقُ حول جسدي المعاطف والأغطية، وجلست على الكرسي الخشبي كتلة جامدة. جلست هناك وعيناي مغمضتان كارهة الحياة، وجاء موظف الحسابات في السفينة (وكان شاباً أشقر الشعر ذا وجه صياني مستدير) وجلس بجاني وقال: مرحباً! هل تشعرين بالحزن على حالك؟

أجبتته كارهة وجوده بجاني: نعم.

آه - لن تعرفي نفسك بعد يوم أو يومين. الجو مغربٌ جداً في الخليج، ولكنه سيكون طقساً هادئاً بعد ذلك. سأخذك غداً للعب حلقات الرمي.

لم أجه، فمضي قائلاً: أنظنين أنك لن تعافين من مرضك؟ لقد رأيت أناساً أسوأ حالاً منك، ولكنهم أصبحوا بعد يومين فقط روح السفينة وحياتها، وستكونين مثلهم.

لم أكن أشعر بقدرتي على المشاكة لكي أخبره صراحة بأنه كذاب. حاولت إبلاغه بذلك عن طريق النظرات، وثرثر معي لبضع

فقال أخرى ثرثرة مرحة ثم تركني. كان الناس يعبرون من أمامي ثم يرحلون، والأزواج النشيطون يقومون بالتمارين الرياضية، والأطفال يهرعون والشبان يضحكون. وكان بعض المرضى الشاحبين يجلسون على المقاعد الخشبية.

كان الهواء عليلاً منعشاً ولم يكن بارداً جداً، وكانت الشمس تشرق بهضاء، وبلا وعي أحسست بقليل من الابتهاج. بدأت أراقب الناس، امرأة معينة جذبت انتباهي. كانت في نحو الثلاثين من عمرها، متوسطة الطول شديدة البياض وذات وجه مستدير ذي بشور وعينين شديديتي الزرقة. وأما ملابسها فرغم أنها بسيطة تماماً إلا أن فيها ذلك التفصيل الهارع الذي يوحى بباريس. وبدت أيضاً -على نحو مرح رغم وقاره- وكأنها تمتلك السفينة!

كان المضيفون على ظهر السفينة يركضون جيئة وذهاباً استجابة لأوامرها. كان لها كرسي خاص على ظهر السفينة يظهر بوضوح أن عليه فرشاً وليراً، وقد غيّرت رأياها ثلاث مرات قبل أن تستقر على المكان الذي يوضع فيه، وقد بقيت رغم كل شيء جذابة فاتنة! بدا أنها واحدة من الناس القلائل في العالم الذين يعرفون ماذا يريدون، ويحرصون على الحصول عليه، ويتمكنون من فعل ذلك دون أن يسيئوا لأحد. وقررت أن العديث معها سيكون ممتعاً لي إذا تعافيت من مرضي، رغم أنني لن أتعافى بالطبع!

وصلنا ماديرا في منتصف النهار تقريباً، وكنتُ ما زلت عاجزة عن الحركة، لكنني استمتعت بمنظر التجار الذين صعدوا إلى ظهر السفينة وهرسوا بضاعتهم على ظهرها، وكانت هناك زهور أيضاً. قربت إلى ألبي أزهار البنفسج المبتلة ذات الرائحة الجميلة وشعرت بتحسن واضح.

شكرتها وقلت إنني أشعر بحالة أقرب قليلاً إلى جنس البشر.
- كنت تبدين مريضة جداً بالأمس. ظننت أنا والكولونيل رايس
بأننا سنستمع برؤية جنازة على ظهر السفينة... ولكنك خيبت أملنا.

ضحكت وقلت: لعل صعودي إلى سطح السفينة في الهواء الطلق
لقد أفادني.

قال الكولونيل رايس مبتسماً: لا شيء مثل الهواء المنعش.

قالت السيدة بلير وهي تجلس على مقعد إلى جانبي وتصرف
مرافقها بإيماءة من رأسها: إن الجلوس داخل هذه الغرف الصغيرة
من شأنه أن يقتل أي واحد. أرجو أن تكوني قد حصلت على غرفة
مهاجرة؟

هزرت رأسي بالنفي فقالت: يا فتاتي العزيزة! لماذا لا تبدلين
هرفنك؟ يوجد الكثير من الغرف؛ لقد نزل كثير من الركاب في ماديرا
والسفينة تبدو فارغة جداً. تحدثي مع موظف الحسابات بخصوص هذا
الأمر. إنه ولد لطيف؛ لقد غير غرفتي وأعطاني غرفة جميلة إذ لم تعجبني
غرفتي الأولى. تحدثي معه عندما تتزilin لتناول الغداء.

ارتعدت وقلت: لا أستطيع الحركة.

- لا تكوني سخيفة. هيا ولنمش سوياً الآن.

غمزني لتشجعني. أحسست في البداية أن ساقي لا تقويان على
الحركة، ولكن عندما مشينا على ظهر السفينة بدأت أشعر بخفة ونشاط
أكثر.

فكرت -في الواقع- أنني أستطيع الاستمرار حتى نهاية الرحلة. وعندما
تحدثت مضيفتي عن لذة حساء الدجاج عارضت ذلك معارضة ضعيفة،
ولكن عندما قدموه لي استمتعت به.

كانت امرأتي الفاتنة قد نزلت إلى الشاطئ، ثم عادت برفقة رجل
طويل تبدو عليه ملامح عسكرية وله شعر أسود ووجه برونزي، وكنت
قد لاحظته وهو يصعد ويهبط عن ظهر السفينة في وقت مبكر من هذا
اليوم، واعتبرته -على الفور- واحداً من الرجال الأقوياء الصامتين. كان
في نحو الأربعين من العمر وقد وخطه الشيب في صدغيه، وكان أجمل
رجل على ظهر السفينة.

عندما أحضرت لي المضيفة غطاء إضافياً سألتها عن هوية هذه
المرأة الجذابة فقالت: إنها سيدة مجتمع معروفة، السيدة كلارينس بلير.
لا بد أنك قرأت عنها في الصحف.

أومات برأسي وأنا أنظر إليها باهتمام متجدد. كانت السيدة بلير
معروفة بأنها واحدة من أكثر النساء لباقة وقتها. لاحظت -باستمتاع-
كيف كانت مركز اهتمام الناس؛ فقد حاول عدة أشخاص التعرف عليها
بالطريقة غير الرسمية التي يسمح بها السفر على ظهر السفينة. لقد
أعجبت بالأسلوب المهدب الذي كانت السيدة بلير تصدهم به؛ ظهرت
وكانها قد خصت هذا الرجل القوي الصامت ليكون مرافقها الخاص
وبدا هو متفهماً للميزة التي اختصته بها.

دهشت في صباح اليوم التالي بشدة، فبعدما دارت السيدة بلير
حول السفينة مع رفيقها الصامت توقفت قريباً من مقعدي وقالت:
أتشعرين بنحسن هذا الصباح؟

لم مالت فوق الحاجز وقالت: أنتظنه سقط في البحر؟

- لا، ربما كنتِ محظوظة بضرب مضيف مسكين أسفل منك على رأسه.

لغخ ولد صغير - اقترب منا دون أن نلاحظه - في بوق معه نفخة
نصم الأذان. وقالت السيدة بليز مبتهجة: الغداء. أنا لم أتناول أي
شيء منذ الإفطار باستثناء كوبين من الشاي. هل تريدان الغداء يا أنسة
بيداليلهد؟

قلت مترددة: حسناً، نعم. أشعر بشيء من الجوع فعلاً.

- رابع. أعرف أنكِ تجلسين على طاولة موظف الحسابات. فاتحيه
بموضوع الغرفة.

لوجهت إلى القاعة أسفل السفينة وبدأت أكل بكل حذر، وانتهيت
بأنه لا تأكلت وجبة كبيرة. هنأني صديق الأمس على شغافتي من المرض
وقال لي إن الجميع يغيرون غرفهم هذا اليوم، وقد وعد بأن يتقل حقائبي
إلى غرفة مخرجة دون تأخير.

كان على طاولتنا أربعة أشخاص فقط: أنا، وسيدتان كهلتان،
ويظهر لحدث كثيراً عن «إخوتنا السود الفقراء».

لظرت حولي إلى الطاولات الأخرى. كانت السيدة بليز تجلس
على طاولة القبطان وبجانبتها الكولونيل رايس، وعلى الجانب الآخر من
الطاولة كان يجلس إلى جانب القبطان رجل أشيب الشعر بدا شخصية
بارزة. كان هناك الكثير من الناس الذين رأيتهم قبل ذلك على ظهر
السفينة، ولكن كان يوجد رجل لم يظهر من قبل. ولو أنه ظهر لما فاتتني

بعد دورة أو دورتين انضم إلينا الكولونيل رايس ثانية وقال: يمكن
رؤية القمة الكبرى لجزيرة تيبيراييف من الجانب الآخر.

- حقاً؟ أنتظن أن باستطاعتي التقاط صورة له؟

- لا، ولكن ذلك لن يمنعك من أخذ صورة بعيدة له.

ضحكت السيدة بليز وقالت: أنت فقط. إن بعض الصور التي
أخذتها رائعة.

- أعتقد أنها رائعة بنسبة ثلاثة بالمئة فقط.

ذهبنا جميعاً إلى الجانب الآخر من السفينة. كان الجبل هناك يشع
بياضاً بكسائه الثلجي وقد أحاط به ضباب خفيف وردي اللون. صحت
صيحة ابتهاج، وأسرت السيدة بليز لإحضار آلة التصوير.

بدأت تلتقط الصور بنشاط دون أن تتأثر بملاحظات الكولونيل
رايس الساخرة، ثم قالت وقد تغيرت نبرة صوتها وتكدرت: هذه هي
نهاية القلم. آه، إن حظي متعثر دائماً.

نعمت الكولونيل قائلاً: أحب دائماً رؤية الأطفال ومهمهم لعب
جديدة.

- كم أنت فظيع... ولكن عندي قلماً آخر.

أخرجته من جيب سترتها فَرَحَته. وتمايلت السفينة فجأة فكادت
تسقط، وعندما أمسكت بالحاجز لتثبيت نفسها سقط القلم من يدها
فوق الحاجز.

صاحت السيدة بليز فرحة: آه!

رؤيته. كان رجلاً أسمر طويلاً، وكانت ملامحه تدل بصورة غريبة على أنه من النوع الشرير مما أخافني. سألت موظف الحسابات - بعض الفضول - عن اسم هذا الرجل.

- ذلك الرجل؟ آه، إنه سكرتير السير يوستيس بيدلار. كان هذا المسكين مصاباً بدوار البحر ولم يخرج من غرفته قبل الآن. لقد أحضر السير يوستيس معه سكرتيرين وقد كان البحر مشكلة كبيرة لكلا الرجلين، ولم يظهر السكرتير الآخر بعد. هذا الرجل اسمه باجيت.

إذن فقد كان السير يوستيس بيدلار، صاحب منزل ميل هاوس، على ظهر السفينة. قد يكون هذا مجرد صدفة، ومع ذلك...

أكمل دليلي حديثه: ذلك هو السير يوستيس، يجلس إلى جانب القبطان. إنه عجوز مغرور.

كلما نفضت وجه السكرتير أكثر كلما زاد عدم ارتياحي له. حتى إن شحوبه الشديد وعينه المتكتمتين بحضنهما السميكتين ورأسه المستوي بشكل غريب... كل هذا جعلني أشعر نحوه بالكراهية، وبالخوف.

وعندما غادرت القاعة في نفس الوقت الذي غادر هو فيه كنت وراه قريبة منه عندما صعد إلى ظهر السفينة. كان يتحدث مع السير يوستيس، وقد سمعت طرفاً من الحديث الذي كان يدور بينهما: سأنظر في أمر الغرفة إذن على الفور. من المستحيل العمل داخل غرفتك بسبب حقائبك هذه.

أجابني السير يوستيس: يا عزيزي، إن غرفتي معدة أولاً لكي أنام فيها وثانياً لكي أحاول أن أغير ملابسي فيها. لم أكن أعترم أبداً السماح

الده يدخلونها وإزعاجي بألة الطباعة التي معك.

- هذا ما أقصده تماماً يا سيدي. يجب أن نجد مكاناً تعمل

عند هذا الحد افترقت عنهما ونزلت لكي أرى إن كانوا قد بدؤوا بالملون أغراضني، ووجدت المضيف مشغولاً بهذه المهمة.

- إنها غرفة جميلة جداً يا آنسة. الجناح 'د' من ظهر المركب، الغرفة رقم ١٣.

صحت: آه، كلا. ليس رقم ١١٣

الرقم ١٣ هو الخرافة الوحيدة التي أؤمن بها. كانت غرفة جميلة أيضاً. ارتعشت أوصالي لكن الخرافة الحمقاء هي التي غلبت. لجأت إلى المضيف دامعة: ألا توجد أية غرفة أخرى؟

فكر المضيف: حسناً، لدينا الغرفة ١٧ على الجانب الأيمن. كانت تلك الغرفة فارغة هذا الصباح، ولكنني أظن أنها تُخصصت لشخص ما. ومع ذلك، بما أن أغراض ذلك الرجل ليست موجودة في الغرفة بعد، ولأن الرجال لا يؤمنون بالخرافات كالنساء، فلا أظن سيمانع في تغيير الغرفة.

رحت يعرضه شاكرة وغادر المضيف لكي يحصل على إذن من موظف الحسابات. عاد وهو يتسم وقال: لا بأس بذلك يا آنسة؛ يمكننا الانتقال إلى هناك.

تقدمني نحو الغرفة ١٧. لم تكن كبيرة مثل الغرفة ١٣ ولكنني وجدتها مرضية جداً.

قال السيد باجيت: إنها مخصصة للسير يوستيس بيدلار.

أصبحنا جميعاً غاضبين.

قال تشيتشستر: إنني آسف لاضطراري للجدال في ذلك.

قال ذلك باتسامة حليلة فثلت في إخفاء عزمه على نيل ما يريد (ولقد لاحظت أن الرجال الحليمين يكونون عنيدين دائماً)، ثم دس نفسه بهكامل مائل في مدخل الباب.

قال المضيف: ستأخذ الغرفة رقم ٢٨ عند المدخل. إنها غرفة مظلمة يا سيدي.

- أخشى أنني مصرّ على مقوفي. لقد وعدتوني بالغرفة رقم

١٧.

فكنا قد وصلنا إلى طريق مسدود وكل واحد فينا صمّم على عدم الانسحاب. وقد كنت أستطيع - على أية حال - الانسحاب من هذه المباراة وتسهيل الأمور بالمواقفة على أخذ الغرفة ٢٨، فطالما أنني لن أجد الغرفة ١٣ فمن غير المهم بالنسبة لي أن آخذ أي غرفة أخرى. لكن في تلك اللحظة، ولم تكن عندي أية نية بأن أكون أول من يستسلم، كما أنني كرهت تشيتشستر. كان يضع طقم أستان يحدث صوتاً عندما كان يمشي، وقد كثر من الرجال لأسباب أقل من هذه. كررنا جميعاً نفس الكلام، وقد أكد المضيف لنا تأكيداً قوياً بأن الغرفتين الأخريين أفضل من هذه، ولكن لم يلتفت له أي واحد منا.

بدأ باجيت يفقد أعصابه، أما تشيتشستر فقد حافظ على وقاره، ولما حافظت على وقاري أنا الأخرى بجهد جهيد. ومع ذلك لم يتراجع

قال المضيف: سأذهب لأحضر أغراضك فوراً يا آنسة. ولكن في تلك اللحظة جاء الرجل صاحب الوجه الشرير (كما أسميته) ووقف عند مدخل الباب وقال: اسمحي لي، ولكن هذه الغرفة محجوزة لاستخدامات السير يوستيس بيدلار.

أوضح المضيف: لا بأس بذلك يا سيدي. لقد جهزنا الغرفة ١٣ بدلاً منها.

- لا، لقد حجزت الغرفة ١٧.

- لا يا سيدي. الغرفة ١٣ أفضل منها؛ فهي أكبر.

- لقد اخترت الغرفة ١٧ قاصداً، وقد قال موظف الحسابات إن بإمكانني أخذها.

قلت بيروود: أنا آسفة، ولكن الغرفة رقم ١٧ قد خصصت لي. - لا أوافق على ذلك.

تدخل المضيف في الحديث: الغرفة الأخرى نفسها، وهي أفضل.

- أريد الغرفة رقم ١٧.

سمعتنا صوتاً آخر من الخارج يقول: ما كل هذا؟ أيها المضيف، ضع أغراضك هنا. هذه هي غرفتي.

كان ذلك صوت جاري على طاولة الغداء، الكاهن إدوارد تشيتشستر.

قلت: أرجو المَعذرة، إنها غرفتي.

أرى متاً عن موقفه قيد أنملة.
هرفة على ظهر المركب في الجناح ج. يمكنك الانتقال لها... لمجرد
لنساء هذه الليلة على الأقل.

كانت الرائحة كريهة جداً... تسبب الغثيان. أخبرت المضيفة بأنني
سأفكر في أمر الانتقال وأنا أغير ملابسي. أصلحتُ من زيتتي بسرعة
وأنا أنشمم باشمتراز.

ماذا هي هذه الرائحة؟ جرد ميت؟ لا، إنها أسوأ من ذلك...
ولنختلف تماماً، ومع ذلك فإنني أعرفها! كانت رائحة شممتها من قبل.
رائحة... آه، لقد عرفتها؛ إنها رائحة الحلتيت! لقد عملت لفترة قصيرة
في صيدلية أحد المستشفيات أثناء الحرب وعرفت العديد من الأدوية
التي تسبب الغثيان.

الحلتيت، تلك هي الرائحة. ولكن كيف...

جلست على المقعد وأدرت الأمر فجأة. لقد وضع أحدهم شيئاً
من الحلتيت في غرفتي. لماذا؟ ألكي يجعلني أخليها؟ لماذا كانوا مهتمين
إلى هذا الحد بإخراجي منها؟ فكرت في المشهد الذي تم بعد ظهر هذا
البوم من وجهة نظر مختلفة. ماذا كان في الغرفة ١٧ حتى يجعل كل
هؤلاء الناس حريصين كل هذا الحرص على الحصول عليها؟ كانت
الغرفتان الأخريان أفضل منها، لماذا أصّر الرجلان على الحصول على
الغرفة رقم ١٧؟

١٧. كيف يُلخ هذا الرقم! لقد أبحرت من ساوثهامبتون يوم السابع
عشر. وكان ١٧... توقفت بشهقة مفاجئة. فتحت حقيبتني بسرعة وأخرجت
منها ورقني الثمينة حيث كنت أخفيها بين بعض الأغراض الملفوفة.

"١٧، ١٢٢". كنت قد فهمت هذا الرقم على أنه تاريخ، تاريخ

وبعزّة وكلمة هامسة من المضيف عرفت ما يتعين عليّ فعله
اختفيت عن مسرح النزاع دون فضول، وكنت محظوظة برؤية موظف
الحسابات مرة أخرى على الفور. قلت: آه، أرجوك. لقد قلتُ إن بإمكانني
الحصول على الغرفة ١٧ والآخرون لن يخرجوا منها. السيد تشيتشستر
والسيد باجيت. أنت ستسمح لي بأخذها، اليس كذلك؟

كنت أقول دائماً إن أحداً لا يوازي البحارة في لطفهم مع النساء؛
فقد تدخل موظف الحسابات لإنفاذي بشكل رائع. توجه نحو ساحة
النزاع وأبلغ المتنازعين بأن الغرفة ١٧ هي غرفتي وأن بإمكانهما أن يختاروا
أخذ الغرفتين ١٣ و ٢٨ أو البقاء حيث هما الآن.

سمحتُ لعينيّ بأن تبلغها كم كان بطلاً، ثم دخلت إلى غرفتي
الجديدة. وقد أفادتني تلك المواجهة كثيراً؛ فقد أصبح البحر في نظري
هادئاً، وأخذ الجو يزداد دفئاً يوماً بعد يوم، وأصبح دوار البحر شيئاً
من الماضي!

صعدت إلى ظهر السفينة وبدأت المشاركة في لعبة حلقات الرمي،
ثم شاركت في العديد من الألعاب. قُدّم الشاي على ظهر السفينة، وقد
أكلت ما يُقدم مع الشاي من معجنات شهية مفتوحة، وبعد الشاي لعبت
لعبة قذف الاسطوانات مع بعض الشباب المرح. كانوا لطفاء معي كثيراً،
وأحسست أن الحياة تبعث على السرور والبهجة.

كان بوق تغيير الملابس مفاجئاً لي، وأسرعت إلى غرفتي الجديدة.
كانت المضيفة تنتظرني بوجه متكدر، وقالت: في غرفتك رائحة قطعية
يا آنسة. لا أعرف ما هي، ولكنني أشك في قدرتك على النوم هنا. توجد

مغادرة السفينة «قلعة كيلموردن». ماذا لو كنت مخطئة؟ وعندما أخذت أفكر في ذلك تساءلت: هل كان لشخص يريد كتابة تاريخ معين أن يرى ضرورة لكتابة السنة والشهر؟ ماذا لو أن ١٧ تعني الغرفة ١٧؟ وماذا يعني الرقم ٢١ الوقت؟ الساعة الواحدة. إذن لا بد أن يكون ٢٢ هو التاريخ نظرت إلى رزنامتي الصغيرة.

كان غداً هو يوم الثاني والعشرين!

* * *

الفصل العاشر

انفعلتُ إلى أبعد حد؛ فقد تأكدت أنني وضعت قدمي على الطريق الصحيح في النهاية. كان شيء واحد واضحاً: يجب أن لا أغادر غرفتي، عليّ أن أتحمل رائحة الحلثيت.

وأمنت التفكير مرة أخرى في الحقائق المتوفرة لدي: كان غداً هو الثاني والعشرون من الشهر، وفي الساعة الواحدة ليلاً أو الواحدة ظهراً سيحدث شيء، وقد ملئتُ أكثر إلى خيار الساعة الواحدة ليلاً. كانت الساعة الآن السابعة مساءً، سوف أعرف بعد ست ساعات.

لا أعرف كيف قضيت الأمانة. عدت إلى غرفتي في ساعة مبكرة جداً، وقد أخبرت المضيفة أنني مصابة بالزكام ولا أهتم للرائحة الكريهة. كانت ما زالت مكتئبة، ولكنني كنت حازمة.

بدا الليل طويلاً بشكل ممل. وذهبت إلى النوم، ولكنني لففت نفسي برداء نوم سميك ولبست حذائي تحسباً للحالات الطارئة. وهكذا أحسست وأنا بملابسي هذه أن باستطاعتي القفز من سريري والقيام بدور حيوي إذا ما حدث أي شيء.

ما الذي توقعت حدوثه؟ لا أكاد أعرف. تراخمت في عقلي

الصندوق. وفي نفس الوقت سحبت بيدي الأخرى حوض الغسيل الملبث في الجدار إلى أسفل. حركة رشيقة واحدة وأصبح شعري يلتف لي عقدة صغيرة في أعلى رأسي. كانت هذه - من حيث الشكل - حركة غير فنية لكنها كانت من وجهة نظر أخرى فنية تماماً. امرأة شعرها معقود بطريقة غير لافتة تنكبت لتأخذ قطعة من الصابون من الصندوق لكي تغسل عنقها ظاهرياً، إن أحداً لن يشك في أنها تؤوي هارياً.

قُرع الباب ثم فُتح بقوة دون انتظار إذن مني بالدخول.

لا أعرف ما الذي توقعته رؤيته. اعتقد أن أفكاراً غامضة كانت قد راودتني عن السيد باجيت وهو يشهر مسدساً مهدداً، أو صديقي المبشر ومعه سلاح فتاك ما. ولكنني بالتأكيد لم أتوقع رؤية مضيئة ليلية بوجه مسائل يبدو مثلاً للاحترام.

- أرجو المعذرة يا آنسة، ظننتُ أنك صرختِ.

- لا، لم أصرخ.

- آسفة لمقاطعتك.

- لا بأس، فأنا لم أستطع النوم. اعتقدت أن الغسل يمكن أن يهدئي.

بدا من كلامي وكأن الغسل شيء لم أكن معتادة عليه أبداً.

قالت المضيئة ثانية: أنا آسفة جداً يا آنسة، ولكن يوجد رجل ثمل ولعشى أن يدخل إحدى غرف السيدات ويخيفهن.

قلت وأنا أبذو خائفة: يا له من أمر مرعب! هل سيأتي إلي هنا؟

تخييلات غامضة، معظمها أبعد ما يكون عن الاحتمال. ولكنني كنت مقتنعة بشيء واحد، وهو أن شيئاً سيحدث في الساعة الواحدة.

كنت أسمع أصوات الركاب وهم عائدون إلى النوم في أوقات متفرقة. مقاطع من الحديث، ضحكات وعبارات "تصبح على خير" كلها كانت تصل إلى مسامعي من خلال الفتحة الصغيرة في أعلى النافذة، ثم ساد الصمت. أطفئت معظم الأنوار وبقي ضوء واحد خارج الغرفة في الممر، وكان بعضه يضيء غرفتي. سمعت دقات الساعة، وبدت الساعة التي تلت ذلك أطول ساعة خيرتها في حياتي. نظرت إلى ساعة يدي بارتياح حتى أتأكد من أنني لم أخطئ التوقيت.

إذا كانت استنتاجاتي خاطئة ولم يحدث شيء في الساعة الواحدة فسأكون قد جعلت من نفسي أضحوكة وأنفقت كل النقود التي أملكها في هذه الدنيا على وهم. كان قلبي يدق دقات موجعة.

دق جرس الساعة الواحدة، ولم يحدث شيء! ولكن... ما هذا؟! لقد سمعت أصوات أقدام رشيقة راكضة تجري... تجري على طول الممر. ثم فجأة فُتح باب غرفتي بقوة ودخل رجل كاد يقع على الأرض. قال بصوت أجش: أنقذيني! إنهم يطاردونني.

لم تكن لحظة مجادلة أو تفسير، فقد كنت أسمع وقع أقدام في الخارج. كان عندي أربعون ثانية فقط لكي أتصرف. كنت قد قفزت عن سريري ووقفت في مواجهة الرجل الغريب في وسط الغرفة.

ليس في غرف السفن مخابئ يمكن أن تخفي رجلاً طوله ستة أقدام. ولذا سحبتُ صندوق الثياب الخاص بغرفتي من تحت السرير المعلق بالجدار، وتسلل الرجل وراءه أسفل السرير ثم رفعت غطاء

- آه، لا أظن ذلك يا آنسة. اضغطي على الجرس إن جاء. طابت
ليلتك.

- تصبحين على خير.

فتحت الباب ونظرت إلى الممر، فلم أر أحداً باستثناء المضيفة
العائدة.

تمل! إذن هذا هو تفسير الأمر. لقد بددت مواهب المسرحية.
سحبت صندوق الغرفة قليلاً وقلت بصوت لاذع: أرجوك اخرج حالا.
لم أسمع إجابة فنظرت أسفل السرير. كان زائري يستلقي دون
حرك، وبدانائماً. حركته من كتفه لكنه لم يتحرك. فكرت وأنا منفعلة:
سكران جداً... ماذا أفعل؟

ثم رأيت شيئاً جعلني أحبس أنفاسي، فقد رأيت بقعة صغيرة
حمراء على الأرض.

استخدمت كل قوتي ونجحت في سحب الرجل من تحت
السرير إلى وسط الغرفة. كان الشحوب البادي على وجهه يدل على
الإغماء، وعرفت سبب إغمائه بسهولة؛ فقد كان مطعوناً تحت عظم
الكتف الأيسر... وكان جرحاً نافذاً كبيراً. خلعت عنه معطفه وشرعت
في معالجته.

تحرك عندما رششت عليه الماء البارد ثم نهض فقلت له: ابق
ساکتاً، أرجوك.

كان من أولئك الشبان الذين يستطيعون استعادة ملكاتهم العقلية
بسرعة كبيرة، وتحامل على نفسه ووقف يترنح قليلاً.

- أشكرك، لا أريد أن تعلمي لي شيئاً.

كان أسلوبه متحدياً، بل يكاد يكون عدوانياً. لم يقل كلمة شكر
واحدة... ولا حتى شيئاً يدل على عرفانه بالجميل!

- إنه جرح بالغ؛ يجب أن تتركني أضمدته لك.

- لن تفعلي شيئاً كهذا.

قذف بالكلمات في وجهي وكأنني كنت أتوسل منه معروفاً.
لارت أعصابي وهي التي لم تكن أساماً تعرف الهدوء، وقلت بيروء:
لا يمكنك أن أمثلك على أهلك.

- أستطيع - على الأقل - أن أريحك من وجودي عندك.

تحرك نحو الباب، ولكنه استدار، فدفعته بحركة سريعة فألقيته
على الأريكة وقلت دون احتفاء: لا تكن غيبياً؛ هل تريد الخروج لينزف
دمك في جميع أرجاء السفينة؟

بدا وكأنه فهم الحكمة من ذلك، حيث جلس هادئاً بينما قمت
بتضميد الجرح كأحسن ما أستطيع.

قلت وأنا أضع اللمسات الأخيرة على عملي: هذا يكفي في الوقت
الحالي. هل مزاجك الآن أفضل، وهل تشعر برغبة في إخباري بكل
شيء عن هذا الأمر؟

- أنا أسف لأنني لا أستطيع إشباع فضولك الطبيعي جداً.

قلت مغمومة: ولم لا؟

- أنا مسرورة لأنك تقر بهذا الدين. لا تستطيع الخلاص من هذا؛
لقد ألفدت حياتك وأنا في انتظارك لتقول: "شكراً لك".

ولئن كان من شأن النظرات أن تقتل لكان يريد قتلي وقتها. اندفع
من جانبي يريد الخروج، وعند الباب التفت وتحدث وهو يدبر رأسه:
إن أشكرك... لا الآن ولا في أي وقت آخر. لكني أقر بالدين، وسوف
أدفعه يوماً ما.

ثم خرج وتركتني ويدي مكورتان وقلبي يدق كطاحونة.



ابتسم ابتسامة بغیضة وقال: إذا أردت إذاعة أمر فأخبر به امرأه،
وإلاً فأغلق فمك.

- ألا تظنني أستطيع كتمان السر؟

- ليست مسألة ظن... فأنا واثق من ذلك.

نهض على قدميه قفلت على سبيل المناكفة: على أية حال سأكون
قادرة على إذاعة أحداث هذه الليلة.

قال غير مهال: وليس عندي شك في أنك ستفعلين ذلك.

صحت غاضبة: كيف تجرؤ على قول ذلك!

وقفنا متقابلين، تبادل التحديق كل في وجه صاحبه بقسوة عدوين
لدودين. لأول مرة استوعبت ملامحه عن قرب؛ كان له شعر قصير أسود
وفك نحيل، وندبة على خده الأسمر، وعينان رماديتان فاتحتان غريبتا
الشكل كانتا تنظران إلى عيني بسخريه قاسية يصعب وصفها... كان فيه
شيء خطير.

قلت بعدوية كاذبة: لم تشكرني بعد على إنقاذي حياتك!

أوجعته بهذه العبارة. رأيته وقد تقبض بالتأكيد، وقد عرفت غريزيماً
بأنه بكره - أكثر ما بكره - أن يذكره أحد بأنه مدين بحياته لي. لم أهتم؛
بل أردت أن أخرج مشاعره، وأردت ذلك كما لم أرده من قبل مع أحد
أبداً.

قال غاضباً: أتمنى لو لم تفعلني ذلك؛ أفضل الموت والخلاص
من هذا.

هل للبلبلد؟ لقد ظننتك مجرد فتاة قروية! هل أنت ذاهبة إلى هضبة بروكن
الطهي عن مزيد من الجماجم؟

قلت بحذر: قد أفعل ذلك، كما أن لدي خططاً أخرى.

- أبة فتاة غامضة أنت! ولكنك تبدين متعبة هذا الصباح. ألم تنامي
ههنا؟ لا أستطيع البقاء مستيقظة على ظهر السفينة. يقولون إن الأحرق
ينام عشر ساعات... أستطيع النوم عشرين ساعة!

نأهبت وهي تبدو مثل قطة نَعَسَى وقالت: لقد أبقتني مضيف
مطلل في منتصف الليل ليعيد إلي بكرة الأفلام التي أسقطتها بالأمس،
ولقد أعادها إلي بطريقة مثيرة جداً؛ فقد أدخل يده من فتحة التهوية
واسقط البكرة على بطني. ظننتُ للحظة أنها قبلة!

قلت عندما ظهر الكولونيل رايس الطويل بيهنته العسكرية: ها هو
كولونيلك قد جاء.

- إنه ليس كولونيلي بشكل خاص. إنه -في الحقيقة- معجب بك
كثيراً أيتها العجربة، ولذلك لا تهربي.

- أريد ربط شيء حول رأسي؛ سيكون ذلك أكثر راحة من
اللبعة.

انسللت بسرعة مبتعدة. أحسست -لسبب ما- بعدم الارتياح
للكولونيل رايس. كان واحداً من القلائل الذين يستطيعون جعلني أشعر
بالخجل.

نزلت إلى غرفتي وبدأت أبحث عن شيء أربط به شعري المتفوش.
إنني إنسانة مرتبة وأحب أن تكون أغراضي مرتبة دائماً بطريقة معينة وأنا

الفصل الحادي عشر

لم تحدث مواقف مثيرة غيرها في تلك الليلة. تناولت إفطاري على
سريري ونهضت في وقت متأخر صباح اليوم التالي.

نادتني السيدة بليز عندما صعدت إلى ظهر السفينة: صباح الخير
أيتها الفتاة العجربة. اجلسي هنا بجانبني. تبدين وكأنك لم تنامي جيداً.

سألتها بعد أن جلست طائفة: لم تناديتني هكذا؟

- هل تمانعين؟ هذا يليق بك إلى حد ما. لقد سميتك هكذا في
ذهني منذ البداية. إن العنصر العجري فيك هو الذي يجعلك تختلفين عن
أي شخص آخر. لقد قررت في نفسي أنك والكولونيل رايس الشخصان
الوحيدان على ظهر السفينة اللذان لا أشعر بالملل وأنا أتحدث معهما
أبداً.

قلت: هذا غريب؛ فقد فكرت فيك بنفس الطريقة. ولكن الأمر
في حالتك أنت مبرر أكثر؛ فأنت امرأة مكتملة الروعة.

قالت السيدة بليز وهي تومئ برأسها: تعبير جميل. أخبريني عن
نفسك أيتها الفتاة العجربة، لماذا أنت ذاهبة إلى جنوب أفريقيا؟

أخبرتني شيئاً عن حياة والدي العملية فقالت: إذن فأنت ابنة تشارلز

(٢) السيد باجيت، السكرتير ذو القسمات الشريفة، والذي لاحظت لهفته على الحصول على الغرفة ١٧. (ملاحظة: ينبغي معرفة ما إذا كان قد رافق السير يوستيس إلى مدينة كان).

(٣) الكاهن إدوارد تشينشستر. ليس لي عليه إلا إصراره على أخذ الغرفة ١٧، وقد يكون السبب في ذلك مزاجه الغريب فقط، فالعناد يصنع العجائب أحياناً.

ولكنني رأيت أن من المفيد إجراء حديث قصير مع السيد المشهستتر. أسرعت وربطت متديلاً حول شعري ثم صعدت إلى ظهر السفينة مرة أخرى وكلي تصميم على مقابله. وقد حالفتني الحظ، إذ كان من أبحث عنه يقف مستنداً إلى الحاجز يشرب الشاي. ذهبت صوبه وللت بأجمل ابتسامة استطلعت وضعها: أرجو أن تكون قد غفرت لي على ما حصل بخصوص الغرفة ١٧.

قال السيد تشينشستر ببرود: أنا أعتبر حمل الضغينة منافياً للخلق الطهري، ولكن موظف الحسابات كان قد وعدني حقاً بتلك الغرفة.

قلت بغموض: إن موظفي الحسابات مشغولون كثيراً، اليس كذلك؟ أحسيهم معرضين للنسيان أحياناً.

لم يجيني الرجل، فسألته من باب فتح حديث: أهذه أول زيارة لك لجنوب أفريقيا؟

- إلى جنوب أفريقيا، نعم. لكنني عملت خلال الستين الماضيتين بين قبائل أكلة لحوم البشر في مجاهل شرق أفريقيا.

- كم هو مشيراً هل نجوت من خطر الموت كثيراً؟

أبقيتها هكذا، ولذلك فقد أدركت أن شخصاً قد عثت بأغراضه حاله فتحت درجتي. كل شيء كان مقلوباً ومبعثراً. وبحثت في الأدراج الأخرى وفي الخزانة المعلقة فوجدتها مقلوبة على نفس الشكل. بدا وكأن شخصاً كان يبحث عن شيء بطريقة سريعة غير مجدية.

جلست على حافة السرير بوجه مهموم. من الذي فتح غرفتي وما الذي كانوا يبحثون عنه؟ أكان هدفهم قصاصة الورق ذات الأرقام والكلمات المخريشة؟ هزرت رأسي غير مقتنعة بذلك؛ فمن المؤكد أن ذلك أصبح من الماضي. ولكن ماذا يمكن أن يكون هنا غير هذا؟

أردتُ أن أفكر، فرغم أن الأحداث التي وقعت الليلة الماضية كانت مثيرة إلا أنها - في الحقيقة - لم تفعل شيئاً لتوضيح الأمور. من كان ذلك الشاب الذي اقتحم عليّ غرفتي فجأة؟ أنا لم أراه على السفينة من قبل، لا على ظهر السفينة ولا في قاعة الطعام. أكان واحداً من طاقم السفينة أم مسافراً؟ من الذي طعنه؟ ولماذا طعن؟ ولماذا، بالله، تولى هذه الأهمية الكبيرة للغرفة ١٧؟ كان هذا كله لغزاً. ولم يكن عندي شك في أن بعض الأحداث الغريبة جداً كانت تحدث على متن «قلعة كيلموردن».

عددت على أصابعي الأشخاص الذين يتوجب علي مراقبتهم. وضعتُ جانباً الزائر الذي زارني الليلة الماضية، ولكنني وعدت نفسي بضرورة اكتشافه على ظهر السفينة قبل أن يتقضي يوم آخر، وبعدها اخترت الأشخاص التالية أسماؤهم كأشخاص يجدر بي أن أراقبهم:

(١) السير يوستيس بيدلار؛ فهو صاحب ميل هاوس، وكان وجوده على متن «قلعة كيلموردن» يبدو مصادفةً تلفت الانتباه.

السيد تشيتشستر، أما أنا فقد لاحظته. وأياً كان ما أسقطه الكاهن فإن اسرجاعه أثاره كثيراً. انقلب لونه شاحباً، وكوّر الورقة بيده. وتضاعفت اسكوكي مئات المرات.

لاحظني أنظر إليه فسارع إلى التفسير قائلاً بابتسامة شاحبة: إن...
إلها جزء من خطبة كنت أكتبها.

أجبت بآدب: حقاً؟

جزء من خطبة حقاً كلا، إن السيد تشيتشستر... أضعف مما
يوصف

وسرعان ما تركني بعد أن اختلق عذراً. وقد تمنيت، تمنيت كثيراً، لو كنت أنا التي التقطت تلك الورقة وليس السير يوستيس بيدلارا لقد وضع أمر واحد، وهو أن السيد تشيتشستر لا ينبغي أن يُستثنى من قائمة المشهورين لدي. بل كنت أميل إلى وضعه على رأس الأسماء الثلاثة.

بعد الغداء وعندما صعدت إلى قاعة الاستراحة لشرب القهوة لاحظت السير يوستيس وباحيت يجلسان مع السيدة بلير والكونونيل راس. رحبت السيدة بلير بي بابتسامة، ولذلك ذهبت وانضمت إليهم. كانوا يتحدثون عن إيطاليا.

كانت السيدة بلير تصرّ قائلة: ولكنها عبارة مضللة. إن عبارة "أكوا كولودا" يجب أن تعني بالتأكيد "ماء بارداً"... وليس حاراً. لكنني أحب الإيطاليين؛ فهم متآلون للمساعدة كثيراً... رغم أن لهذا جانب المخرج أهدأ. تسألهم عن الطريق وبدلاً من أن يقولوا: "الطريق الأول على اليمين لم الطريق الثاني على اليسار" أو شيئاً يمكن أن يتبعه المرء، فإنهم يصيرون

- نجوت؟

- أفصد من محاولة أكلك؟

- يجب أن لا تتعامل مع المواضيع المقدمة بهذا الاستهتار يا آنسة بيدنغفيلد.

أجبت وقد لسعتني عبارته: لم أكن أعرف أن أكل لحوم البشر موضوع مقدس.

وعندما نطقت بهذه الكلمات خطرت لي فكرة أخرى. فإذا كان السيد تشيتشستر قد أمضى الستين الأخيرتين في مجاهل أفريقيا حقاً، فلماذا لم تسفح الشمس بشرته؟ لقد كانت بشرته وردية وبيضاء كبشرة طفل رضيع. لا بد أن في هذا الأمر شيئاً مريباً ومع ذلك فإن سلوكه وصوته يؤكدان تماماً صحة زعمه، بل ربما كانا يؤكدان ذلك أكثر قليلاً مما هو مطلوب. أترأه يشبه قليلاً رجل دين ممثلاً؟

عدت بذاكرتي إلى الورا حيث رجال الدين الذين عرفتهم في ليتل هامبلسي. بعضهم أحببتهم وبعضهم لم أحبهم ولكن أحداً منهم لم يكن مثل السيد تشيتشستر بالتأكيد. كانوا من النوع الإنساني البسيط، أما هو فكان من النوع الفخم المبتجل.

كنت أناقش كل هذه الأفكار في ذهني عندما مرّ السير يوستيس على ظهر السفينة، وعندما أصبح مقابل السيد تشيتشستر تماماً انحنى على الأرض والتقط قفاصة ورق سلمها للكاهن وهو يقول: لقد أسقطت شيئاً.

ثم أكمل طريقه دون أن يتوقف، ولعلّه لذلك لم يلاحظ انفعال

بدا المسكين أكثر حزناً وكان القيمة العالية للسيد باجيت كانت مصدر حزن سرّي له. ثم أضاف بخفة أكثر: ولكن وجهه يوحى لك -دون شك- بالثقة يا سيدتي العزيزة. ليس من شأن قاتل يحترم نفسه أن يوافق على أن يبدو كقاتل. أظن أن كرييين كان من أعذب الناس الذين يمكن تصورهم.

تمتعت السيدة بلير: لقد ألقى القبض عليه على ظهر سفينة، أليس كذلك؟

صدرت أصوات طقطقة خفيفة وراءنا، فالتفتُ بسرعة. كان السيد تشيتشستر قد أسقط فنجان قهوته.

انفض اجتماعنا بعد ذلك بقليل، نزلت السيدة بلير لتنام، وخرجت أنا إلى ظهر المركب. تبني الكولونيل رايس وقال: أنت مراوغة كثيراً يا آنسة بيدنغفيلد. لقد بحثت عنك الليلة الماضية في كل مكان. شرحت له: لقد ذهبت إلى النوم في وقت مبكر.

- هل ستهربين هذه الليلة أيضاً؟ أم ستهربين معي؟

همست بخجل: سأكون مسرورة جداً لو سهرت معك. ولكن السيدة بلير...

- إن صديقنا السيدة بلير لا تهتم بالسهر.

- وهل تهتم أنت به؟

- إنني أهتم بالسهر معك.

قلت بارتباك: آه!

عليك وإبلاً من التعليمات عن حسن نية، وعندما تبدو متحيراً يأخذونك من ذراعك بلطف ويسيروا معك إلى الواجهة التي تريدها.

قال السير يوستيس وهو يلتفت إلى سكرتيره مبتسماً: أهذا ما خبرته في فلورنسا يا باجيت؟

بدا أن السؤال قد أربك باجيت لسبب ما. احمرّ وجهه وتلعثم قائلاً: "آه، صحيح تماماً، نعم... صحيح تماماً". ثم نهض وهو يعتذر مهمهماً وغادر الطاولة.

قال السير يوستيس وهو ينظر إلى سكرتيره المنسحب: لقد بدأت أشك أن غاي باجيت قد ارتكب فعلة سوداء في فلورنسا. فكلما ذكرت أمامه فلورنسا أو إيطاليا غيّر موضوع الحديث أو هرب مسرعاً.

قالت السيدة بلير: ربما قتل شخصاً هناك. إنه يبدو (وأرجو أن لا أجرح أحاسيسك يا سير يوستيس) ولكنه يبدو كشخص من شأنه أن يقتل.

- نعم، وهذا يضحكني أحياناً... وخصوصاً عندما يعرف المرء ما أعرفه أنا من مدى تمتع هذا المسكين بالاحترام والالتزام بالقانون.

سأله الكولونيل رايس: إنه يعمل معك منذ مدة طويلة، أليس كذلك يا سير يوستيس؟

قال السير يوستيس وهو يتنهد بعمق: ست سنوات.

قالت السيدة بلير: لا بد أنه بالغ القيمة بالنسبة لك.

- آه، بالغ القيمة! نعم، بالغ القيمة تماماً.

الموضوع كله... وأن يكون جاهلاً تماماً بالأثار؟ هزرت رأسي وأنا غير مقتنعة بذلك الحل لسبب غامض لا أعرفه.

وعندما كنت على وشك إلقاء نفسي على السرير نهضت فجأة عندما خطرت لي فكرة فجائية. أتراه كان يحاول انتزاع معلومات مني؟ أكانت تلك الأخطاء البسيطة مجرد اختيارات... ليعرف إن كنت حقاً أعرف الموضوع الذي أتحدث عنه؟ وبمعنى آخر، هل كان يشك في أنني لست أن بيدنغفيلد الحقيقية.

لماذا؟

كنت خائفة قليلاً من الكولونيل رايس. ومع ذلك كنت أسلي نفسي. كان ذلك أفضل من مناقشة الجماجم المنحجرة مع أساتذة عجائز مجلبين! كان الكولونيل رايس -في الحقيقة- يطابق فكري المثالية عن الرجال الأبطال الخياليين، وقد أنزوجه! صحيح أنه لم يطلب ذلك مني ولكن (كما يقول فتيان الكشافة): "كن مستعداً! كما أن جميع النساء يعتبرن كل رجل يلاقينه زوجاً محتملاً لهن، دون أن يقصدن ذلك أبداً.

سهرت معه تلك الليلة، وفي النهاية (وكنت أفكر في الذهاب إلى النوم) اقترح أن نقوم بجولة على ظهر السفينة. تمسشنا حول السفينة ثلاث مرات وأخيراً استرخنا على مقعدين خشبيين. لم يكن هناك أحد غيرنا، وتحدثنا حديثاً متقطعاً لبعض الوقت.

- أتدريين يا آنسة بيدنغفيلد، أظنتني التقيت بوالدك ذات مرة. كان رجلاً مثيراً للاهتمام كثيراً... في اختصاصه، وهو اختصاص له سحره الخاص عليّ. وقد قمت -بإمكاناتي المتواضعة- بعمل بعض الأشياء في هذا المجال. بل إنني عندما كنت في مقاطعة دوردون...

أصبح حديثنا فنياً. لم يكن تبجح الكولونيل رايس فارغاً، فقد كان يعرف الكثير. وفي نفس الوقت فقد أخطأ خطأين غريبين... وكان من شأني أن أعتبرهما زلتي لسان، ولكنه سرعان ما كان يتفق معي عندما أصبح الأمر ويتداركه. تحدث في إحدى المرات عن العصر الحجري المتوسط باعتباره يلي العصر الحجري الحديث، وكانت غلطة سخيفة بالنسبة لأي امرئ يعرف شيئاً عن الموضوع.

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً عندما ذهبت إلى غرفتي وأنا ما زلت متحيرة من هذه التناقضات الغريبة. أمن الممكن أن يكون قد اخترع هذا

التي يمكن القول إنها ذات روح فكاهة جيدة. إنني أستمتع بالحديث معها، وكنت سأستمتع أكثر لو لا حمار قليل الكلام طويل الساقين يلتصق بها كظللها. لا يمكنني أن أرى أن ذلك الكولونيل رايس يسليها حقاً. إنه جميل الشكل ولكنه ثقيل ممل، وهو واحد من أولئك الرجال الأقوياء الصامتين الذين يتحدث عنهم كتابات القصص والفتيات.

صعد غاي باجيت على ظهر السفينة بصعوبة بعد أن غادرنا ماديرا وبدأ يدمدم بصوت مكتوم عن العمل. لماذا يريد إنسان العمل على ظهر سفينة؟ صحيح أنني وعدت الناشرين الذين أنعامل معهم به مذكراتي في وقت مبكر من هذا الصيف، ولكن ماذا لو تأخرت؟ من الذي يقرأ المذكرات؟ عجائز الضواحي. وماذا تساوي مذكراتي؟ لقد تطرقت إلى عدد معين ممن يُدعون بالمشاهير في حياتي، وبمساعدة باجيت اخترعت حكايات نافهة عنهم. وحقيقة الأمر هي أن باجيت أخلص من أن يُعهد إليه بهذا الأمر، إذ لم يدعني أخترع حكايات عن الأشخاص الذين كان يمكن أن ألتقي بهم ولكنني لم أنتقم.

جزيت اللطف معه وقلت بهدوء: إنك ما تزال تبدو في غاية المرض يا عزيزي. إن ما تحتاجه هو الجلوس على مقعد خشبي في الشمس. لا... لا، لا أريد سماع كلمة أخرى، يجب أن يؤجل العمل.

الأمر التالي الذي عرفته هو أنه كان مهتماً بالحصول على غرفة إضافية في السفينة. فقد قال: "لا مكان للعمل في غرفتك يا سيدي؛ إنها مليئة بالصناديق". ولو سمعت نبرته وهو يقول ذلك لظننت أن الصناديق عبارة عن خنافس سوداء لا ضرورة لوجودها هناك.

شرحت له حقيقة ربما فاتته؛ وهي أن من المعتاد أن يأخذ المرء معه في السفر بعض الملابس الإضافية. ابتسم ابتسامة باهتة اعتاد أن يقابل

الفصل الثاني عشر

(مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

لا بد أن يقال شيء بالنسبة للحياة على ظهر السفن؛ وهي أنها حياة هادئة. إن شعري الأبيض يعني -لحسن الحظ- من ذل تلك الألعاب التي يمارسها الركاب، كمحاولة نهش التفاح المُعلّق، والجري على ظهر السفينة بالبطاطا والبيض، وغير ذلك من الألعاب السخيفة. إن المتعة التي يجدها الناس في مثل هذه المهام الشاقة ما زالت تشكل بالنسبة لي لغزاً لم أستطع فهمه. ولكن في هذا العالم الكثير من الحمقى، والمرء يحمد الله على وجودهم وينأى بنفسه عنهم.

وأنا -لحسن الحظ- بحار ممتاز، أما المسكين باجيت فليس كذلك. لقد بدأ لونه يشحب بمجرد أن صعدنا على متن السفينة، وأحسب أن ما يُدعى سكرتيري الثاني مصاب هو الآخر بدوار البحر. وعلى أية حال فإنه لم يخرج من غرفته، ولكن ربما لم يكن ذلك بسبب دوار البحر بقدر ما هو دبلوماسية الشيء العظيم هو أنه لم يضايقتني.

أما ركاب السفينة فهم -إجمالاً- أناس عاديون، باستثناء لاعبي بريدج جيدين وامرأة حسنة المظهر هي السيدة كلارنس بليو. لقد التقيت بها في المدينة بالطبع، وهي الوحيدة -من بين النساء اللاتي أعرفهن-

الغرف، ولكن في أمر تلك الغرفة شيئاً غريباً جداً يا سير يوستيس.

جالت في ذهني ذكريات قراءة قصص الرعب والأشباح فقلت: إن كنت تقصد أنها مسكونة بالأرواح فإننا لن ننام فيها ولذلك لا أرى أن هذا بهم، فالأشباح لا تؤثر على الآلات الطابعة.

قال باجيت إن المسألة ليست مسألة أشباح، كما أنه لم يحصل على الغرفة ١٧. أخبرني قصة طويلة ومشوشة، ويبدو أنه أوشك أن يتلاطم مع سيد يدعى تشيتشستر وفناته تدعى بيدنغفيلد على هذه الغرفة. ولعل من نافلة القول أن الفناة قد فازت بها، وكان واضحاً أن باجيت كان يشعر بالحزن بسبب هذا الأمر.

كّر قائلاً: الغرفتان ١٣ و ٢٨ أفضل، ولكنهما لم يقبلا مجرد رؤيتهما.

قلت وأنا أمنع نفسي من التثاؤب: حسناً، بالنسبة لهذا الأمر، فأنت أيضاً لم تقبل بذلك يا عزيزي باجيت.

نظر إليّ نظرة تأنيب وقال: أنت أبلغتني أن أحجز الغرفة ١٧.

إن في باجيت شيئاً يُذكر المرء بشخص في سفينة تحترق. قلت له بانزعاج: يا صديقي العزيز، لقد ذكرتُ الغرفة رقم ١٧ لأنني صدف أن لاحظت أنها كانت خالية، ولكنني لم أقصد أن تعتبر الحصول عليها مسألة حياة أو موت! إن الغرفة ١٣ أو الغرفة ١٨ ستؤدي نفس الغرض.

بدا متألماً، ثم أصرّ قائلاً: ومع ذلك يوجد شيء آخر. لقد حصلت الآنسة بيدنغفيلد على الغرفة، ولكنني رأيت هذا الصباح تشيتشستر خارجاً منها كمن يتسلل خفية.

بها محاولاتي الساخرة، ثم عاد لموضوع العمل: كما أننا لا نستطيع العمل في غرفتي التي تشبه حفرة صغيرة.

وأنا أعرف «حُفَرِ باجيت الصغيرة»... إذ دائماً ما يحصل على أفضل غرفة في السفينة. قلت ساخراً: آسف لأن قبطان السفينة لم يكن من أنصارك هذه المرة. ربما تريد التخلص من بعض حقايقك الإضافية في غرفتي؟

إن السخرية خطيرة مع رجل مثل باجيت. أشرق وجهه على الفور وقال: حسناً، لو أمكنتني التخلص من آلة الطباعة وصندوق القرطاسية...

كان صندوق القرطاسية يزن عدة أطنان، وكان يسبب حرجاً لا يوصف مع الحقالين، كما أن هدف باجيت في الحياة هو فرضه علي. إنه صراع دائم بيننا، ويبدو أنه يعتبره واحداً من ممتلكاتي الشخصية الخاصة. أمّا أنا - من ناحيتي - فأعتبر أن مسؤولية هذا الصندوق هي المجال الوحيد الذي تظهر فيه الفائدة الحقيقية للسكرتير.

قلت بسرعة: سنأخذ غرفة إضافية.

بدا الأمر بسيطاً تماماً، ولكن باجيت شخص يعشق صناعة الألغاز. جاء إليّ في اليوم التالي بوجه كوجوه متأمر في عصر النهضة وقال: ألم تطلب مني حجز الغرفة رقم ١٧ لاستعمالها مكتباً؟

- حسناً، ماذا في الأمر؟ هل علق صندوق القرطاسية في مدخل الباب؟

أجاب باجيت بجديّة: إن المداخل من حجم واحد في جميع

الكولونيل رايس. أعرف أنه طلب منها تناول العشاء معه.

كان باجيت يعرف كل شيء دائماً، ولقد انزعجتُ انزعاجاً مبرّراً،
وسألته ساخطاً: من هو رايس؟

كما قلت من قبل، كان باجيت يعرف كل شيء دائماً... أو يظن أنه
يعرف. بدا غامضاً مرة أخرى، وقال: يقولون إنه من رجال المخابرات
يا سيدي، ومن رجالها البارزين إلى حد ما. لكنني بالطبع لا أعرف على
وجه اليقين.

صحت: أليس ذلك تصرفاً نموذجياً من تصرفات حكومتنا؟! لدينا
هنا على متن السفينة رجلٌ عمله الأصلي هو حمل الوثائق السرية،
ومع ذلك يُعطون تلك الوثائق لشخص مسالم لا شأن له ولا يريد إلا
أن يُترك لشأنه.

بدا باجيت أكثر غموضاً. اقترب خطوة إلى الأمام وخفض صوته
قائلاً: رأيي أن الأمر كله شديد الغرابة يا سيدي. انظر إلى مرضي قبل
أن نبدأ رحلتنا...

قاطعته بقسوة: يا عزيزي، كانت تلك نوبة من مرض الصفراء،
وأنت تصاب دوماً بنوبات هذا المرض.

رمش باجيت بعينه قليلاً وقال: لم تكن نوبة مرض الصفراء
المعتادة. هذه المرة كانت...

- بالله عليك لا تدخل في تفاصيل حالتك المرضية يا باجيت؟
لا أريد سماعها.

- حسناً يا سيدي، ولكنني أعتقد بأنني قد سُممتُ عن عمد!

نظرت إليه بحدّة، ثم قلت بيروء: إن كنت تحاول إثارة فضيحة
قدرة حول تشيشتستر (رغم أنه شخص حاقد جداً) وحول تلك الطفلة
الجدابة آن بيدنغفيلد فإنني لا أصدق كلمة واحدة من ذلك. إن آن
بيدنغفيلد فتاة لطيفة إلى أبعد حد...

أنا أحب إزعاج باجيت، ولذلك واصلت حديثي معه مناكفاً: بما
أنك تعرفت عليها فيمكنك دعوتها لتناول العشاء على طاولتنا ليلة الغد.
سيكون غداً حفل الملابس التنكرية. على فكرة، من الأفضل أن تنزل
إلى محل تأجير الملابس وتختار لي لباساً تنكرياً.

قال باجيت مدعوراً: لا أظنك ستذهب بالملابس التنكرية؟

بوسعي أن أفهم أن ذلك لم يكن يناسب فكرته عن الأبهة التي
ينبغي أن تلازمي. بدا مصدوماً متألماً، والحقيقة أنني لم أكن أعتزم
ارتداء ملابس تنكرية، ولكن مضايقة باجيت كانت أمراً أكثر إغراء من
أن أتجاوزها، ولذلك قلت: ماذا تعني؟ سألبس ملابس تنكرية بالطبع،
وأنت أيضاً ستلبسها.

ارتعد باجيت. وأكملت حديثي: ولذلك اذهب ودبر الأمر.

تمتم باجيت وهو يقينسي بعينه: لا أحسب أن لديه أحجاماً غير
عادية.

إن بوسع باجيت أحياناً أن يكون سليطاً جداً دون قصد منه. قلت:
واطلب طاولة لسة أشخاص في القاعة. سندعو القبطان والفتاة الجميلة
والسيدة بلير...

تدخل باجيت قائلاً: لن تتمكن من إحضار السيدة بلير دون

جميل أن يجد المرء شيئاً كهذا في حوزة كاهن. من هو هذا الرجل
لثينثيسترو؟ إنه يبدو وادعاً كالحمل، ولكن المظاهر خداعة. سوف
أسأل باجيت عنه؛ فباجيت يعرف كل شيء دائماً!

جلست بلباقة على المقعد الخشبي إلى جانب السيدة بلير قاطعاً
عليها حديثها الخاص مع رايس، ثم طلبت منها أن تعشى معي ليلة
الحفلة التكرية، وبشكل أو بآخر نجح رايس في ضم نفسه إلى الدعوة.
بعد الغداء جاءت الأنسة بيدنغفيلد وجلست معنا لشرب القهوة. سادعورها
بالتأكيد لتناول العشاء هي الأخرى.

أود كثيراً لو أعرف ما هي الفعلة التي أقدم عليها باجيت في
فلورنسا، فكلما ذكرت إيطاليا أمامه يرتبك ارتباكاً شديداً. لو لم
أعرف أنه رجل محترم تماماً لشككت في أنه متورط في علاقة غرامية
فاضحة.

لقد بدأت أشك الآن! حتى أكثر الرجال احتراماً... سيفرحني ذلك
كثيراً لو صغ أنه كذلك. باجيت... ذو سرٍ يشعر معه بالذنب! رائع!

- آه! أظنك كنتَ تتحدث مع رايسين.
لم يتكر ذلك بل قال: على أية حال يا سير يوستيس، فإنه يرى
ذلك... وهو في موقع من يُفترض أن يعرف.

سألته: بالمناسبة، أين الرجل؟ أنا لم أزه منذ أن صعدنا على ظهر
السفينة.

- إنه يصرح بأنه مريض ويبقى في غرفته يا سيدي.
خفض باجيت صوته مرة أخرى وقال: ولكني واثق أن ذلك مجرد
تمويه... حتى يستطيع أن يراقب أفضل.

- يراقب؟
- حرصاً على سلامتك يا سيدي، في حالة الاعتداء عليك.

- يا لك من شخص مُفرح يا باجيت! أنا واثق أن خيالك يجمع بك
بعيداً. لو كنت مكانك لذهبت إلى الحفل متكرراً على هيئة من ينفذون
أحكام الإعدام؛ فهذا سيناسب جمالك الجنائزي.

أخبرته تلك الكلمات مؤقتاً. بعد ذلك ذهبت إلى ظهر السفينة،
وكانت الفتاة بيدنغفيلد تخوض جدالاً عميقاً مع ذلك المبشر. دائماً
ما تحوم النساء حول القساوسة!

إن شخصاً له مثل جسمي يكره الانحناء، ولكني كنت مهذباً
والتقطت قطعة من الورق تطاير عند قدمي الرجل. لم أحصل على أي
كلمة شكر على عنائي، والحقيقة أنني لم أستطع منع نفسي من رؤية
ما كان مكتوباً على الورقة. كانت عليها جملة واحدة فقط: "لا تحاول
التصرف بمفردك وإلا فسيكون ذلك أسوأ عليك".

ثم نزلنا لتناول العشاء. كنت قد طلبت مشروباً، وقد اقترح المضيف عليّ أفضل ما عندهم على السفينة فاستجيت لاقتراحه هذا، وقد بدا لي أنني وضعت يدي -بذلك- على الأمر الوحيد الذي من شأنه أن يفك عقدة لسان الكولونيل رايس؛ فقد نسي الرجل كل تحفظه وتكتمه وأصبح ثنائراً، وقد سألني ذلك لبعض الوقت، ثم خطر لي أن الكولونيل رايس قد أصبح مركز اهتمام الحفلة وليس أنا. وقد ناكفني طويلاً ساخراً من احتفاظي بمذكرات أكتبها.

- سيكشف ذلك في يوم من الأيام كل فضائحك يا بيدلار.

قلت: يا عزيزي، أجرؤ على القول بأنني لست المغفل الذي تظنه. قد أقوم ببعض الفضائح، ولكني لا أدونها بالأسود والأبيض، وبعد وفاتي سيرف القائمون على وصيتي رأيي في عدد كبير من الناس، ولكنني أشك في أنهم سيجدون شيئاً يضيف أو يُنقص من رأيهم فيّ أنا. إن اليوميات مفيدة لتسجيل نزوات الآخرين... ولكن ليس نزوات الكاتب نفسه.

- ولكن يوجد -مع ذلك- شيء يسمى الكشف اللاواعي عن الذات.

أجبت بطريقة الواعظ: جميع الأمور تبدو مُشبهة في عيني المحلل النفسي.

قالت الأنسة بيدنغفيلد وهي تحدّق إلى الكولونيل رايس بعينين واسعتين لامعتين: لا بد أن حياتك كانت مثيرة يا كولونيل رايس؟

هكذا تقوم الفتيات بهذا الأمر! لقد سحر عطليل دزدمونة برواية

الفصل الثالث عشر

كانت أمسية غريبة.

الملابس الوحيدة التي ناستبني كانت ملابس الدب تيدي، وأنا لا أمانع في تمثيل دور الدب مع بعض الفتيات الجميلات في أمسية شتوية في إنكلترا، ولكن ذلك الزي لا يكاد يكون مثالياً في المناطق الاستوائية. ومع ذلك أصقبت جواً من المرح وفزت بالجائزة الأولى لأفضل «ما تم إحصاره للسفينة»... وهي عبارة من السخف أن يوصف بها زي تم استجاره لفضاء الأمسية. ومع ذلك لم يكن ذلك بالأمر المهم، إذ بدا أن أحداً لا يعرف إن كان الزي قد استوجرام أحضر.

رفضت السيدة بلير لبس الملابس التنكرية، وواضح أن لها نفس رأي باجيت في هذا الأمر. وقد حذا الكولونيل رايس حذوها. أمّا آن بيدنغفيلد فقد ابتكرت لنفسها زياً عجرياً، وبدت رائعة جداً. قال باجيت إنه مصاب بالصداع ولم يحضر الحفلة، وقد طلبتُ بدلاً منه شخصاً ضئيل الجسم غريباً في تأنقه يدعى ريفز، وهو عضو بارز في حزب العمل في جنوب أفريقيا. كان رجلاً قظيماً، ولكنني أردت الحفاظ على علاقة ودية معه لأنه كان يعطيني المعلومات التي أحتاجها. كنت أريد فهم مشكلة منطقة الراند هذه من أكثر من مصدر.

القصص لها، ولكن ألم تسحر دزدمونة عطياً بطريقة إصغانتها؟

على أية حال فقد حملت الفتاة رايس على الانطلاق في الحديث وبدأ يحكي قصصاً عن الأسود. إن لرجلي قتل أعداداً كبيرة من الأسود أفضلية ظالمة على غيره من الرجال. وبدا لي أن الوقت قد حان لأن أحكي أنا الآخر قصة عن الأسود؛ قصة ذات طبيعة أكثر حيوية، فقلت: هذا -بالمناسبة- يذكرني بقصة مثيرة سمعتها، فقد كان صديق لي في رحلة صيد إلى شرق أفريقيا، وذات ليلة خرج من خيمته لسبب معين ففوجئ بصوت زئير خفيف. التفت بحدة فرأى أسداً مُتَحَفِزاً يريد القفز، وكان قد ترك بندقيته في الخيمة. أحنى جسمه بسرعة خاطفة فقفز الأسد من فوق رأسه، وعندما انزعج الحيوان لأنه لم يمسك به زأر واستعد لكي يقفز ثانية. ومرة أخرى أحنى صاحبتنا جسمه لتأتي قفزة الأسد ثانية من فوق رأسه. حدث هذا للمرة الثالثة ولكنه كان الآن قد أصبح قريباً من خيمته ودخل إليها بسرعة وأخذ بندقيته، وعندما خرج حاملاً البندقية كان الأسد قد اختفى. وقد حيرته ذلك كثيراً، فزحف حول الخيمة من الخلف حيث كانت أرض صغيرة مكشوفة، وهناك وجد الأسد مشغولاً يتدرب على القفزات المنخفضة!

تلقي المستمعون هذا بصيحات استحسان، فقلت: وفي مرة أخرى حدثت مع صديقي هذا واقعة أخرى غريبة. فقد كان مسافراً بعربة عبر الريف، ولأنه كان مهتماً بالوصول إلى وجهته قبل اشتداد حرّ الشمس، فقد أمر عماله بربط البغال بالعربة قبل بزوغ الفجر. وقد واجهوا بعض المتاعب في عملهم هذا لأن البغال كانت حُرُنًا جداً، ولكنهم نجحوا في ربطها في نهاية الأمر، وانطلق. كانت البغال تسابق الريح وعندما بزغ ضوء النهار عرفوا السبب. ففي عتمة الليل ربط العمال أسداً بدلاً

من آخر بغل قرب مقصورة الركاب.

هذه أيضاً تلقاها المستمعون باستحسان حيث ساد هرج سعيدي حول الطاولة، أما صديقي عضو حزب العمل فقد بقي شاحباً وجاداً، وأخيراً سأله بلهفة: يا إلهي! ومن الذي فك رباطها؟

قالت السيدة بلير: يجب أن أذهب إلى روديسيا. بعد الذي أخبرتنا عنه يا كولونيل رايس يجب أن أذهب، رغم أنها رحلة مرعبة تستغرق خمسة أيام في القطار.

قلت بشهامة: يجب أن تنضمي إليّ في سيارتي الخاصة.

- يا له من لطف بالغ منك يا سير يوستيس! أحقاً تعني ما تقول؟

هتفت بنبرة تويخ: أعني ما أقول!

تنهدت السيدة بلير وقالت: بقي أسبوع واحد تقريباً ونكون في جنوب أفريقيا.

قلت منفعلًا: "آه، جنوب أفريقيا". ثم بدأت أقتبس من خطاب لي ألقينته مؤخراً في معهد المستعمرات: ما الذي تقدمه جنوب أفريقيا إلى العالم؟ ما هو؟ فواكهها ومزارعها، صوفها وخشبها، قطعانها وجلودها، مناجم ذهبها والماسها...

كنت أسرع في الكلام لأنني أعرف أن ريفز سيتدخل في الحديث بمجرد أن أسكت ليخبرني أن الجلود عديمة القيمة لأن الحيوانات كانت تعلقُ بالأسلاك الشائكة فتتمزق جلودها، ثم سيتذمر من كل شيء،

- حدثت مرة واحدة في السنوات الأخيرة، قبل الحرب في الواقع.
لا بد أنك تذكر هذه القضية يا بيدلار، لقد كنت في جنوب أفريقيا في
ذلك الوقت، أليس كذلك؟

أوماث براسي، وصاحبة الأتسة بيدنغفيلد: أخبرنا، أرجوك أن
تخبرنا!

ابتسم رايس قائلاً: حسناً، ها هي القصة. أظن أن معظمكم قد
سمع عن السير لورنس إيردسلي، القطب الكبير لصناعة المناجم في
جنوب أفريقيا؟ كانت مناجمه مناجم ذهب، ولكنه دخل في القصة
من خلال ابنه. قد تذكرون أن شائعات انتشرت قبل الحرب بقليل عن
وجود منطقة لا تقل غنى بخاماتها عن كيمبرلي، وهي مخبأة في مكان
ما تحت الأرض الصخرية في غابات غوايانا البريطانية. وقد قيل إن
اثنين من المكتشفين الشبان عادا من تلك المنطقة من أمريكا الجنوبية
وأحضرا معها مجموعة كبيرة من أحجار الألماس غير المصقولة،
وبعضها بأحجام كبيرة. كما عُثر من قبل على ألماس بأحجام صغيرة
في منطقة نهزي إيسيكويو ومازاروني، ولكن هذين الشابين، جون
إيردسلي وصديقه لوكاس، زعما أنهما قد اكتشفا طبقات عظيمة من
الكربون المترسب عند رأس النهرين. كانت أحجار الألماس من كل
لون، وردي وأزرق وأصفر وأخضر وأسود وأبيض نقي. وجاء إيردسلي
ولوكاس إلى كيمبرلي حيث كانا يريدان فحص الأحجار الكريمة التي
عثرا عليها، وفي نفس الوقت حدثت عملية سطو مثيرة في شركة دي
بيرس. كانت العادة قد استقرت - لدى إرسال أحجار الألماس إلى
إنكلترا- أن تُرزم داخل علبة. وهذه العلبة تبقى في الخزانة الكبيرة حيث
يحفظ رجلان مختلفان بمفتاحين لها، بينما يعرف رجل ثالث الرقم

ويتهي به الأمر أخيراً إلى التحدث عن معاناة عمال المناجم في منطقة
الرائد. ولم أكن في مزاج يسمح لي بتقبل الإساءة من أحد بحجة أنني
رأسمالي، ولكن مقاطعتني جاءت من شخص آخر عند ذكري لكلمة
الألماس السحرية. فقد قالت السيدة بليز بنشوة: "الألماس!"، ولهت
الأتسة بيدنغفيلد: "الألماس!"

كلتاهاما خاطبتنا الكولونيل رايس في وقت واحد: أظن أنك ذهبت
إلى كيمبرلي؟

أنا الآخر ذهبت إلى كيمبرلي، ولكني لم أتمكن من قول ذلك
في الوقت المناسب، وأمطر رايس بالأسئلة: ما هو شكل المناجم؟ هل
صحيح أن سكان البلد الأصليين كانوا يُحجزون في مناطق مُسورة في
العراء؟ وهكذا.

أجاب رايس عن أسئلتهم وأظهر معرفة كبيرة في هذا الموضوع.
شرح لهن عن أعمال التنقيب التي جرت والاحتياطات المختلفة التي
اتخذتها سلطات دي بيرس، ثم سألت السيدة بليز: إذن فإن من
المستحيل عملياً سرقة أية أحجار ألماسية، أليس كذلك؟

قالت ذلك وقد بدا عليها من خيبة الأمل ما يكاد المرء معه يظن
أنها مسافرة إلى هناك من أجل هذا الغرض.

- لا شيء مستحيل يا سيدة بليز؛ فالسرقات تحدث... مثل
القضية التي أخبرتك عنها عندما أخفى ذلك الزنجي حجر الألماس
في جرحه.

- نعم، ولكن ماذا عن السرقات الكبرى؟

بشرته المسفوعة كان وجهه شديد الشحوب كمن شاهد شبحاً. كان واضحاً أن رواية رايس قد أثرت فيه بعمق. وفجأة، عندما أدرك أننا نمنع النظر فيه دار بسرعة واختفى.

سالت آن بيدنغفيلد فجأة: أتعرف من هذا؟

قلت: هذا سكرتيري الثاني، السيد رايبيرن. كان متوعكاً حتى هذه اللحظة.

سالت بتأمل: أهو سكرتيرك منذ فترة طويلة؟

قلت بحذر: ليس منذ وقت طويل.

ولكن لا فائدة من الحذر مع امرأة، فكلما امتعت عن الحديث أكثر كلما ازداد إصرارها على جعلك تتحدث. لم تردد أن بيدنغفيلد طويلاً قبل أن تسأل بفضافة: منذ متى؟

- حسناً... لقد... لقد وظفته قبل صعودي على السفينة بوقت قصير. زكاه لي صديق قديم.

لم تقل شيئاً آخر، ولكنها دخلت في صمت متأمل. التفتت إلى رايس وأنا أشعر أن دوري قد جاء لإظهار اهتمامي بقصته، وقلت: من هو أقرب أقارب السير لورنس يا رايس؟ هل تعرف؟

رد علي مبتسماً: أعرفه بالطبع، إنه أنا!

• • •

السري للخزنة، وتسلم إلى البنك ثم يقوم البنك بإرسالها إلى إنكلترا. وكانت قيمة كل حزمة تقدر بنحو مئة ألف جنيه. وفي هذا المرة انتبه البنك لوجود شيء غير عادي في ختم الحزمة. وقد فُتحت ووُجد أنها تحتوي على قطع من السكر!

لا أعرف بالضبط كيف تم الاشتباه بجون إيردسلي بهذه السرعة. وقد تذكرنا بأنه كان طائشاً جداً في جامعة كامبردج، وأن والده دفع ديونه عنه أكثر من مرة. على أية حال فقد ذاع في الحال أن قصة حقول الألماس هذه في أميركا الجنوبية كانت قصة خيالية، واعتُقل جون إيردسلي. وقد وجدوا في حوزته مجموعة من أحجار الألماس دي بيرس.

ولكن القضية لم ترفع إلى المحكمة أبداً؛ فقد دفع السير إيردسلي مبلغاً مساوياً لقيمة أحجار الألماس المفقودة، وامتنعت محلات دي بيرس عن تقديم ابنه للمحكمة. لم يعرف أحد كيف تم ارتكاب حادث السطو هذا، ولكن معرفة الرجل المعجوز بأن ابنه كان سارقاً قطعت نياط قلبه، وقد أصيب بسكتة دماغية بعد ذلك بوقت قصير. وبالنسبة لجون فقد كان مصيره رحيماً إلى حد ما؛ فقد تطوع في الجيش وذهب إلى الحرب وقاتل فيها بشجاعة ثم قُتل، وبذلك أزال السبة التي لحقت باسمه. أما السير لورنس نفسه فقد أصيب بسكتة دماغية ثالثة ومات قبل نحو شهر واحد، وقد مات دون أن يكتب وصية فذهبت ثروته الواسعة إلى أقرب أقرابه وكان هذا القريب رجلاً لا يكاد المعجوز يعرفه.

سكت الكولونيل، وثار موجة من الهتافات والأستلة. بدا أن شيئاً قد جذب انتباه الأنسة بيدنغفيلد والتفتت على كرسيها، وعندما شهقت قليلاً التفتت أنا الآخر.

كان سكرتيري الجديد رايبيرن يقف عند مدخل الباب، ورغم

مجرد نزوة مؤقتة. ومع ذلك كنت أستطيع إثارة اهتمامها. كانت امرأة قد حُيرت معظم الإثارات العادية في الحياة، وقد اعترمت إعطاءها إثارة غير عادية! وقد أحببتها، أحببت بساطة سلوكها، وبعدها عن العاطفية السخيفة، وتحررها من أي شكل من أشكال التصنع.

حزمت أمري وقررت البحث عنها في التو واللحظة، إذ لا أظنها أوت إلى فراشها بعد. ثم تذكرت أنني لم أكن أعرف رقم غرفتها. ربما كانت صديقتي، المضيئة الليلية، تعرف.

قرعت الجرس، وبعد بعض التأخر جاء إلي رجل وأعطاني المعلومة التي كنت أريدها. كانت غرفة السيدة بلير تحمل رقم ٧١. اعتذر عن التأخر في الرد على جرسى موضحاً أنه يقوم على خدمة جميع الغرف. سألته: أين المضيئة إذن؟

- إن عملهن جميعاً ينتهي الساعة العاشرة.

- لا، أقصد المضيئة الليلية.

- لا توجد مضيئة ليلية يا آنسة.

- ولكن... ولكن جاءتي مضيئة في ليلة سابقة... في نحو الساعة الواحدة صباحاً.

- لا بد أنك كنت تحلمين يا آنسة. ليس لدينا مضيئة تعمل بعد الساعة العاشرة.

انسحب خارجاً وتركتني لكي أستوعب هذه المعلومة البسيطة. من هي المرأة التي جاءت إلى غرفتي ليلة الثاني والعشرين؟ ازداد التجهم في

الفصل الرابع عشر

(آن تتابع روايتها)

قررت في ليلة الحفلة التذكيرية أن الوقت قد حان بالنسبة لي لكي أبوب بما عندي لشخص ما، وحتى هذا الوقت كنت أتابع الأمور بمفردي وأستمع بذلك، أما الآن فقد تغير كل شيء فجأة؛ فقد بدأت أشك بأحكامي الخاصة، ولأول مرة زحف إلى داخلي إحساس بالوحشة والوحدة.

جلست على حافة سريري وأنا ما زلت بملابسي العجربة وفكرت في الوضع. فكرت -بدايةً- بالكولونيل رايس، فقد بدا أنه يميل إلي، وكنت متأكدة من أنه سيكون لطيفاً، كما أنه لم يكن بالمغفل. ومع ذلك عندما قَلبت التفكير في الأمر ترددت؛ فقد كان رجلاً ذا شخصية قيادية ومن شأنه أن يُخرج الأمر كله من بين يدي، وقد كان هذا لغزي أنا! وكانت توجد أسباب أخرى -لا أكاد أعترف بها مع نفسي- جعلت من غير الحكمة البوح بالأمر للكولونيل رايس.

ثم فكرت في السيدة بلير. هي أيضاً كانت لطيفة معي، ولكني لم أخدع نفسي وأظن أن ذلك يعني شيئاً في الواقع؛ فقد يكون لطفها هذا

سألته متحيرة: هواجس؟

- نعم. هواجس، هواجس، هواجس! وأنت تنطلقين وحيدة دون مال عملياً. ماذا ستفعلين عندما تجدن نفسك في بلد غريب وقد ذهبت كل نقودك؟

- لا فائدة من القلق لهذا الأمر قبل وقوعه. ما زال عندي الكثير من النقود؛ فالجنيهات الخمس والعشرون التي أعطتني إياها السيدة فليمنج ما زالت كما هي، كما أنني ربحت المراهنة بالأمس. وهذا يعني خمسة عشر جنيهاً أخرى، عندي الكثير من النقود... أربعون جنيهاً!

تمنعت السيدة بلير: كثير من النقود! يا إلهي! ما كنت لأستطيع فعل ذلك يا آن، رغم أنني أمتلك الكثير من الشجاعة. لا أستطيع السفر بمثل هذه السهولة وفي جيبي قليل من النقود، ودون أن أعرف ما الذي أفعله وإلى أين أتجه.

صحت وقد بلغت الإثارة بي مداها: ولكن هنا تكمن متعة ذلك. إن ذلك يعطي المرء إحساساً رائعاً بالمغامرة.

نظرت إلي وأومات مرة أو مرتين ثم ابتسمت: أن المحظوظة! ليس في العالم الكثير ممن يشعرون كما تشعرين.

قلت بصبر نافذ: حسناً، ما رأيك بالأمر كله يا سيدة بلير؟

- أعتقد أنه أكثر الأمور التي سمعتها إثارة! والآن، توقفي بدايةً عن مناداتي بالسيدة بلير. اسم سوزان سيكون أفضل منه بكثير، هل اتفقتنا على ذلك؟

وجهي عندما أدركت مكر وجراة خصومي المجهولين، ثم استجمعت قواي وتركت غرفتي وذهبت إلى غرفة السيدة بلير، فقرعت الباب.

ناداني صوتها من الداخل: من؟

- هذا أنا... أن بيدنغفيلد.

- آه، ادخلي أينها الفتاة العجرية.

دخلت. كانت أعداد كبيرة من الأبواب المعثرة ملقاة في الغرفة، وكانت السيدة بلير ترتدي ثوباً ليلياً من أجمل ما شاهدته في حياتي. كان يرتقالياً وذهبياً وأسود، متاجعلي أقف مشدوهة أنظر إليه. ثم قلت دون مقدمات: سيدة بلير، أريد أن أحكي لك قصة حياتي... هذا إذا لم يكن الوقت متأخراً جداً وإذا لم تشعرني بالملل.

قالت السيدة بلير وقد ابتسمت ابتسامة جميلة: إطلاقاً؛ أكره النوم دائماً، كما أنني أود سماع قصة حياتك، فأنت مخلوقة غير عادية أبدأ أينها العجرية. ما كان لأحد غيرك أن يفكر باقتحام غرفتي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لكي يخبرني بقصة حياته، وخصوصاً بعد أن أزريت بفضولي الطبيعي لمدة أسابيع! وأنا لست معتادة على أن يزري بي الآخرون؛ ولذلك كان تصرفك تغييراً لا يخلو من السرور. اجلسي على الأريكة وروحي عن نفسك.

أخبرتها بالقصة كلها. وقد أخذ ذلك وقتاً طويلاً إذ كنت حريصة على ذكر التفاصيل. تهذتُ بعمق عندما انتهيت من قصتي، ولكنها لم تقل ما توقعتها أن تقوله أبداً. وبدلاً من ذلك نظرت إلي وضحكت قليلاً ثم قالت: أنتعرفين يا آن أنك فتاة غير عادية؟ ألم تتبكي أبداً هواجس؟

إدوارد تشيتشستر، والآن إلى الأشياء الإضافية الأخرى. ثم قدمت لي الورقة وقالت: أهذه مضيفتك؟

صحت: يا إلهي، نعم. كم أنت ذكية يا سوزان!

نحت ثنائي جانباً بإشارة خفيفة من يدها وقالت: كنت أشعر دائماً بالارتياح من هذا الرجل تشيتشستر. هل تذكرين عندما أسقط فتجان قهونه وتحول إلى اللون الشاحب عندما كنا نناقش كربيين بالأمس؟

- كما أنه حاول الحصول على الغرفة ١١٧

- نعم. الحقائق كلها تنطبق عليه حتى الآن. ولكن ماذا يعني هذا كله؟ ما الذي كان يُراد حدوده الساعة الواحدة في الغرفة ١١٧؟ لا يمكن أن يكون طعن السكرتير، إذ لن يكون أي مغزى في تحديد ذلك في ساعة خاصة ويوم خاص وفي مكان خاص. كلا، لا بد أنه كان موعداً ما، وكان ذاهباً إلى ذلك الموعد عندما طعنوه. ولكن مع مَنْ كان الموعد؟ بالتأكيد ليس معك. ربما كان مع تشيتشستر، أو ربما مع باجيت.

عارضتها: هذا يبدو بعيد الاحتمال، فهما يستطيعان رؤية بعضهما بعضاً في أي وقت.

جلسنا بصمت لبعض الوقت، ثم بدأت سوزان طريقاً آخر: أيمكن أن يكون في الغرفة شيء مخفي؟

- هذا يبدو أكثر احتمالاً، وهو يفسر العبث بأغراض صباح اليوم التالي. ولكنني متأكدة من عدم وجود شيء مخبئاً هناك.

- ألم يكن بإمكان الشاب أن يدس شيئاً في أحد الأدراج في الليلة السابقة؟

- يسعدني ذلك يا سوزان.

- فتاة مطيعة، والآن هيا إلى العمل. تقولين إنك تعرفين في شخص سكرتير السير يوستيس (ليس باجيت صاحب الوجه الطويل ذلك، وإنما السكرتير الآخر) على الرجل الذي طُعن وجاء إلى غرفتك طلباً للملجأ؟

أومات براسي موافقة.

- هذا يجعل للسير يوستيس صلتين اثنتين بهذه الورقة. فقد قتلت المرأة في بيته، وسكرتيه هو الذي طُعن في تلك الساعة الغربية... الواحدة ليلاً. إنني لا أشك في السير يوستيس نفسه، ولكن هذا لا يمكن أن يكون كله مصادفة. لا بد من صلة في مكان ما، حتى لو كان هو نفسه غير مدرك لها.

ثم أكملت متأملة: ثم ذلك الأمر الغريب، وأعني أمر المضيئة. كيف كان شكلها؟

- لم أكد الحظها. كنت منفعلة جداً ومتوترة... وقد بدا ظهور مضيئة كهبوط مفاجئ في أحداث القصة. ولكن، نعم... أظن فعلاً أن وجهها كان مألوفاً، وهذا أمر طبيعي إن كنت قد رأيتها في السفينة.

- وجهها كان مألوفاً لك. أأنت متأكدة من أنها لم تكن رجلاً؟ اعترفت قائلة: كانت طويلة جداً.

- هممم. لا أظنها تكون السير يوستيس، ولا السيد باجيت... انتظري!

أمسكت بقصاصة ورق وبدأت ترسم بحماسة، ثم تفضّصت نتيجة رسمها ورأسها يميل إلى أحد الجانبين وقالت: هذا يشبه كثيراً الكاهن

تماماً. فهي ما تزال الساعة الواحدة، ويوم الثاني والعشرين... ولكنها
الغرفة ٧١؛ غرفتي يا آن!

وقفنا تتبادل النظرات وقد سررنا باكتشافنا الجديد وامتلتانا بالانفعال
بحيث يظن المرء أننا حللنا اللغز كله. ولكني سرعان ما ارتطمْتُ بصخرة
الواقع، فقلت: ولكن يا سوزان، لم يحدث شيء هنا الساعة الواحدة
يوم الثاني والعشرين، أليس كذلك؟

أسقط في يدها هي الأخرى وقالت: نعم، لم يحدث شيء.

خطرت لي فكرة أخرى فقلت: ولكن هذه ليست غرفتك يا سوزان،
أليس كذلك؟ أقصد أنها ليست الغرفة التي حجرتها أصلاً؟

- نعم، لقد غيّرنا موظف الحسابات وأعطاني هذه.

- ترى هل كانت محجوزة قبل الإبحار لشخص ما... شخص لم
يظهر؟ أظن أن باستطاعتنا اكتشاف ذلك.

صاحت سوزان: لا حاجة بنا لاكتشاف ذلك أيتها العجربة؛ إنني
أعرف! لقد أخبرني موظف الحسابات عنها. لقد حُجزت الغرفة باسم
السيدة غري... ولكن يبدو أن اسم السيدة غري لم يكن سوى اسم
مستعار للسيدة نادينا الشهيرة. إنها ممثلة روسية مشهورة، لم يسبق
لها أن قدمت عروضاً في لندن، ولكن باريس كانت مجنونة بحبها.
لقد حققت نجاحاً هائلاً هناك طوال سنوات الحرب. أظنها امرأة سيئة
تماماً، ولكنها جذابة جداً. وقد أعرب موظف الحسابات - عندما أعطاني
غرفتها - عن أسفه العميق لأنها لم تستقل السفينة، ثم أخبرني الكولونيل
رايس الكثير عنها. يبدو أن عدة روايات غريبة انتشرت في باريس، فقد
اشتبّه بقيامها بالتجسس، ولكنهم لم يتمكنوا من إثبات شيء. ويُخيل

هزرت رأسي بالنفي وقلت: كنت سأراه.

- أيمكن أن تكون ورقتك الثمينة تلك هي ما يبحثون عنه؟

- قد يكون ذلك، ولكن لا يبدو لذلك أي معنى؛ فقد كانت مجرد
وقت وتاريخ... وكانا كلاهما قد مرّا في ذلك الوقت.

أومأت سوزان وقالت: هذا صحيح بالطبع. كلا، لم يكونوا يبحثون
عن الورقة. وبالمناسبة، هل هي معك؟ أودّ لو أراها.

كنت قد أحضرت الورقة معي لعرضها عليها وسلمتها لها. أمعنت
النظر فيها عابسة.

١٢٢١، ١٧ كيلموردن كاسل.

- توجد فاصلة بعد العدد ١٧، ولماذا لا توجد فاصلة بعد الرقم
١ أيضاً؟

أشرتُ قائلة: يوجد فراغ.

- نعم. يوجد فراغ، ولكن...

وفجأة نهضتُ ونظرت إلى الورقة وهي تقربها تحت الضوء قدر
الإمكان. كان في أسلوبيها انفعال مكبوت، ثم قالت: أن، هذه ليست
فاصلة؛ إنها شق في الورقة! شق في الورقة، أتريين؟ ولذلك عليك أن
تجاهليها واهتمي بأمر الفراغات فقط... الفراغات!

كنت قد نهضت ووقفت إلى جانبها. قرأت الأرقام كما كنت أراها
الآن: ١٢٢١ ٧١ ١.

قالت سوزان: كما ترين، إنها نفسها إجمالاً، ولكنها ليست نفسها

الثاني والعشرين؟

- القلم الذي فقدته؟

- كيف تعرفين أنه نفسه؟ لماذا بعيدة شخص لك بتلك الطريقة...
في منتصف الليل؟ إنها فكرة جنونية. كلا... لقد كانت تلك رسالة، لقد
أخرج القلم من العلبة الصفراء الصغيرة ووضع بدلاً منه شيء آخر. أما
زال عندك؟

- ربما استعملته. لا، ها هو. أذكر أنني وضعت في أحد الرفوف
على جانب السرير.

أخرجته وقدمته لي. كان القلم بعلبة أسطوانية عادية صغيرة من
تلك التي توضع فيها الأقلام لاستخدامها في المناطق الاستوائية. أخذتها
بيد مرتجفة ولكن مجرد الإمساك بها جعل قلبي يقفز؛ فقد كانت أثقل
مما ينبغي بدرجة ملحوظة.

نزعْتُ عنها بأصابع مرتجفة الشريط اللاصق الذي يمنع دخول
الهواء، ونزعت الغطاء فسقطت من العلبة على السرير مجموعة من
الحصى الزجاجية الباهتة. قلت وقد خاب أمني: حصى.

صاحت سوزان: حصى؟

أثارتنى نبرة صوتها، ثم أردفت: حصى؟ لا يا آن، ليست حصى؟
بل حجارة ألماس!

لي أن الكولونيل رايس كان هناك في باريس لهذا الغرض وحده. لقد
أخبرني ببعض الأشياء المثيرة جداً؛ فقد كانت هناك عصاة منظمة
وزعيمها رجل يشار إليه بلقب «الكولونيل»، ويُعتقد أنه رجل إنكليزي.
وهم لم يعثروا على أي خيط يوصلهم لكشف هويتهم، ولكن لا شك في
أنه يسيطر على منظمة كبيرة من المحتالين والمجرمين الدوليين، وكان
يتولى مختلف أعمال السطو والتجسس والاعتداءات... ويقدم عادة كبش
قداء بريئاً لكي يدفع الجزاء. لا بد أنه ذكي بصورة شيطانية! ويفترض
أن هذه المرأة واحدة من عملائه، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء
عليها. نعم يا آن، إننا نسير في الطريق الصحيح. إن من شأن نادينا أن
تكون متورطة بهذا الأمر. كان موعد فجر يوم الثاني والعشرين في هذه
الغرفة مُحددًا معها. ولكن أين هي؟ لماذا لم تُبحر؟

ومض ضوء في ذهني فقلت ببطء: كانت نعزم الإبحار.

- إذن لماذا لم تأت؟

- لأنها كانت ميتة. إن نادينا - يا سوزان - هي المرأة التي قُلت
في مارلوك!

عادت ذاكرتي إلى الغرفة المخاوية في البيت الخالي، وهنا اتابني
ثانيةً الإحساس الغامض بالخطر والشرب، وجاء معه تذكري لسقوط قلم
الرصاص، واكتشاف بكرة الأفلام. بكرة الأفلام... ذكرني هذا بحدث
أكثر قريباً! أين سمعت بعبارة بكرة الأفلام؟ ولماذا ربطت تلك الفكرة
بالسيدة بلير؟

فجأة اندفعت نحوها وكدتُ أهزها في غمرة انفعالي وهتفت:
فلمك! القلم التي أعطي لك من خلال فتحة التهوية؟ ألم يكن ذلك يوم

- نعم.

ولكن حتى وأنا أقول هذه الكلمة ساورتني شكوك. أكان السير بوستيس هو الذي خضع للاختبار أم أن القصة قد رويت لفائدتي أنا؟ تذكرت الانطباع الذي أحسُّتُ به في تلك الليلة السابقة بأنني أخضع لعملية «انتزاع معلومات» مُتعمدة. إن الكولونيل رايس موضع شبهة لسبب أو لآخر، ولكن ما هو دوره ومكانه في هذا الأمر؟ ما هي صلته المحتملة بهذه المسألة؟

سألته: من هو الكولونيل رايس؟

قالت سوزان: هذا سؤال مهم. إنه مشهور كصائد حيوانات كبيرة، وكما سمعته يقول هذه الليلة فإنه ابن عم بعيد للسير لورنس إيردسلي. أنا في الواقع لم ألتق به إلا في هذه الرحلة. إنه يسافر كثيراً من أفريقيا وإليها، وتوجد فكرة عامة بأنه يقوم بأعمال استخبارية. لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا، ولكنه رجل غامض بعض الشيء بالتأكيد.

- أظن أنه حصل على ثروة عظيمة كوريث للسير لورنس إيردسلي؟

- يا عزيزتي آن، لا بد أنه يتقلب في الثروة. سيكون زوجاً رائعاً لك.

قلت ضاحكة: لا أستطيع الفوز به وأنت على ظهر السفينة!

تمتعت سوزان برفضى عن الذات: ولكن الجميع يعرف أنني مخلصة تماماً لكلا رنس... زوجي. إنه لأمر آمن وسارٌّ أن يعاشر الرجل زوجة محبة.

الفصل الخامس عشر

حجارة الألماس!

نظرتُ مسحورةً إلى الكومة الزجاجية على السرير. التقطت منها واحدة، ولولا وزنها لظننتها قطعة من زجاجة مكسورة. سألت: هل أنت واثقة يا سوزان؟

- نعم يا عزيزتي. لقد رأيت من أحجار الألماس غير المصقول ما لا يراودني معه شك فيها. وهي أحجار جميلة أيضاً يا آن... وبعضها فريد من نوعه حسب اعتقادي. إن خلف هذه الأحجار قصة بالتأكيد.

صحت: القصة الذي سمعناها الليلة.

- تقصدين...

- قصة الكولونيل رايس. لا يمكن أن يكون هذا مصادفة؛ لقد رواها من أجل غرض معين.

- أتقصدين حتى يرى تأثيرها؟

أومأت براسي بالإيجاب فقالت: تأثيرها على السير بوستيس؟

لم أجبها مباشرة، بل قلت: أريد أن أعرف ماذا جرى للشباب الأخر. ليس إيردسلي ولكن... ماذا كان اسمه؟ لوكاس!

- بعض الأمور بدأت تتضح لنا على أية حال. إن أحجار الألماس هي ما يجري خلفه كل هؤلاء. لا بد أن «ذا البدلة البنية» قد قتل نادينا لكي يحصل على الألماس.

قلت بحدة: هو لم يقتلها.

- لقد قتلها بالطبع. من عساه قتلها غيره؟

- لا أعرف، ولكنني متأكدة من أنه لم يقتلها.

- لقد دخل إلى البيت بعد ثلاث دقائق من دخولها وخرج منه

شاحب اللون.

- لأنه وجدها ميتة.

- ولكن أحداً غيره لم يدخل البيت.

- إذن فقد كان القاتل في البيت أصلاً، أو أنه دخل بطريقة ما دون

الحاجة للمرور أمام بيت البواب؛ إذ كان يوسعه تسلق الجدار.

نظرت سوزان إليّ نظرة حادة وقالت متأملة: «الرجل ذو البدلة البنية»، ترى من يكون؟ على أية حال فقد تطابقت صفاته مع الطيب الذي كان في نفق القطار. كان يمتلك الوقت ليتخلص من تنكره ويتبع المرأة إلى مارلو. كانت ستلتقي مع كارتون هناك، فكلاهما حصل على إذن بمعاينة نفس البيت، وإذا كانا قد اتخذوا مثل هذه الاحتياطات المحكمة لكي يجعلوا لقاءهما يبدو غير مقصود فلا بد أنهما كانا يشكّان في أن أحداً كان يتبعهما. ومع ذلك لم يعرف كارتون أن الذي يلاحقه

- لا بد أن كلارنس محظوظ بزواجه بواحدة مثلك.

- إن الحياة معي مسألة تبعث على السأم! ومع ذلك فيوسعه دوماً الهروب إلى وزارة الخارجية حيث يضع نظارته على عينيه وينام على كرسي كبير. نستطيع إرسال بريقة له ليخبرنا كل ما يعرفه عن رايس. أنا أحب إرسال البرقيات، وهي تضايق كلارنس كثيراً. يقول بأن الرسالة تنوب عن البرقية، ومع ذلك لا أظنه سيخبرنا بشيء. إنه متكنم جداً، وهذا ما يجعل من الصعب العيش معه لفترة طويلة دون انقطاع. ولكن دعينا نواصل جمع الرؤوس بالحلال... أنا واثقة أن الكولونيل منجذب لك كثيراً يا آن. أعطيه نظرتين من عينيك الرائعتين هاتين فينتهي الأمر. كثير من الخطوبات تتم على متن السفن، فليس من شيء آخر يمكن فعله.

- لا أريد الزواج.

- أحقاً؟ لماذا؟ أنا أحب الحياة الزوجية... حتى مع كلارنس!

ازدرت كثرة مزاحها وقلتُ بتصميم: إن ما أريد معرفته هو علاقة الكولونيل رايس بهذا... إن له علاقة ما بهذا الأمر.

- أنت لا تظنين أن روايته لتلك الفصّة مجرد صدفة، أليس كذلك؟

قلت بحزم: نعم، لا أظن ذلك. لقد كان يراقبنا جميعاً عن كثب. أتذكرين؟ لقد قال إن بعض أحجار الألماس قد استعيدت وليس كلها. قد تكون هذه هي المفقودة... أو ربما...

- ربما ماذا؟

- تشيبيستر، نعم. هذا كله يسجم بعضه مع بعض. أرسلني برقية إلى اللورد ناسي بأنك وجدت «الرجل ذا البدلة البنية» وستجدين الثروة بين يديك يا آن!

- لقد تجاوزت عدة أمور.

- أي أمور؟ أعرف أن لرابيير ندية على وجهه، ولكن الندبة يمكن تزييفها بسهولة. إنه بنفس الطول والبنية الجسمية. ماذا كان وصف الرأس الذي هزمت به ضابط شرطة سكوتلانديارد؟

ارتجفت. كانت سوزان امرأة مثقفة ومطلعة، ولكنني تمنيت أن لا تكون ضليعة بالمصطلحات الخاصة بعلم الأجناس. قلت بشكل عرضي: كان طويل الرأس.

بدت سوزان متشككة وقالت: أهذا ما قلته لهم؟

- نعم، طويل الرأس، وهو الرأس الذي يقل عرضه عن خمسة وسبعين بالمئة من طوله.

كان «الرجل ذا البدلة البنية»، وعندما عرفه صدم صدمة كبيرة جعلته يفقد عقله تماماً ويتراجع إلى الوراء على سكة الحديد. هذا كله يبدو واضحاً تماماً، ألا ترين ذلك يا آن؟

لم أردّ عليها، فمضت قائلة: بلى، هذا ما حدث. أخذ الورقة من الرجل الميت، وفي غمرة عجلته للهروب أسقطها، ثم تبع المرأة إلى مارلو. ما الذي فعله عندما غادر المكان بعد أن قتلها... أو بعد أن وجدها ميتة كما تقولين؟ إلى أين ذهب؟

لم أقل شيئاً أيضاً.

قالت سوزان متأملة: إنني أتساءل، أيمكن أن يكون قد أفتح السير يوستيس بيدلار بأخذه معه في السفينة سكرتيراً له؟ ستكون فرصة فريدة في الخروج من إنكلترا بأمان ونفاذي الملاحقة. ولكن كيف جعل السير يوستيس يوافق؟ يبدو الأمر وكأن له ممسكاً عليه.

قلت رغماً عن نفسي: أو على باجيت.

عظيم أن يستطيع المرء إيداء هذا القدر من الحب والاهتمام، فمعظم الناس لا يستطيعون ذلك. ولكن كان من حسن حظ ذلك الطبيب أنك لم تزوجي به؛ فهو لا يبدو ممن يستمعون بوجود امرأة سريعة الاشتعال معه في البيت! إذن لن تعني بيرقية إلى اللورد ناسبي؟

هززت رأسي بالنفي فقالت: ولكنك ترين أنه بريء؟

- وأرى أيضاً أن الأبرياء يمكن أن يعلقوا على أعواد المشائقي.

- نعم. ولكنك تستطيعين يا عزيزتي أن تواجه الحقائق، فواجهيها الآن. فرغم كل ما قلته ربما كان قد قتل هذه المرأة.

- كلا، لم يقتلها.

- هذا كلام عاطفي.

- كلا، ليس كذلك. ربما كان من شأنه أن يقتلها، بل ربما تبعها إلى هناك بقصد قتلها، ولكنه ما كان ليأخذ حبلاً أسود ويخفيها به. ولو كان يريد فعل ذلك لخبثها بكلتا يديه.

ارتعدت سوزان، ثم ضاقت عينها كمن بدأ يستوعب وقالت: هممم! لقد بدأت أفهم يا أن سبب اعتبارك هذا الشاب جذاباً جداً!

* * *

قلت بكل ما أوتيت من ثقة: أحقاً؟ كانت زلة لسان مني... كنت أعني طويل الرأس.

نظرت سوزان إلي تنفخني، ثم ضحكت وقالت: أنت تكذبين جيداً أيتها العجورية، ولكن لو أخبرتني الآن كل شيء عن الأمر فسوف نوفر الوقت والجهد.

قلت كارهة: ليس عندي ما أخبرك به.

قالت سوزان بلطف: أحقاً؟

قلت ببطء: حسناً، سبتعين علي أن أخبرك بالأمر. لست خجولة من ذلك؛ لا يمكن أن تخجلني من شيء... من شيء حدث لك دون إرادتك. هذا ما فعله. لقد كان بغيضاً... وقحاً وناكراً للجميل... ولكن أظنتي أفهم ذلك. إن أمره كأمر كلب رُبط بالسلاسل... أو عومل معاملة سيئة، فهو بعض أي شخص. هكذا كان... مريراً مزمرجراً. لا أعرف لماذا أهتم به... ولكني أهتم فعلاً. بل أهتم بشكل فظيع. إن مجرد رؤيتي له قلبت كل حياتي رأساً على عقب. إنني أحبه، وأريده، وسوف أقطع كل أفريقيا سيراً على قدمي الحافيتين حتى أجده، وسوف أجعله يهتم بي. سوف أموت من أجله، سوف أعمل من أجله، أكذب من أجله، أسرق من أجله، وحتى أتسول أو أقترض من أجله! ها أنت الآن تعرفين!

نظرت سوزان إليّ طويلاً ثم قالت أخيراً: أنت أبعد ما تكونين عن الإنكليز أيتها العجورية. ليس فيك أثر بسيط للمواطن المائعة. إنني لم أر أحداً مثلك يكون بكل هذه العملية وكل هذا التدفق العاطفي في وقت واحد، وأنا ما كنتُ لأهتم بأحدٍ على هذا النحو (وذلك لحسن حظي) ومع ذلك... ومع ذلك فإنني أحسبك أيتها العجورية. إنه شيء

- آية واحدة؟

- قصة أحجار الألماس.

- أظن أن النساء مهتمات دائماً بالألماس.

- بالطبع. على فكرة، ماذا حصل للشاب الآخر؟ قلت إنهما كانا

أثنين.

- الشاب لو كاس؟ لم يستطيعوا بالطبع إداة واحد وتيرة الآخر،
ولذلك فقد نجا من العقوبة هو الآخر.

- وما الذي حدث له؟ أقصد بعد ذلك. هل يعرف أحد عنه

شيئاً؟

كان الكولونيل رايس ينظر إلى البحر أمامه مباشرة. كان وجهه خالياً
من أية تعابير، أشبه بقناع، ولكنني شعرت أنه لم يرتح لأستلثي. ومع
ذلك فقد ردّ علي بكل جاهزية: ذهب إلى الحرب وقاتل بشجاعة، وقد
وردت تقارير تفيد بأنه مفقود ومصاب... ويُعتقد بأنه قتل.

عرفت من هذا ما كنت أريد معرفته. لم أسأله غير ذلك، ولكنني
تساءلت أكثر من أي وقت مضى عن مقدار ما يعرفه الكولونيل رايس،
وقد حيرني الدور الذي كان يلعبه في كل هذا الأمر. وقد فعلت شيئاً
آخر، وهو مقابلة المضيف الذي كان يعمل ليلاً. وبقليل من النقود جعلته
يتكلم في الحال.

- هل ارتعيت السيدة يا آنسة؟ لقد بدت مزحة بريئة. فهمت أنه
رهان أو شيء من ذلك.

حصلت على كل شيء منه بالتدريج؛ ففي الرحلة من كيب ناون

الفصل السادس عشر

أتيت لي فرصة للحديث مع الكولونيل رايس في صباح اليوم
التالي، وكانت المسابقات قد انتهت وتمشينا على ظهر السفينة معاً.

- كيف حال العجربة هذا الصباح؟ مشتاقة لليايسة؟

هززت رأسي بالنفي وقلت: الآن وقد أصبح البحر لطيفاً، فإنني
أشعر برغبتني في البقاء فيه إلى الأبد.

- يا لها من حماسة!

- أليس الجو رائعاً هذا الصباح؟

انكأنا على الحاجز معاً. كان البحر هادئاً تماماً، وبدا وكأن الزيت
يطفو على صفحته، إذ انتشرت بقع كبيرة ملونة على سطحه؛ بقع زرقاء
وخضراء باهتة وزمردية وأرجوانية وبرتقالية، أشبه بلوحة تشكيلية، وبين
حين وآخر يلتمع لون فضي لسمك يقفز في الهواء. كان الهواء رطباً
داثناً، يكاد يكون لزجاً، وكانت رائحته كضمة عطرة.

قلت كاسرة جدار الصمت: كانت القصة التي أخبرتنا بها الليلة
الماضية مشوقة جداً.

لقد نسيت بالضبط ما هو، ولكنه شيء يتعلق بتأخير رحلات القطارات في إيطاليا، ولكنني لاحظت على الفور أن السيد باجيت أظهر نفس القلق الذي أثار انتباهي من قبل. وعندما نهض السير يوستيس والسيدة انتقلت بسرعة إلى المقعد المجاور للسكرتير. كنت قد عقدت العزم على الوصول إلى أساس الموضوع.

قلت: كنت دائماً مشتاقاً للذهاب إلى إيطاليا، وخصوصاً فلورنسا. هل استمتعت كثيراً برحلتك إلى هناك؟

- لقد استمتعت بالفعل يا آنسة بيدنغفيلد. إذا سمحت لي، فلدي بعض المراسلات الخاصة بالسير يوستيس أريد...

أسكتت به من كم معطفه بقوة وصحت بلهجة أرملة لعوب: آه، يجب أن لا تهرب! أنا واثقة بأن السير يوستيس لا يحب أن تتركني وحيدة دون أحد أتكلم معه. يبدو أنك لا تريد أن تتحدث عن فلورنسا أبداً. آه يا سيد باجيت، أظن أن لديك سراً تشعر معه بالذنب!

كنت ما أزال ممسكة بذراعه وكنت أشعر بالجفلة المفاجئة التي بدت عليه. قال بجديّة: أبداً يا آنسة بيدنغفيلد، أبداً. يسرتني كثيراً أن أخبرك كل شيء عنها، ولكن عليّ حقاً بعض البرقيات...

- آه، يا له من عذر ضعيف يا سيد باجيت! سوف أخبر السيد يوستيس...

لم أقل غير ذلك. جفل مرة أخرى، وبدت أعصاب الرجل بحالة يُرثى لها. قال: ما الذي تريد من معرفته؟

ابتسمت في نفسي بسبب ما أوحى به نبرته من استسلام الضحية

إلى إنكلترا سلّمه أحد المسافرين فلماً مع تعليمات بإسقاطه فوق السريير في الغرفة ٧١ الساعة الواحدة من صباح يوم الثاني والعشرين من كانون الثاني (يناير) في رحلة الذهاب. كانت امرأة ستزل تلك الغرفة وقد تم وصف المسألة على أنها رهان، وقد فهمت أن المضيف حصل على مبلغ سخّي عن دوره في هذا الأمر. لم يتم ذكر اسم السيدة، ولأن السيدة بليز قد ذهبت مباشرة إلى الغرفة رقم ٧١ بعد أن قابلت موظف الحسابات بمجرد صعودها للسفينة، فلم يخطر ببال المضيف أبداً بأنها ليست السيدة المقصودة. كان اسم الراكب الذي دبر هذا الأمر كارتون، وقد تطابقت أوصافه مع أوصاف ذلك الرجل الذي قتل في نفق القطارات تطابقاً تاماً.

ومهما يكن فقد تم كشف أحد الألغاز، وكان واضحاً أن الألباس هو مفتاح الأمر كله.

مرت تلك الأيام الأخيرة على ظهر السفينة كيلموردن بسرعة كبيرة. وبينما كنا نفترق من كيب تاون أكثر وأكثر واضطرت للتفكير المتأنّي بخططي المستقبلية. كان أمامي العديد من الأشخاص الذين كنت أريد مراقبتهم؛ السيد تشينشستر، والسير يوستيس وسكرتيره و... نعم، الكولونيل رابيس! ماذا كان عليّ أن أفعل بهذا الخصوص؟ أمر طبيعي أن يكون تشينشستر على رأس هذه القائمة، بل كنت في الواقع على وشك حذف السير يوستيس والسيد باجيت كارهة من قائمة المشبه بهم عندما أيقظ حديث عرضي شكوكاً جديدة في نفسي.

كنت قد نسيت ردّ فعل السيد باجيت غير المفهوم عند ذكر فلورنسا، وفي الليلة الأخيرة لنا على ظهر السفينة كنا جميعاً نجلس على ظهر السفينة فوجه السير يوستيس سؤالاً بريئاً تماماً إلى سكرتيره.

ما. ولكن لا بد أنني مخطئة... طالما أنك كنت في فلورنسا في ذلك الوقت. ومع ذلك...

أمعنت النظر إليه صراحة. كانت في عينيه نظرة رعب. مزر لسانه على شفثيه الجافتين وقال: أين... أين... أين...

أكملت عنه: أين أظن أنني رأيتك؟ في مارلو. أتعرف مارلو. ولكن بالطبع، كم أنا غبية، فللمسير يوستيس بيت هناك!

ولكن ضحيتي نهض وهرب متمتماً بعذر غير مفهوم.

في تلك الليلة اقتحمت على سوزان غرفتها وأنا في شدة الإثارة. وبعد أن أنهيت رواية قصتي قلت بالحاح: لقد كان موجوداً في إنكلترا يا سوزان، في مارلو، وقت وقوع جريمة القتل. أنت متأكدة الآن من أن «الرجل ذا البدلة البنية» مذنب؟

قالت سوزان فجأة وعيناها تطرفان: أنا واثقة من شيء واحد.

- وما هو؟

- أن «الرجل ذا البدلة البنية» أكثر وسامة من السيد باجيت المسكين. كلا يا آن، لا تغضي؛ كنت أحاول إغاظتك فقط. اجلسي هنا. اتركي المزاح جانباً، أعتقد أنك قمت باكتشاف أمر مهم جداً، فقد كنا -حتى الآن- نرى أن لباجيت عذر غياب عن مسرح الجريمة، أما الآن فإننا نعرف أنه لا يملك هذا العذر.

قلت: بالضبط؛ يجب أن نبقيه تحت المراقبة.

قالت بحزن: شأنه في ذلك شأن الجميع. حسناً، هذا أحد الأشياء التي أردت الحديث معك بخصوصها. عن ذلك، وعن التمويل. لا،

وقلت: آه، كل شيء! الرسومات، أشجار الزيتون...

سكتُ وأنا متحيرة شخصياً، ثم أكملت قائلة: أظن أنك تتحدث الإيطالية؟

- لا أعرف كلمة واحدة منها لسوء الحظ. ولكن بالطبع مع وجود خدم الصالات... وال... والمرشدين...

أسرعت إلى الإجابة: بالضبط، وماذا كانت لوحتك المفضلة؟

- آه، إنها... إنها مادونا... لرفائيل.

همست بانفعال: يا فلورنسا القديمة! المنظر الخلاب على ضفاف الأرنو. إنه نهر جميل. والدومو، هل تذكر الدومو؟

- بالطبع، بالطبع.

قلت مجازفة: إنه نهر جميل آخر، أليس كذلك؟ يكاد يفوق الأرنو جمالاً؟

- أجمل بالتأكيد.

وبعد أن تشجعت بفعل نجاح فخي الصغير تابعت معه الحديث، ولكن لم تكن حاجة للشك. لقد ألقى السيد باجيت نفسه بين يدي مع كل كلمة نطق بها. إن الرجل لم يذهب إلى فلورنسا في حياته أبداً.

ولكن إن لم يكن في فلورنسا فأين كان؟ في إنكلترا؟ هل كان في إنكلترا عملياً وقت حدوث لغز ميل هارس؟ قررت القيام بخطوة جريئة فقلت: الشيء الغريب أنني أتصور أنني رأيتك من قبل في مكان

قالت سوزان متأمة: الكولونيل رايس سيذهب إلى روديسيا أيضاً.
إذا جعلنا السير يوستيس يدعو هو الآخر...

- تستطيعين تدبير ذلك؟ يمكنك أن تدبري أي شيء.

همهمت سوزان: أحب التملق.

افترقا بعد التفاهم على ضرورة استخدام سوزان لمواهبها بما
يحقق أفضل فائدة. وأحسست بأنني أكثر انفعالاً من أن أذهب مباشرة
إلى النوم. كانت تلك ليثني الأخيرة على السفينة، وستكون في خليج
تبيل في وقت مبكر من صباح الغد.

تسللت إلى ظهر السفينة. كان الهواء بارداً وعليلاً، والسفينة تمخر
عباب البحر المائج. كان سطح المركب مظلماً وخالياً من أي مسافر؛
إذ تجاوز الوقت منتصف الليل. ملئت فوق الحاجز أرقب مياه البحر
المزبدة... أمامنا كانت أفريقيا، وكنا نندفع نحوها في ظلمات البحر.
أحسست أنني وحيدة في عالم رائع. وقفت هناك بلقمتي هدوء غريب،
لا أبالي بالوقت وأنا غارقة في أحلامي.

وفجأة انتابني إحساس غريب بالخطر يقترب مني. لم أكن قد
سمعت شيئاً، لكنني استدرت بطريقة غريزية. كان شبح شخص قد
زحف ليصبح ورائي، وعندما استدرت قفز فأمسك رقبتي بإحدى يديه
بشكل يمنع أية ضرخة قد أطلقها. قاومته يائسة، ولكن لم تكن عندي
أي فرصة. وكنت على وشك الاختناق من قبضته على حنجرتي، لكنني
عضضت وتشبثت وخمشت كما تفعل النساء عادة. كان الرجل مقيداً
باضطراره لعنني من الصراخ، ولو أنه نجح في أخذي على حين غرة
لكان سهلاً عليه إلقائي من فوق المركب بدفعة مفاجئة، وكانت أسماك

لا تشامخي. أعرف أنك ذات كبرياء واستقلالية تصل حد السخف،
ولكن عليك أن تصغي إلى لغة العقل بهذا الخصوص... إننا شريكان.
ما كنت لأعرض عليك بنساً واحداً لمجرد محبتي لك، أو لمجرد أنك
وحيدة دون أصدقاء... إن ما أريده هو الإثارة، وأنا على استعداد أن
أدفع مقابل ذلك. سوف تقوم بهذا العمل معاً دون اعتبار للنفقات. أولاً،
ستأتين معي إلى فندق ماونت نيلسون على نفقتي وهناك سنقوم بوضع
خطة لحملتنا.

تجادلنا في هذه النقطة وفي نهاية الأمر استسلمت لطلبها، ولكنني
لم أرتع للأمر، فقد أردت القيام بهذا العمل وحيدة.

قالت سوزان آخر الأمر وهي تنهض وتشاءب: انتهيتا من هذا الآن.
لقد أرفقتي فصاحتي، والآن هيا ناقش أمر صحابانا. سيذهب السيد
تشيستستر إلى دوربان. السير يوستيس ذاهب إلى فندق ماونت نيلسون
في كيب تاون ثم يذهب إلى روديسيا. سنتظره سيارة خاصة في محطة
القطارات، وفي إحدى لحظات الأريحية - في الليلة الماضية - عرض
علي أن أصحبه في السيارة. اعتقد أنه لم يكن يقصد ذلك فعلاً، ولكنه
لن يستطيع التراجع إن أنا أخذته بكلامه.

وافقتها: هذا جيد. راقبي السير يوستيس والسيد باجيت، أما أنا
فستأولى أمر تشيستستر. ولكن ماذا عن الكولونيل رايس؟

نظرت سوزان إليّ باستغراب وقالت: آن، لا أظنك تشكين في..

- بل أشك... أشك في الجميع. إنني في ذلك المزاج الذي يبحث
المرء فيه عن آخر من يُشبهه بهم.

اقتربت وقلبي يخفق. أدركت على الفور أن مهاجمي كان رجلاً
أكبر جسماً من نشيشيستر، على أية حال فقد كان نشيشيستر مخلوقاً
ضعيفاً يمكنه أن يستخدم سكيناً يقطع بها، ولكنه لا يقوى كثيراً على
استخدام يديه بمفردهما.

أشعل رايبون عود ثقاب، وصحنا نحن الاثنين... كان الرجل هو
غاي باجيت! بدا رايبون ذاهلاً تماماً من هذا الاكتشاف.

تمتم: باجيت؟ يا إلهي، إنه باجيت!

أحسست بشعور خفيف من التفوق وقلت: تبدو وقد فوجئت.

قال بحزن: 'لقد فوجئت فعلاً... لم أشك أبداً...'. ثم التفت إليّ
بغثة وقال: وأنت؟ ألم تُفاجئي؟ أظنك عرفته عندما هاجمك؟

- كلا، لم أعرفه، ومع ذلك فلست أحس بكثير مفاجأة.

نظر إليّ بارتياح وقال: إنني لأتساءل عن موقعك من هذا كله؟
ومقدار ما تعرفينه؟

ابتسمت وقلت: أعرف الكثير يا سيد... لو كاس!

أمسك بذراعي، وجعلتني قوة قبضته اللاإرادية أمتعض، ثم سألتني
بصوت أجش: من أين عرفت هذا الاسم؟

سألته بلطف: اليس اسمك؟ أم أنك تحب أن أناديك باسم «ذي
البدة البنية»؟

صعقته كلماتي هذه. أرخى ذراعي و تراجع خطوتين إلى الوراء
وقال لاهئاً: أأنت فتاة أم ساحرة؟

الفرش ستولى القيام ببقية العمل.

وبعد أن قاومته قدر استطاعتي شعرت أنني أضعف. وأحس
مُهاجمي بذلك أيضاً، فاستخدم كل قوته. ثم جاء شبح آخر يركض
بخفة ودون أي صوت، وبضربة واحدة من قبضته جعل خصمي ينطرح
أرضاً. وبعد أن تحررت أسندت نفسي إلى الحاجز وأنا أشعر بالغتياز
وأرتجف.

التفت متقدي إليّ بحركة سريعة وقال: هل تأذيت؟

كان في نبرة صوته شيء من الوحشية... تهديد للشخص الذي
تجرأ على إيذائي. وحتى قبل أن يتكلم كنت قد عرفته؛ إنه رجلي...
الرجل ذو الندبة.

ولكن تلك اللحظة التي حوّل فيها اهتمامه إليّ كانت كافية للعدو
الساقط على الأرض؛ إذ قام عن الأرض بسرعة البرق وأسرع عائداً
يركض عبر سطح السفينة، وقفز رايبون وراه وهو يشتمه.

كنت أكره دائماً أن أكون بعيدة عن الأحداث، ولذلك شاركت في
المطاردة... وكنت أسوأ الثلاثة. اندفعنا حول ظهر المركب إلى ميمّة
السفينة. وهناك، بجانب باب القاعة، كان الرجل ملقى كومة هامدة،
وقد انحني رايبون فوقه.

قلت لاهئاً: هل ضربته ثانية؟

أجابني عابساً: لم تكن لذلك حاجة. وجدته منهاراً قرب الباب،
أو أنه لم يستطع فتحه وبالتالي فهو يتظاهر. سنعرف هذا في الحال، كما
سنعرف من يكون هذا الرجل.

قلت متظاهرة بيروود كنت أبعد ما أكون عنه: آه، بلى؛ أخاف من الزناير، والنساء الساخرات، والشباب الصغار، والصراصير، وموظفي المحلات المتكبرين.

ضحك ضحكة قصيرة كضحكته الأولى، ثم حرّك جسد باجيت الغائب عن الوعي بقدمه وسأل دون مبالاة: ماذا ستفعل بهذا التافه؟ أنلقيه في البحر؟

قلت بنفس القدر من الهدوء: إن شئت ذلك.

- إنني معجب بفراتك المتقبلة لكل شيء والمتعطشة للدماء يا آتسة بيدنغفيلد، ولكننا سنتركه حتى يصحو على راحته. إن إصابته غير خطيرة.

قلت بلطف: أرى أنك تستنكف عن ارتكاب جريمة قتل ثانية.

- جريمة قتل ثانية؟

بدا متحيراً بصدق. وذكرته وأنا أراقب تأثير كلماتي عليه عن قرب: تلك المرأة في مارلو.

بدأت على وجهه تقاسيم عبوس قبيحة. بدأ وكأنه نسي وجودي معه وقال: كان يمكن أن أقتلها، وأحياناً أظنني كنت أعزم قتلها...

جاشت في نفسي أحاسيس قاسية وحاقدة على المرأة القتيلة. لو كانت تغف أمامي في تلك اللحظة لقتلتها؛ لأن شعوره هذا يدل على أنه لا بد أحبها مرة. لا بد... لا بد!

ضبطت أعصابي وتكلمت بصوت طبيعي: يبدو أننا قلنا كل

قلت وأنا أنقدم نحوه خطوة: أنا صديقة. لقد قدمت لك مساعدتي مرة... وها أنا أقدمها لك ثانية. هل ستقبلها؟

أذهلتني فسوة إجابته: كلا؛ لن أنعامل معك أو مع أية امرأة أخرى... افعلي ما تشائين.

ومثلما حدث من قبل، بدأت أعصابي أنا تنور فقلت: ربما لا تدرك كم أنت في قبضتي؟ إن كلمة واحدة مني للقبطان...

قال ساخراً: "قولها". ثم قال وهو يتقدم خطوة سريعة: طالما أننا نتحدث عن إدراك الأمور يا فتاتي العزيزة، هل تدركين أنك الآن في قبضتي أنا؟ أستطيع أن أخنقك هكذا.

وبحركة سريعة من يده قرن كلامه بالفعل. أحسست أن يديه تطبقان حول حنجرتي وتضغطان... ضغطاً خفيفاً جداً، ثم أكمل: هكذا... حتى أخرج الحياة منك! وبعدها -كصديقنا المغمى عليه هنا، ولكن بنجاح أكبر- ألقى بجثتك إلى أسماك القرش. ما رأيك بذلك؟

لم أقل شيئاً. ضحكت، ومع ذلك عرفت أن الخطر كان حقيقياً. في تلك اللحظة تماماً كان يكرهني، ولكنني عرفت أنني أحببت الخطر، أحببت الإحساس بيديه حول عنقي، وأنني ما كنت لأستبدل بتلك اللحظة أي لحظة أخرى في حياتي.

حررتني وهو يضحك ضحكة صغيرة، ثم سألتني فجأة: ما اسمك؟
- آن بيدنغفيلد.

- ألا يخيفك شيء يا آن بيدنغفيلد؟

ما يمكن أن يقال... باستثناء "طابت ليلتك".

- طابت ليلتك ووداعاً أنسة بيدنغفيلد.

- إلى اللقاء يا سيد لو كاس.

مرة أخرى جفل عند سماعه الاسم، واقترب مني أكثر: لماذا تقولين هذا... أقصد قولك "إلى اللقاء"؟

- لأنني أظن أننا سنلتقي ثانية.

- لن يحدث هذا ما وسعني ذلك!

لم تضايقتي كلماته هذه رغم أنها كانت مشددة، بل على العكس من ذلك أحسست برضا داخلي في نفسي؛ فأنا لست مغفلة تماماً. قلت بهدوء: ورغم ذلك أظن أننا سنلتقي.

- لماذا؟

مززت رأسي غير قادرة على شرح الأحاسيس التي حركت كلماتي، فقال فجأة وبعننف: لا أتمنى أن أراك أبداً مرة أخرى.

كان ذلك حقاً كلاماً وقحاً جداً، ولكنني ضحككت ضحكة هادئة وابتعدت عنه في الظلام. سمعته وقد تحرك ليتبعني ثم توقف وقال كلمة طافت في الهواء. اعتقد أن الكلمة كانت «ساحرة»!

الفصل السابع عشر

مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

فندق ماونت نيلسون، كيب تاون:

إن أعظم راحة في الحقيقة هي مغادرة المركب كيلموردن؛ فطوال وجودي على ظهر المركب كنت أدرك أنني محاط بشبكة من المكائد، وتوحيماً لكل شيء فإن غاي باجيت تورط -دون شك- في مشاجرة سكارى الليلة الماضية. هذه هي حقيقة ما حدث، ورغم أنه حاول صرف نظري عن ذلك بتبريرات مختلفة. وإلا ماذا يرى المرء عندما يأتيه رجل وفي رأسه انتفاخ بحجم البيضة وحول عينه جميع ألوان الطيف؟

من شأن باجيت طبعاً أن يصرّ على كتمان الأمر كله. ولو أخذ المرء بكلامه لظن أن السواد حول عينه ما كان إلا نتيجة مباشرة لإخلاصه لمصالحه. كانت روايته غامضة عويصة جداً، وقد احتجت وقتاً طويلاً حتى عرفت رأسها من ذيلها.

بيدو -بداية- أنه لمح رجلاً يتصرف تصرفات مريبة. كانت هذه كلمات باجيت، وقد أخذ تلك الكلمات مباشرة من صفحة في قصة تجسس ألمانية، أما ما الذي يعنيه برجل يتصرف تصرفات مريبة فهو

غرفتك وغرفة الكولونيل رايس.

قلت بحذر: 'رايس يستطيع العناية بنفسه دون مساعدتك يا باجيت'. ثم أضفت مستدركاً: وكذلك أنا!

اقترب باجيت أكثر وتنفس بصعوبة كما كان يفعل دائماً قبل أن يفشي سرّاً: خُيل إليّ يا سير يوستيس (والآن أنا واثق من ذلك) أنه رايرن.

- رايرن؟

- نعم يا سيدي.

هزئت رأسي وقلت: إن رايرن أعقل بكثير من أن يحاول إيقاظي في منتصف الليل.

- هذا صحيح يا سيدي. اعتقد أنه كان ذاهباً لرؤية الكولونيل رايس؛ اجتماع سري... طلباً للأوامر!

قلت وأنا أترجع إلى الوراء: لا تتمم في وجهي يا باجيت، واضبط تنفسك أيضاً. إن فكرتك سخيفة! لماذا يريدان عقد اجتماع سري في منتصف الليل؟ إذا كان أيّ منهما يريد قول شيء للآخر فيمكنه أن يقول له ذلك دون إحراج أثناء شرب الشاي عصراً وبطريقة طبيعية وعرضية.

أدركت أن باجيت لم يقتنع أبداً. أصرّ قائلاً: شيء ما كان يحدث الليلة الماضية يا سيدي، وإلا فلماذا يهاجمني رايرن بهذه الوحشية؟

- أأنت متأكد تماماً أنه كان رايرن؟

نفسه لا يعرف. وقد قلت له ذلك فقال: لقد كان يتسلل خلسة بطريقة مخادعة جداً، وكان الوقت منتصف الليل يا سيدي.

قلت بانزعاج: حسناً، وماذا كنت تفعل أنت هناك؟ لماذا لم تكن نانماً كأبي مخلوق طيب؟

- كنت أكتب لك البرقيات - يا سيدي - وأطبع لك اليوميات.

لك أن تفترض أن باجيت يرى نفسه دائماً على حق، وهو مستعد للاستشهاد في سبيل ذلك! قلت: حسناً؟

- رأيت أن ألقى نظرة على المكان قبل النوم يا سيدي. كان الرجل قادماً في الممر من غرفتك، وأدركت - على الفور - أن في الأمر شيئاً غير طبيعي من الطريقة التي كان ينظر فيها حوله. صعد الدرج المجاور للصالون بسرعة، وتبعته.

قلت: يا عزيزي باجيت، لماذا لا يصعد ذلك المسكين إلى ظهر المركب دون أن يطارده أحد؟ يبلغ الأمر أحياناً أن ينام الكثيرون على ظهر السفينة (وهو أمر كنت أراه دائماً غير مريح؛ فالبحارة يكتسون المرمع مع بقية النفايات على ظهر السفينة في الساعة الخامسة صباحاً).

أكملت وأنا أرتعدُ من هذه الفكرة: وعلى أية حال، فإن كنت قد ذهبت لمضايقة رجل مسكين يعاني الأرق فلا أعجب أن يتألمك ضربة.

بدا باجيت صابراً، ثم قال: لو تسمعتني حتى أكمل حديثي يا سيدي. كنت مقتنعاً بأن الرجل كان يجوس قرب غرفتك حيث لا يعمل له هناك؛ إن الغرفتين الوحيدتين اللتين تقعان في نهاية ذلك الممر هما

إن لباجيت شهرة في إثارة النكد، وهو يظهر رضا كئيباً بشير جنوني، كما أنه استغل اضطرابي لكي يحتلني مسؤولية صندوق القرطاسية. وإذا لم يتبه لنفسه فستكون الجنازة التالية التي يحضرها جنازته هو.

ومع ذلك كان عليّ الإصغاء له في نهاية الأمر: افترض - يا سير يومستيس - أن رايرن قد سمع كلمة أو اثنتين من حديثك مع السيد ميلراي في الشارع؟ تذكر أنك لا تحمل تفويضاً كتابياً من السيد ميلراي، وقد قبلت رايرن بناء على تقويمه هو.

قلت ببطء: إذن فأنت ترى أن رايرن محتال؟

كان باجيت يرى ذلك فعلاً. لا أعرف إلى أي مدى كانت آراؤه هذه متأثرة بسخطه على ما أصاب عينه. لقد نسج قضية متكاملة ضد رايرن، كما أن مظهر هذا الأخير يعزز الرأي ضده. كان رأيي أن لا أفعل أي شيء في هذه المسألة. إن رجلاً سمح لنفسه بأن يُصبح أضحوكة لا يحرص على إذاعة هذه الحقيقة.

لكن باجيت (الذي لم تضعف طاقته متى تعرض له مؤخراً) كان متحمساً لاتخاذ أقوى التدابير، وقد كان له طبعاً ما أراد! أسرع إلى مركز الشرطة وبعث بزيارات لا تحصى وأحضر مجموعة من المسؤولين الإنكليز والهولنديين ليأكلوا ويشربوا على حسابي.

حصلنا على ردّ ميلراي في ذلك المساء: لم يكن يعرف أي شيء عن سكرتيري الهارب!

كانت في هذا الوضع نقطة مريحة واحدة فقط؛ فقد قلت لباجيت: إن حالتك لم تكن على أية حال حالة تسمم، لقد كانت واحدة من نوبات الصفراء العادية التي كانت تهاجمك.

بدا باجيت مقتنعاً تماماً بذلك. إنه الجزء الوحيد من القصة الذي كان جازماً فيه. قال: يوجد شيء غريب جداً في كل هذا الأمر؛ إذ أين هو رايرن بدايةً؟

كان صحيحاً تماماً أننا لم نر الرجل منذ أن نزلنا البايسة. لم يأت إلى الفندق معنا، وأنا لا أظنه خائفاً من باجيت في أي حال.

الأمر كله مزعج جداً. لقد اختفى سكرتيري لي دون أن يترك أثراً، والسكرتير الآخر يبدو كملامم متكسب فاشل، ولا أستطيع اصطحابه معي في وضعه الحالي؛ فسأكون مادة سخرية أهالي كيب تاون. عندي موعد بعد ذلك في النهار لتسليم رسالة العجوز ميلراي، ولكني لن آخذ باجيت معي. تباً لهذا الرجل وأساليبه التجسسية!

ومع أنني كنت في مزاج سيء جداً، فقد اضطرت لتناول إفطار مؤذ مع أناس مؤذنين. نادلات هولنديات بأقدام متناقلة يحتجن لنصف ساعة حتى يحضرن لي قطعة سبينة من السمك، وهذه المهزلة في الاستيقاظ الساعة الخامسة صباحاً عند الوصول إلى الميناء لكي ترى طبيياً أعمش، ومسألة رفع أيدينا فوق رؤوسنا التي أتعبتني أيما تعب.

* * *

في وقت لاحق:

حدث شيء خطير جداً. ذهبْتُ إلى مواعدي مع رئيس الوزراء وأخذت معي رسالة ميلراي المختومة. لم يبدُ أن أحداً قد عبث بالظرف، ولكن كان بداخله ورقة بيضاء! أظنني الآن في ورطة كبيرة؛ لا أعرف لماذا سمحت لذلك العجوز الأحمق ميلراي أن يورطني في هذا الأمر.

رأيت يرمش بعينه. كان ذلك هو الهدف الوحيد الذي سجلته
ضده.

* * *

بعد ذلك :

إن باجيت مرتاح للجو العام. عقله يتدفق بالأفكار الذكية، ولن
يلتب أن يقول إن رايرن ليس إلا ذلك الرجل الشهير ذا البدلة البنية.
وأظنه على حق؛ فعادة ما يكون على حق، ولكن الأمر كله يتطور بطريقة
كريهة. كلما أسرعت في المغادرة إلى روديسيا كان ذلك أفضل.

لقد أوضحت لباجيت بأنه لن يصحبي، إذ قلت له: يجب أن
تبقى هنا يا عزيزي في مركز الأحداث. قد يُطلب منك التعرف على
رايرن في أية لحظة، وإلى جانب ذلك فإن عليّ التفكير بسمعتي كعضو
في البرلمان الإنكليزي. لا أستطيع الخروج مع سكرتير من الواضح أنه
اشتبك مؤخراً في عراك شوارع.

جفل باجيت. إنه رجل محترم إلى الحد الذي يصبح مظهره مؤلماً
بالنسبة له. قال: ولكن ماذا ستفعل بمراسلاتك وبالملاحظات الخاصة
بخطاباتك يا سيدي؟

قلت بركة: سأندبر الأمر.

- ستكون سيارتك الخاصة مصاحبة لقطار الساعة الحادية عشرة
صباحاً؛ صباح الأربعاء. لقد قمت بكل الترتيبات. هل ستأخذ السيدة
بليز خادمة معها؟

شهمتُ قائلاً: السيدة بليز؟

- لقد أخبرتني بأنك عرضت عليها الذهاب معك.

هذا ما فعلته، وقد تذكرت هذا الآن... في ليلة الحفلة التنكرية
بل إنني ألححت عليها كي تأتي، ولكني لم أحسب أبداً أنها ستوافق.
ورغم أنها امرأة مفرحة إلا أنني لا أرى نفسي راغباً برفقتها طوال الطريق
إلى روديسيا والعودة؛ فالنساء يحتجن إلى الكثير من الاهتمام، وهن
يُغفنُ المرء عن أمره أحياناً بشكل بغض.

قلت بعصية: هل دعوتُ أحداً آخر للقدوم معي؟ إن المرء يفعل
هذه الأشياء في لحظات الأريحية.

- يبدو أن السيدة بليز تحسبك دعوتُ الكولونيل رايس أيضاً.

زمجرت قائلاً: لا بد أنني كنت ثملاً جداً إن كنت قد طلبت من
رايس ذلك... ثملاً جداً حقاً! اسمع نصيحتي يا باجيت واجعل من عينك
المضروبة هذه تحذيراً لك: لا تحضر حفلات سكر مرة أخرى.

- كما تعرف يا سيدي؛ فإنني لا أشرب المسكرات.

- من الأفضل أن تأخذ على نفسك عهداً بهذا إن كنت تشعر بضعف
تجاه المسكرات. هل دعوتُ أحداً آخر للقدوم معي يا باجيت؟

- لا أعرف يا سيدي.

تهتدت بارتياح، ثم قلت متأملاً: بقيت الأنسة بيدنغفيلد. أظنها
تريد الذهاب إلى روديسيا لتتيش عن العظام، وأنا أفكر بأن أعرض
عليها وظيفة سكرتيرة مؤقتة. أعرف أن باستطاعتها الطباخة؛ هي أخبرتني
بذلك.

ولشدة دهشتي عارض باجيت هذه الفكرة بحماسة. إنه لا يحب

آن بيدنغفيدل، ومنذ الليلة التي تلقى فيها تلك الضربة على عينه أصبح يُظهر مشاعر عنيفة ضدها عندما يُذكر اسمها، إن باجيت مليء بالأغاز هذه الأيام.

سأطلب من الفتاة مصاحبتي لمجرد إزعاجها

الفصل الثامن عشر

(آن تستأنف روايتها)

لا أظنني سأنسى ما حيتت رؤيتي لجبل تيبيل (جبل الطاولة) لأول مرة. نهضت في وقت مبكر جداً وصعدت مباشرة إلى ظهر السفينة، وهو أمر يشكل جريمة لا تُغتفر، ولكنني قررت محاولة فعل شيء للإبقاء على عزيتي. كنا نقترّب من خليج تيبيل، وكان لثة غيوم بيضاء خفيفة تحوم فوق جبل تيبيل وتربض على سفوحه، وتحت المنحدرات في الأسفل كانت البلدة النائمة تتلألأ وتلمع تحت ضوء شمس الصباح.

جعلني هذا المنظر أحبس أنفاسي، وأحسست بداخلي إحساساً غريباً من ألم الجوع الذي يتتاب المرء أحياناً عندما يرى شيئاً فاتق الجمال. لست بارعة كثيراً في التعبير عن هذه الأشياء، ولكنني عرفت جيداً أنني وجدت -ولو للحظة عابرة- الشيء الذي كنت أبحث عنه منذ أن غادرت ليلت هامبلي؛ شيئاً جديداً، شيئاً لم أحلم به حتى اليوم، شيئاً يشيع توقي الحميم إلى الرومانسية.

اقتربت الباحة كيلموردن من الشاطئ أكثر وأكثر بصمت مطبق، أو هكذا بدا الأمر لي. كان الأمر ما زال أشبه بالحلم، ولكنني -ككل

آن بيدنغفيدل، ومنذ الليلة التي تلقى فيها تلك الضربة على عينه أصبح يُظهر مشاعر عنيفة ضدها عندما يُذكر اسمها، إن باجيت مليء بالأغاز هذه الأيام.

سأطلب من الفتاة مصاحبتي لمجرد إزعاجها

جعلني هذا المنظر أحبس أنفاسي، وأحسست بداخلي إحساساً غريباً من ألم الجوع الذي يتتاب المرء أحياناً عندما يرى شيئاً فاتق الجمال. لست بارعة كثيراً في التعبير عن هذه الأشياء، ولكنني عرفت جيداً أنني وجدت -ولو للحظة عابرة- الشيء الذي كنت أبحث عنه منذ أن غادرت ليلت هامبلي؛ شيئاً جديداً، شيئاً لم أحلم به حتى اليوم، شيئاً يشيع توقي الحميم إلى الرومانسية.

اقتربت الباحة كيلموردن من الشاطئ أكثر وأكثر بصمت مطبق، أو هكذا بدا الأمر لي. كان الأمر ما زال أشبه بالحلم، ولكنني -ككل

لم تكن ملاحظة واضحة مفهومة، ولكنها كانت الملاحظة الوحيدة التي استطعت التفكير فيها.

- هل ستسامحيتي؟

مددت يدي دون أن أنبس بكلمة، فأمسك بها، ثم قال وقد ازداد تجهمه: شيء آخر أود قوله. ربما لا تعرفين ذلك آنسة بيدنغفيلد، ولكنك متورطة في عمل خطير.

- هذا ما فهمته.

- كلا، أنت لم تفهميه. لا يمكنك أن تعرفي. أريد أن أحذرك: اتركي هذا الأمر وشأنه. إنه لا يهمك في الحقيقة، فلا تدعي فضولك يقودك إلى العتب بشؤون الآخرين. كلا، أرجوك لا تغضبي ثانية. أنا لا أتكلم عن نفسي. أنت لا تعرفين شيئاً عما قد تواجهينه... لن يوقف هؤلاء الرجال شيء. إنهم قساة جداً، وأنت في موقع خطر. انظري إلى الليلة الماضية... إنهم يتصورون أنك تعرفين شيئاً، وفرصتك الوحيدة هي إقناعهم بأنهم مخطئون. ولكن احذري، احذري الخطر دائماً، واسمعيني جيداً: إذا وقعت في أيديهم في أي وقت فلا تحاولي التذاكي... قولني الحقيقة كلها، فستكون هذه فرصتك الوحيدة.

قلت بصدق: أنت ترعيني تماماً يا سيد رايرن. لماذا تكلف نفسك عناء تحذيري؟

لم يرد علي لبعض الوقت، ثم قال بصوت منخفض: قد يكون هذا آخر شيء أستطيع فعله من أجلك. إذا وصلت إلى اليابسة فسأكون على ما يرام... ولكتي قد لا أصل إلى اليابسة.

الحالمين- لم أستطع ترك حلمي وشأنه. إننا -معشر البشر المساكين- حريصون جداً على أن لا تفقد شيئاً!

رحت أقول لنفسي دون كلل: ها هي جنوب أفريقيا... جنوب أفريقيا... جنوب أفريقيا. أنت تشاهدين العالم؛ هذا هو العالم، إنك تشاهديته. فكري في هذا يا آن بيدنغفيلد... إنك تشاهدين العالم.

كنت قد ظننت أنني بمفردي على ظهر المركب، ولكني الآن لاحظت شخصاً آخر ينحني فوق السياج يتأمل مثلي تلك المدينة التي تقترب بسرعة، وقد عرفته حتى قبل أن يلتفت برأسه. بدا مشهد الليلة الماضية ميلودرامياً غير حقيقي بعد أن سطعت شمس الصباح الهادئة. ماذا رأي في؟ إن تذكرتي لما قلته الليلة الماضية بغضبي، ولم أكن أقصد ما قلته... أم أنني كنت أقصده؟

التفت برأسي بعيداً بحزم، وأمضت النظر بجبل تبيل. إذا كان رايرن قد صعد إلى هنا ليكون وحيداً فلا حاجة بي -على الأقل- لأن أعكر عليه صفو وحدته بظهوري أمامه.

ولكن لشدة دهشتي سمعت وقع أقدام خفيفة ورائتي ثم سمعت صوته مرحاً وطبيعياً: آنسة بيدنغفيلد.

قلت: "نعم؟"، والتفت برأسي.

- أريد أن اعتذر لك؛ لقد تصرفت معك الليلة الماضية تصرفاً فظلاً.

قلت بسرعة: لقد كانت... لقد كانت ليلة غريبة.

صحت: ماذا تقول؟

- أخشى أنك لست الوحيدة على ظهر المركب التي تعرف بأنني «ذو اليدلة البنية».

قلت غاضبة: إذا كنت تعتقد أنني أخبرت...

هدأني بابتسامة وقال: أنا لا أشك فيك يا آنسة بيدنغفيلد، وإن كنت قد قلت هذا من قبل فقد كذبت عليك. كلا، ولكن يوجد شخص في السفينة عرف بأمرى من البداية. ما عليه إلا أن يتكلم... فيُضَي علي. ومع ذلك فأنا أراهن على أنه لن يتكلم.

- لماذا؟

- لأنه رجل يحب اللعب وحيداً، وعندما يمسك بي الشرطة فلن أكون ذا فائدة له. أما إن كنتُ طليقاً فربما كنتُ ذا فائدة له! حسناً، سنرى ذلك خلال ساعة.

ضحك ضحكة ساخرة، ولكني رأيت قسماات وجهه تتصلب. إن كان قد قامر بمصيره، فإنه مقامر جيد، إذ يمكنه أن يتشم وهو خاسر.

قال كمن لا يهتم: على أية حال، لا أحسبنا ستلتقي ثانية.

قلت ببطء: نعم، لا أظن ذلك.

- إذن وداعاً.

- وداعاً.

شدّ بقبضته على يدي، وللحظة اشتعلت عيناه الفاتحتان الغريبتان

وهما تنظران في عيني، ثم التفتت بسرعة وتركني.

سمعت صوت وقع أقدامه ترن على ظهر المركب، وتردد صداها مراراً. أحسست أنني سأسمعها دائماً؛ وقع خطوات... تخرج من حياتي.

أعترف - صراحةً - بأنني لم أستمتع بالساعتين اللتين تلتنا ذلك، ولم أتنفس ثانية بحرية إلا بعد أن وقفت على الرصيف بعد أن أنهيت تلك الإجراءات الشكلية السخيفة التي تتطلبها البيروقراطية. لم يتم اعتقال أحد، وأدركت أنه يوم رائع، وأنتي في غاية الجوع. انضممت إلى سوزان، إذ كنتُ سأقضي الليلة معها في الفندق على أية حال. لم يواصل المركب طريقه إلى ميناء إليزابيث ودوربان إلا في صباح اليوم التالي. وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى فندق ماونت نيلسون.

كان كل شيء رائعاً. الشمس، والهواء، والأزهار! وقد غمرتني فرحة كبيرة عندما فكرت كيف تكون ليثل هامبسلي في كانون الثاني حيث يصل الوحل إلى الركبتين ويكون نزول المطر محتملاً. ولم تكن سوزان بمثل حماستي؛ فقد سافرت كثيراً بالطبع، كما أنها ليست من النوع الذي يتفعل قبل الإفطار. وقد زجرتني بشدة عندما خرجت مني صيحة انفعال على منظر شجرة لبلاب زرقاء عملاقة.

كانت سوزان أقل عنفاً بعد الإفطار. وقد أعطوني غرفة بجانب غرفتها تطل على منظر جميل لخليج تيبيل، وحدثت إلى المنظر بينما كانت سوزان تبحث عن ملطف البشرة، وعندما وجدته وبدأت - على الفور - بوضعه على وجهها أصبحت قادرة على الإصغاء إلي.

سألته: هل رأيت السير يوستيس؟ كان يسير خارج قاعة الطعام

وبدلاً من أن تصغي إلي اقتراحي الهادفة للتوفير أضافت ثلاث كلمات أخرى: "إنني أستمع كثيراً".

كانت سوزان ملتزمة بغداء مع أصدقاء لها جاؤوا لأخذها من الفندق في الساعة الحادية عشرة تقريباً، وقد بقيت وحيدة، فنزلت إلى الأراضي المحيطة بالفندق، وعبرت خط الترام وسرت في طريق مشجر ظليل ويارد إلى أن وصلت إلى الشارع العام. تجولت فيه أراقب المناظر وأستمع بأشعة الشمس وبرؤية الباعة السمر يبيعون الورود والفواكه، كما اكتشفت أيضاً مكاناً يبيعون فيه المثلجات اللذيذة. وفي نهاية الرحلة اشتريت سلة خوخ بست بست بنسات وعدت أدراجي إلى الفندق.

ولدهشتي وسروري وجدت رسالة في انتظاري. كانت من مدير المتحف، وكان قد قرأ خيراً عن وصولي في الباخرة كيلموردن، وقد وصفني الخبر بأنني ابنة البروفسور الراحل بيدنغفيلد. كان مدير المتحف يعرف والدي قليلاً، وكان معجباً به إعجاباً شديداً، وقد تابع يقول إن زوجته ستشعر بالغبطة إذا جئت وتناولت معهما فنجان شاي بعد ظهر ذلك اليوم في منزلهما في ميوزنبرغ. وقد كتب لي تعليمات بكيفية الوصول إلى هناك.

كان جميلاً أن أرى أن والدي المسكين ما زال يُذكر ويحظى بتقدير بالغ. وقد توقعت بأن أضطر للقيام بجولة في المتحف قبل أن أعاد كيب تاون، ولكنني كنتُ مستعدة للمجازفة بخوض تلك التجربة. وقد كان من شأن معظم الناس أن يروا في مثل تلك الجولة وليمة كبرى، ولكن المرء يسأم حتى اللذائذ إذا ما تربى على وجودها في حياته صباحاً وظهراً ومساءً.

عندما دخلنا. كان قد تناول لحم سمك رديئاً أو شيئاً كهذا وكان يخبر النادل عن رايه فيما أكله، وقد ألقى بشرة دزاق على الأرض لكي يظهر درجة صلابتها... ولكنها لم تكن بالصلابة التي ظنها فانهرست.

ابتسمت سوزان وقالت: السير يوستيس مثلي تماماً؛ لا يحب النهوض من نومه مبكراً. ولكن هل رأيت السيد باجيت يا آن؟ لقد قابلته في الممر. إن كدمة سوداء تحيط بعينه. ماذا تراه فعل؟

أجبتها دون مبالاة: كان يحاول فقط إلقائي من فوق السفينة.

كانت كلماتي هذه هدفاً لصالحي. تركت سوزان عملها بعد أن صبغت نصف وجهها وأصرت على معرفة التفاصيل، فأخبرتها بها.

صاحت: إن الأمر يزداد غموضاً شيئاً فشيئاً. لقد ظننتُ أن مهمة مرافقة السير يوستيس ستكون المهمة الأسهل، وأنتك ستفوزين بكل الإنارة مع تشيتشستر، ولكني الآن لست متأكدة تماماً. أرجو أن لا يلقي بي باجيت إلى خارج القطار في ليلة مظلمة.

- أحسب أنك ما تزالين فوق الشبهات يا سوزان، ولكن إذا حدث الأسوأ فسوف أبقى لك لارنس.

- لقد ذكرتني... أعطني نموذج برقية. دعيني أفكر الآن، ماذا سأقول؟ لقد تورطت في لغز غامض مثير جداً، وأرجوك أن تبعث لي بألف جنيه على الفور. سوزان".

أخذت نموذج البرقية منها وأشرت إلى أن يوسعها اختصارها قليلاً، وأن بإمكانها -إن كانت لا تحفل كثيراً بأداب التخاطب- أن تحذف كلمة أرجوك. ولكن بدا أن سوزان مستهتره تماماً بالأمور المالية،

فأثلاً: نحن مسرورون جداً لإقناعك بزيارتنا آنسة بيدنغفيلد.
 كان رجلاً طويلاً ذا لحية برتقالية اللون، وواضح أنه هولندي.
 لم يبدُ عليه أبداً أنه مدير متحف، والحقيقة أنني أدركت بسرعة أنني
 جعلت نفسي أضحوة.
 لقد وقعت في يد العدو.



وضعت على رأسي أفضل قبعة عندي (مما تخلصت منه سوزان)
 ولبست أفل أنوابي البيضاء تجعداً وانطلقت بعد الغداء. أدركت قطاراً
 سريعاً إلى ميوزينبرغ ووصلت إلى هناك بعد نحو نصف ساعة. كانت
 رحلة جميلة، ودرنا بيضاء حول قاعدة جبل تيبيل، وكانت بعض الأزهار
 رائحة. ولأن معلوماتي في الجغرافيا كانت ضعيفة، فلم أكن أعرف أن
 كيب تاون تقع في شبه جزيرة، ولذلك فوجئت عندما خرجت من القطار
 فوجدت نفسي في مواجهة البحر مرة أخرى. كان الناس يسبحون في
 جو جميل هناك متطين الواحاً قصيرة معقوفة تحملهم فوق الأمواج.
 وكان الوقت مبكراً جداً على موعد الشاي، ولذلك اتجهت إلى مهرجان
 السباحة ذلك، وعندما سألوني إن كنت أريد لوحاً لركوب البحر أجبتهم
 بنعم على الفور. إن ركوب البحر على هذا اللوح يبدو سهلاً تماماً، ولكنه
 ليس كذلك. ولن أقول أكثر من ذلك. شعرت بالغضب الشديد وكدتُ
 أرمي اللوح بعيداً، ومع ذلك عزمْتُ على العودة لأحاول ثانية. ما كنت
 لأرضى بأن أهزم، وعن طريق الصدفة فقط لاقيت نجاحاً في محاولتي
 الثانية، لأخرج وأنا أشعر بالسعادة العظيمة. إن ركوب الألواح هكذا...
 إما أن تخرج ساخطاً متبرماً أو فريحاً مسروراً بنفسك.

وجدت الدارة المسماة ميدجي بعد بعض الصعوبات. كانت على
 أحد جانبي الجبل معزولة عن البيوت الأخرى، وقرعت الجرس فخرج
 خادم مبتسماً. سألته: السيدة رافيني؟

أشار إليّ بالدخول وسقني في الممر وفتح أحد الأبواب. وعندما
 كنت علي وشك الدخول ترددت؛ أحسست برية مفاجئة، وما أن عبرتُ
 العتبة حتى أغلق الباب ورائي بقوة.

نهض رجل من مقعده وراء طاولة وتقدم نحوي وهو يمد لي يده

كل هذا مرّ في خيالي في وقت أقل من الوقت الذي يستغرقه الإخبار به. كانت حركتي الغريزية الأولى هي التراجع إلى الوراء وتحسس مقبض الباب، وايتسم آسري وقال معازحاً: أنت هنا، وستمكثين هنا.

بذلت كل جهدي لأن أتصنع الشجاعة في هذا الموقف، فقلت: لقد دُعيت هنا من قِبَل مدير متحف كيب تاون، فإذا كنتُ قد أخطأت...

- أخطأت؟ آه، نعم، أخطأت خطأً كبيراً!

ضحك بصوت أجش فقلت: أي حق لك في حجزي هنا؟ سأبلغ الشرطة...

ضحك باستهتار فجلست على كرسي وقلت ببرود: ليس بوسعي إلا أن أستنتج بأنك مجنون خطير.

- أحقاً؟

- أودّ أن أعلمك بأن أصدقائي يعلمون مكان وجودي تماماً، وإذا لم أعد هذا المساء فسيأتون بحثاً عني. أفهمت؟

- إذن فأصدقاؤك يعرفون أين أنت، أليس كذلك؟ أيّ واحد منهم؟

قمت بعد هذا التحدي بحساب سريع لفرصي. هل أذكر السير يوستيس؟ فهو رجل معروف، وقد يكون لاسمه وزن. ولكن إن كانوا على صلة مع باجيت فسيعرفون أنني أكذب. من الأفضل أن لا أجازف بذكر السير يوستيس.

قلت دون إيداء اهتمام: السيدة بليز واحدة منهم، وهي صديقة أقيم معها.

الفصل التاسع عشر

ذُكرني هذا بالجزء الثالث من فلم «مغامرات بامبلا» حين كنت أجلس على مقاعد الست بنسات آكل الشكلاطة الرخيصة وأتمنى أن تحدث لي نفس الأشياء التي تحدث لبطلة الفيلم! حسناً، ها هي قد حدثت بشكل عنيف، ولم يكن الأمر -على نحو ما- مسلياً جداً كما تخيلت. لا بأس في الأمر وأنت تراه على الشاشة... إذ تكون لديك تلك المعلومة المريحة بأن جزءاً رابعاً سيعقب هذا الجزء، أما في الحياة الحقيقية فليست لديك أية ضمانات على الإطلاق بأن أن المغامرة قد لا تموت فجأة في نهاية أي جزء.

نعم، كنت في مكان أحكم حصاره. عادت إلى ذاكرتي بوضوح كريح جميع الأشياء التي قالها لي رايرن ذلك الصباح. لقد أوصاني بأن أقول الحقيقة. حسناً، أستطيع أن أفعل هذا دائماً، ولكن هل سيفيدني ذلك؟ فهل سيصدقون روايتي بدايةً؟ هل سيصدقون أنني قد بدأت هذا المغامرة المجنونة اعتماداً على مجرد قصاصة من الورق تفوح منها رائحة كرات العث؟ بدت لي تلك حكاية لا يمكن تصديقها أبداً. في تلك اللحظة من التفكير العقلاني لمت نفسي على غيائي وسذاجتي الميلودرامية واشتقت إلى ملل المظلمتُن في ليلت هامبلسلي.

لم تكن كلماته هذه مفرحة، ولكنها -على الأقل- إرجاء للعقوبة، فعندي فرصة حتى الغد. كان واضحاً أن هذا الرجل تابع يطيع أوامر شخص أعلى منه. أيمكن أن يكون ذلك المسؤول هو باجيت؟

نادى فجاء خادمان وأخذاني إلى الطابق العلوي، ورغم مقاومتي كمتامني ثم قيداني من يدي وقدمي. كانت الغرفة التي أخذاني إليها أشبه بعلية تحت سطح المنزل مباشرة، وكانت مغبرة ولا يظهر فيها الكثير مما يدل على أنها كانت مشغولة من قبل. انحنى الهولندي لي انحناء ساخرة ثم انسحب بعد أن أغلق الباب وراءه.

كنت في وضع بانس تماماً. تقلبت ودرت، ولكنني لم أستطع إرخاء وثاقي ولو قليلاً، وقد منعتني الكمامة من الصراخ. وإذا ما صدف أن جاء أي شخص إلى البيت فلن أستطيع عمل أي شيء لجذب انتباهه. سمعت أسفل مني صوت باب يُغلق، وكان واضحاً أن الهولندي قد خرج.

كان عدم قدرتي على فعل أي شيء يثير جنوني. شددت وثاقي ثانية، ولكن العُقد صمدت. استسلمت في النهاية ثم غبت عن الوعي إما إغماء أو نوماً، وعندما استيقظت كان كل جسدي يؤلمني. كان المكان مظلماً تماماً ثم رأيت بأن الليل لا بد وأنه تقدم لأن القمر كان عالياً في السماء ويرسل أشعته من خلال الجو المُغبر. كادت الكمامة تخنقني وكان التصلب والألم في جسدي لا يحتمل.

ثم وقعت عينا على قطعة من الزجاج المكسور في الزاوية. كان ضوء القمر يسقط عليها مباشرة ولقد لفت انتباهي الضوء المنعكس منها، وعندما نظرت إليها خطررت لي فكرة.

كانت يداي وساقاي عاجزتين، ولكنني مع ذلك كنت أستطيع

قال أسري وهو يهز رأسه البرتقالي يخبت: لا أظن ذلك؛ فانت لم تربها منذ الساعة الحادية عشرة هذا الصباح، وقد استلمت رسالتنا التي تدعوك إلى المجيء هنا وقت الغداء.

أظهرت لي كلماته هذه كيف أنهم كانوا يراقبونني عن قرب، ولكنني ما كنت لأستسلم دون معركة، فقلت: أنت ذكي جداً، ولعلك سمعت بذلك الاختراع المفيد، الهاتف؟ لقد خابرتني السيدة بليز عندما كنت أرتاح في غرفتي بعد الغداء، وقد أخبرتها وقتها عن المكان الذي سأذهب إليه بعد الظهر.

ومما زادني ارتياحاً أنني رأيت ظلاً من القلق يطفو على وجهه. كان واضحاً أنه غفل عن احتمال اتصال سوزان بي عن طريق الهاتف، وتمنيئاً لو أنها اتصلت بي فعلاً!

قال بصوت أجش وهو ينهض: هذا يكفي.

سأله وأنا ما زلت أحاول أن أبذو رابطة الجاش: ما الذي ستفعله بي؟

- سأضعك في مكان لا تسبب في أي أذى إذا ما جاء أصدقاؤك بحثاً عنك.

برد الدم في عروقي لبعض الوقت، ولكن كلماته التالية طمأننتني.

- غداً سَطرح عليك أسئلة لتجيبني عنها، وبعد إجابتك عنها سنعرف ماذا ستفعل بك. ويمكنني أن أقول لك أيتها الفتاة أن لدينا أكثر من وسيلة لحمل الحمقى الصغار والمعاندين على الكلام.

ويتبر لي الدرج العاري المغبر، وزحفت عليه بحذر. ما زال السكون مخيماً ولكن عندما وقفت على استراحة الدرج سمعت همهمات أصوات خافتة. وقفت جامدة لبعض الوقت. كانت الساعة على الحائط تدل على أن الوقت كان بعد منتصف الليل.

كنت أدرك تماماً الأخطار التي قد تحدث لو أنني نزلت إلى أسفل لكن فضولي كان كبيراً. بدأت أستكشف المكان بحذر شديد. زحفت بهدوء أسفل إلى آخر درجة من الدرج ووقفت في الصالة المربعة. نظرت حولي ثم حبست أنفاسي لاهثة؛ فقد كان خادمٌ صبي يجلس بجانب باب الصالة. لم يكن قد رأي، وقد أدركت في الحال من نفسه أنه كان يغط في نوم عميق.

هل أرجع أدراجي أم أتقدم؟ كانت الأصوات تخرج من الغرفة التي دخلت فيها عند وصولي. كان أحدها صوت صديقي الهولندي، أما الآخر فلم أستطع التعرف عليه وقتها، رغم أنه بدا لي مألوفاً على نحو غامض.

وفي نهاية الأمر قررت أن واجبي الأكيد هو أن أسمع كل ما أستطيع سماعه، ولو جازفت في أمر استيقاظ الخادم. عبرت الصالة بهدوء وجثوت على ركبتي بجانب باب غرفة المكتب. لم أستطع سماع شيء واضح لبعض الوقت، ثم علت الأصوات قليلاً، ولكنني لم أستطع تمييز ما يقولانه.

وضعت عيني على فتحة المفتاح بدلاً من أذني. وكما تخمنت، كان أحد المتكلمين الهولندي الضخم. أما الرجل الآخر فكان جالساً خارج مجال رؤيتي. وفجأة نهض عن مقعده، ورأيت ظهره مكسواً

التقلب. بدأت أتحرك ببطء ودون نظام. لم يكن ذلك سهلاً، إلى جانب كونه مؤلماً إلى أبعد حد حيث لم أكن أستطيع حماية وجهي بيدي، وكان من الصعب أيضاً البقاء في أي اتجاه معين.

وبدا أنني أنقلب في جميع الاتجاهات عدا الاتجاه الذي أردت الذهاب نحوه، ومع ذلك وصلت في نهاية الأمر إلى هدفي، وكادت الزجاجة تلمس يدي المقيدتين.

وحتى بعد ذلك لم يكن الأمر سهلاً. لقد استغرق الأمر دهرأ حتى استطعت تحريك قطعة الزجاج بحيث أثبتتها في الحائط في وضع أستطيع معه تمرير وثاقي عليها إلى أعلى وأسفل. كانت عملية طويلة تمزق القلب، وقد أوشكت على اليأس، ولكنني في النهاية نجحت في نشر الحبال التي كانت تقيد معصمي. أما بقية العمل فكانت مسألة وقت. وعندما أعدت الدورة الدموية إلى يدي بعد فرك معصمي بقوة استطعت إزالة الكمامة عن فمي، وقد أفادني أخذ نفس كامل بضع مرات.

وسرعان ما استطعت فك آخر عقدة، ولم أستطع الوقوف على قدمي إلا بعد مضي وقت طويل، ولكنني وقفت في النهاية أحرك ذراعي جثة وذهاباً لكي أعيد حركة الدم إليهما، وأتمنى قبل كل شيء العثور على شيء أكله.

انتظرت نحو ربع ساعة حتى أتأكد من أنني استعدت قوتي، ثم مشيت على أطراف أصابعي إلى الباب. وكما كنت أمل فلم يكن مقللاً بالمفتاح، وإنما بالمزلاج فقط. فتحت المزلاج ونظرت إلى الخارج بحذر.

كان كل شيء هادئاً. كان ضوء القمر يدخل من خلال إحدى النوافذ

بشباب سوداء جليلة، عرفت من يكون حتى قبل أن يلتفت برأسه... السيد تشيتشستر!

والآن بدأت فهم كلامهما.

- ومع ذلك فهذا خطير. افترض أن أصدقاءها جاؤوا بحثاً عنها؟ كان الرجل الضخم هو الذي تحدث. أجابه تشيتشستر (وكان قد هجر كلياً صوت رجل الدين الذي كان ينتحله، ولذلك لا عجب أنني لم أستطع تمييزه): كل ذلك خدعة؛ إنهم لا يعرفون مكانها.

- لقد تكلمت بلهجة الواثقة تماماً.

- إنها تتكلم كذلك بالتأكيد. لقد درست الأمر وليس لدينا ما نخشاه. على أية حال إنها أوامر «الكولونيل»، ولا أحسبك تريد عصيانها؟

تلفظ الهولندي بشيء بلغته الخاصة، وأحسب أن ذلك الشيء كان تراجعاً سريعاً عن اعتراضه. قال مزمجرأ: ولكن لِمَ لا نضربها على رأسها؟ سيكون هذا سهلاً. القارب جاهز ويمكننا أخذها إلى البحر.

قال تشيتشستر متأملاً: نعم، هذا هو رأيي أيضاً؛ فمن المؤكد أنها تعرف الكثير. ولكن «الكولونيل» رجل يحب اللعب بمفرده، وهو لا يريد لأحد غيره أن يفعل ذلك.

بدا أن شيئاً في كلماته قد ذكره شيء أزعجه. استمر قائلاً: إنه يريد معلومات معينة من هذه الفتاة.

كان قد سكت قبل ذكر كلمة «معلومات»، وأسرع الهولندي إلى مقاطعته: يريد معلومات؟

- شيئاً كهذا.

قلت في نفسي: «الألماس!». وأكمل تشيتشستر: والآن أعطني القوائم.

ولفترة طويلة بعد ذلك كان حديثهما غير مفهوم لي، ويبدو أنه كان يتعلق بكميات كبيرة من الخضراوات. تم ذكر تواريخ وأسعار وأسماء أماكن مختلفة لم أكن أعرفها، وقد مضت نصف ساعة كاملة قبل أن ينهيا تدقيقهما وعدهما.

قال تشيتشستر: هذا جيد.

ثم سمعت صوتاً وكأنه دفع كرسيه إلى الوراء، وقال: سأخذ هذه معي لكي يراها «الكولونيل».

- متى ستغادر؟

- في الساعة العاشرة من صباح الغد.

- هل تريد رؤية الفتاة قبل رحيلك؟

- كلا. لدينا أوامر صارمة بأن لا يراها أحد قبل مجيء «الكولونيل».

هل هي بخير؟

- ذهبتُ لرؤيتها عندما جنّت إلى هنا للعشاء وكانت نائمة. ماذا

بخصوص الطعام؟

- قليل من الجوع لن يؤذيها. سيكون الكولونيل هنا في وقت ما غداً، وستجيب عن الأسئلة بطريقة أفضل إذا كانت جائعة. من الأفضل أن لا يقترب منها أحد حتى ذلك الوقت. هل قُيدت بإحكام؟

في البيت قد انتهت. تسللت خارج العلية مرة أخرى ونزلت الدرج بحذر شديد. كانت الصالة فارغة تماماً فعبرتها كالبرق وفتحت الباب ثم خرجت إلى ضوء الشمس، وهناك ركضت في الممشى الخارجي كمن مشه جنون.

عندما أصبحت خارج أسوار البيت عدت أمشي مشياً طبيعياً. كان الناس ينظرون إليّ باستغراب ولم أتعجب من ذلك؛ فلا بد أن وجهي وملابسي مغطاة بالغبار نتيجة التدرج في العلية. وفي النهاية وصلت إلى موقف للسيارات فدخلته وشرحت قائلة: لقد تعرضت لحادث وأريد سيارة تأخذني إلى كيب تاون فوراً. أريد اللحاق بالباخرة الذاهبة إلى دربان.

لم أنتظر طويلاً، فبعد ذلك بعشر دقائق كنت في السيارة أسابق الريح نحو كيب تاون. يجب أن أعرف إن كان تشينشستر على الباخرة أم لا، ولم أستطع تقرير ما إذا كنت سأبحر عليها بنفسي أم لا، ولكنني -في النهاية- قررت الإبحار على متنها. لم يكن تشينشستر ليعرف أنني رأيت في المنزل في موزنبرغ، ولا شك أنه يضع فخاخاً أخرى لاصطيادي ولكنني أصبحت حذرة الآن. كما أنه الرجل الذي أطارده، الرجل الذي كان يبحث عن الألماس نيابة عن «الكولونيل» الغامض.

وأسفاه على خططي! فعندما وصلت إلى الرصيف كانت الباخرة، «قلعة كيلموردن»، تمخر عباب البحر، ولم تكن عندي طريقة لأعرف إن كان تشينشستر قد أبحر عليها أم لا!

ضحك الهولندي وقال: ماذا ترى؟

ضحك الاثنان، وكذلك فعلت أنا في قرارة نفسي، ثم عندما بدا من الأصوات أنهما على وشك الخروج من الغرفة عدت أدراجي بسرعة. وقد كان ذلك في الوقت المناسب تماماً؛ فعندما وصلت أعلى الدرج، سمعت صوت باب الغرفة يفتح وفي نفس الوقت تحرك الخادم النائم. ينبغي عدم التفكير بالانسحاب عن طريق باب الصالة، ولذلك تعقلتُ وعدت إلى العلية حيث جمعت وثاقي حولي واستلقيت على الأرض ثانية خشية أن يخطر في بالهم المجيء وإلقاء نظرة علي.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وبعد نحو ساعة تسللت إلى الطابق السفلي، ولكن الخادم الذي كان قرب الباب كان مستيقظاً ويترنم مع نفسه. كنت متلهفة على الخروج من البيت لكنني لم أعرف طريقاً للخروج.

وفي النهاية أُجبرت على التراجع إلى العلية مرة أخرى. كان واضحاً أن الخادم يحرس الباب هذه الليلة، وبقيت هناك صابرة حتى بدأت أصوات استعدادات الصباح تصلني. تناول الرجلان إفطارهما في الصالة حيث كانت أصواتهما تصل إلى مسامعي بوضوح، وقد كان ياسي يزداد كثيراً: كيف أستطيع الخروج من البيت؟

أفنتع نفسي بالصبر، فمن شأن حركة متهورة أن تضد كل شيء. بعد الإفطار سمعت صوت تشينشستر وهو يغادر البيت، ولعظيم ارتياحي فقد رافقه الهولندي أيضاً.

انتظرت حابسةً أنفاسي. أحليت طاولة الطعام من بقايا الإفطار، وتم الانتهاء من أعمال البيت، وفي الختام بدا أن الأعمال المختلفة

قلت متأمة: لا أعرف تماماً. أنت بالطبع ستذهبن إلى رودسيا
لمراقبة باجيت...

- وأنت؟

كان ذلك الصعوبة التي تواجهني: هل ذهب تشيتشستر في
كيلموردن أم لم يذهب؟ هل اعترزم تنفيذ خطته الأصلية في الذهاب إلى
دربان؟ يبدو أن توفيت مغادرته موزنبيرغ كانت تشير إلى إجابة على
كلا السؤالين بالإيجاب، وفي تلك الحالة قد أذهب إلى دربان بالقطار.
تصورت أنني سأصل إلى هناك قبل وصول الباخرة، ومن ناحية أخرى
فإذا ما أرسلت بريقة إلى تشيتشستر بخبر هروبي، بالإضافة إلى خبر
مغادرتي كيب تاون إلى دربان، فلن يكون شيء أبسط له من مغادرة
الباخرة إما في ميناء إليزابيث أو ميناء إيست لندن وبذلك يراوغني
كلية.

كانت مشكلة معقدة. قلت: سوف نستعلم عن القطارات الذاهبة
إلى دربان.

- ما زال الوقت غير متأخر بالنسبة لشاي الصباح؛ سنشربه في
الردهة.

غادر قطار دربان الساعة الثامنة والربع مساءً ذلك اليوم كما
أخبروني في المكتب، وفي تلك اللحظة أجيلت القرار واتصممت إلى
سوزان لشرب شاي الحادية عشرة المتأخر.

سألتي سوزان: هل تشعرين أنك ستعرفين على تشيتشستر ثانية...
أفصد إذا ما تنكر بأية هيئة أخرى؟

الفصل العشرون

توجهت إلى الفندق. لم يكن في الردهة أحد أعرفه، فأسرعت إلى
الطابق العلوي وضربت على باب غرفة سوزان. سمعت صوتها وهي
تأذن لي بالدخول، وعندما رأني ألقيت بنفسها علي تعانقتي.

- آن، أين كنت يا عزيزتي؟ لقد قلقت عليك كثيراً. ما الذي كنت
تفعلينه؟

- كنتُ أغامر... الحلقة الثالثة من «مغامرات بامبلا».

أخبرتها بكل القصة. وحين انتهيت تنهدت بعمق ثم سألت بتذمر:
لماذا تحدث هذه الأمور دائماً معك أنت؟ لماذا لا يكمنني أحد ويقيدني
من يدي وقدمي؟

طمأنتها: لن تحمي ذلك إن فعلوه لك، والحقيقة أنني لم أعد
حريصة إلى ذلك الحد على القيام بالمغامرات، فالقليل منها يمكن أن
يودي بالمرء.

بدت سوزان غير مقتنعة، وقد كان من شأن ساعة أو اثنتين
تفضيها مكممةً موثقةً أن تغير نظرتها بسرعة كافية. إن سوزان تحب
الإثارة لكنها تكره المنغصات. سألتني: وماذا سنفعل الآن؟

- اعتقد أنها حقيقة. كانت كل الموانئ ترقبه، وقد خلد بيدلار وحمله على إحضاره معه كسكرتير له!

- هل تعني أنه السيد باجيت؟

- آه، ليس باجيت... وإنما الشخص الآخر. إنه يسمي نفسه رايرن.

سألته سوزان: هل اعتقلوه؟

قامت من تحت الطاولة بعصر يدي لكي تطمئنني، وانتظرتُ إجابته بشغف.

- يبدو أنه اختفى تماماً عن الأنظار.

- وكيف كان تقبل السير يوستيس لهذا الأمر؟

- اعتبرها إهانة شخصية له.

أتيح لي فرصة لسماع وجهة نظر السير يوستيس في هذه المسألة في وقت لاحق من ذلك اليوم. كنا قد استيقظنا من قبولة مريحة بعد الظهر حين جاء خادم يحمل رسالة، وقد دعتنا الرسالة بعبارات مؤثرة لتناول الشاي مع السير يوستيس في غرفة جلوسه.

كان المسكين في حالة يرثى لها وقد أفضى لنا بمناعبه، وقد شجعتة تمتعات سوزان المتعاطفة (وهي بارعة في القيام بمثل هذا العمل).

- في البداية كان لامرأة غريبة من الواحة ما جعلها تُقتل في بيتي... وأحسب أن ذلك كان تصرفاً متعمداً هدفه إزعاجي. لماذا في

هززت رأسي بحزن وقلت: لم أميّزه بالتأكيد عندما كان يتقمص شخصية مضيقة، وما كنت لأميزه أبداً لولا الرسم الذي رسمته أنت.

قالت سوزان متأملة: أنا واثقة من أن هذا الرجل ممثل محترف، وقد يخرج من الباخرة على هيئة عامل أو شيء غير ذلك، ولن تعرفه.

- أنت تشجعيني كثيراً.

في تلك اللحظة دخل الكولونيل رايس وانضم إلينا فسألته سوزان: ما الذي يفعله السير يوستيس؟ لم أره طيلة اليوم تقريباً.

ارتسم على وجه الكولونيل -للحظة- تعبير غريب وقال: إن لديه مسألة صغيرة خاصة يتابعها وتشغله.

- أخبرنا عنها.

- يجب أن لا أروي حكايات خارج المدرسة!

- أخبرنا شيئاً... حتى لو كان عليك اختراعه من أجلنا.

- حسناً، ما رأيك إذا علمت أن «الرجل ذا البدلة البنية» كان قد أبحر في السفينة معنا؟

- ماذا؟

أحسست أن الدماء قد غارت من وجهي ثم عادت ثانية، ولحسن الحظ لم يكن الكولونيل رايس ينظر إلي.

الشيء الذي يناسب باجيت كثيراً؛ إنه يحب الدسائس، لكنني جادٌ تماماً في عرضي. هل تأتين؟ ستكون السيدة بليز مرافقةً قديرة، ويمكنك أخذ عطلة من وقت لآخر لكي تُنقّي عن العظام.

قلت بحذر: أشكرك يا سير يوستيس كثيراً، ولكن أحسب أنني ذاهبة إلى دربان هذه الليلة.

- لا تكوني فتاة عنيدة. تذكّري أن في روديسيا الكثير من الأسود. سوف تحبين الأسود، فكل الفتيات هكذا.

سألته ضاحكة: هل ستكون الأسود مشغولة بالتمرن على القفزات المنخفضة؟ كلا، أشكرك كثيراً، يجب أن أذهب إلى دربان.

نظر السير يوستيس إلي، وتهدد بعمق ثم فتح باب الغرفة المجاورة ونادى باجيت قائلاً: إذا كنت قد أنهيت قبولتك يا عزيزي فربما كان من المناسب أن تقوم ببعض الأعمال على سبيل التغيير.

جاء غاي باجيت ووقف عند مدخل الباب، وقد جفل قليلاً عندما رأيته وردّ بصوت كئيب: كنت أطيع تلك المذكرة طوال العصر يا سيدي.

- حسناً، توقّف عن طباعتها إذن. اذهب إلى مكتب المفوض التجاري أو المجلس الزراعي أو غرفة المناجم أو أي مكان آخر واطلب منهم أن يعيروني امرأة آخذها معي إلى روديسيا. وهي يجب أن تكون ذات عينيّن صافيتين ولا تعارض إمساكي بيدها.

- حاضر يا سيدي؛ سأطلب طباعة اختزال قديرة.

بيتي أنا؟ لماذا اختارت ميل هاوس من بين جميع البيوت الأخرى في بريطانيا العظمى؟ ما هو الضرر الذي سببته لتلك المرأة بحيث تأتي وتقتل هناك؟

تعاطفت سوزان معه بوحدة من عباراتها فمضى السير يوستيس في سرده بنبرة أكثر أسمى: وكان ذلك لم يكن كافياً، فقد جاء الرجل الذي قتلها وأظهر من الوقاحة (بل من الوقاحة الصفيقة) ما جعله يربط نفسه بي كسكرتير لي. سكرتيري أنا إن كنتما تصدقان! لقد سئمت السكرتيرين، ولن أبقى عندي أي سكرتير؛ فهم إما قتلة مُتخفون أو سكارى يتشاجرون. هل رأيتما الكدمة السوداء حول عين باجيت المضروبة؟ لا بد أنكما رأيتماها بالطبع. كيف يمكنني التحرك مع سكرتير كهذا؟ كما أن وجهه شاحب مُصفر بغيض... وهو تماماً اللون الذي لا يناسب سواد الكدمة. لقد أقلعتُ عن توظيف سكرتير عندي... إلا إذا كانت فتاة. فتاة لطيفة ذات عينيّن صافيتين تمسك بيدي عندما أشعر بالغضب. ماذا عنك يا آنسة آن؟ هل تقبلين بالوظيفة؟

سألته ضاحكة: كم من المرات سبعتين عليّ الإمساك بيديك؟

ردّ السير يوستيس مازحاً: طوال اليوم.

ذكّرته: لن أنجز الكثير من الطباعة في تلك الحالة.

- هذا لا يهم. كل تلك الأعمال من ابتكار باجيت. إنه يوهني كثيراً، وأنا أعترم تركه ورائتي في كيب تاون.

- هل سيمكث هنا بعد مغادرتك؟

- نعم، سوف يستمتع تماماً بالبحري والبحث عن رايرين. هذا هو

- الكولونيل رايس ليس بديناً على نحو خاص... ولا هو مرح على نحو خاص أيضاً.

- أحياناً يكونون نحيلين وكثيبين.. أنا لا أقول إنني أشبهه في واحد منهما اشتهاً جاداً، ولكن المرأة قتلت في بيت السير يوستيس في نهاية المطاف...

- نعم، نعم. لا حاجة للذكر هذا مرة أخرى. سوف أراقبه لك يا آن، وإذا أصبح أكثر سمناً وأكثر مرحاً فسوف أبعث لك ببقية على الفور أخبرك فيها: "السير ي. يسمن بطريقة تثير الريبة. احضري على الفور".

صحت: يا لروحك المرحه يا سوزان! يبدو أنك تزين الأمر لعبة.

قالت سوزان دون خجل: اعترف بأنني أنظر إلى الأمر على هذا النحو، فهو يبدو أشبه بلعبة. إنها غلطتك يا آن؛ لقد تأثرت بروح المغامرة عندك. لا يبدو الأمر حقيقياً. يا إلهي! لو عرف كلارنس بأنني أجري في أفريقيا للإيقاع بعناة المجرمين لأصيب بنوبة.

سألته ساخرة: لم لا تبرقين له وتخبرينه بذلك؟

كانت روح الدعابة تخذل سوزان عندما يصل الأمر إلى إرسال بركات. فقد فكرت في اقتراحي بحسن نية: هذا ممكن، ستكون بركة طويلة جداً.

لمعت عيناها للفكرة وأضافت: ولكن أعتقد أن من الأولى أن لا أفعل. إن الأزواج يريدون دائماً التدخل في كل تسلية بريئة.

قلت وأنا ألخص الموقف: حسناً. ستقومين بمراقبة السير يوستيس

قال السير يوستيس بعد أن غادر السكرتير: إن باجيت رجل خبيث. أراهن أنه سيختار مخلوقة دميمة عامداً لكي يزعجني!

أمسكت بيد سوزان بانفعال وسحبته إلى غرفتها حيث قلت: سوزان، يجب أن نضع الخطط... وبسرعة. إن باجيت سيقتل هنا... أسمع ذلك؟

- نعم. أظن أن هذا يعني بأنني لن أذهب إلى روديسيا... وهو أمر مزعج لأنني أريد الذهاب إلى روديسيا. كم هذا مضجراً!

- ابتهجي. سنذهبين لا محالة. لا أفهم كيف يمكنك التراجع عن الذهاب في آخر لحظة دون أن يبدو هذا مثيراً للارتياح تماماً، وإلى جانب ذلك فقد يستدعي السير يوستيس سكرتيره باجيت فجأة وعندها سيكون من الصعب عليك مصاحبته في رحلته.

قالت سوزان وهي تغمزني: لن يكون هذا تصرفاً محترماً. سيتوجب عليّ وقتها أن أنظاهر بحبي الشديد له كعذر لمصاحبته!

- ومن ناحية أخرى إذا كنتِ هناك عندما يصل فسيكون الأمر كله عادياً وطبيعياً تماماً، كما أنني أرى أن علينا أن لا نبعد الرجلين الآخرين عن ناظرينا تماماً.

- آه يا آن، لا أحسبك تشكين بالكولونيل رايس أو بالسير يوستيس؟

قلت بغموض: إنني أشك في الجميع، ولو قرأت أية قصة بوليسية يا سوزان لعلمت أن المجرم يكون دائماً هو الشخص الأقل احتمالاً. لقد كان الكثير من المجرمين رجالاً مرحين بدينين مثل السير يوستيس.

قاطعتي سوزان: أعرف لماذا علي مراقبة السير يوستيس؛ بسبب شكله وحديثه الساخر. لكنني أعتقد أن الاشتهاء بالكولونيل رايس يعني المضي بعيداً في الارتياب؛ فهو على علاقة بالمخابرات. أتعرفين يا آن، أظن أن أفضل شيء يمكننا عمله هو الإصرار إليه وإخباره بالقصة كلها.

عارضتُ هذا الاقتراح الخطير بقوة، وأدركتُ أنه أحد النتائج الكارثية للزواج. ألم أسمع مراراً امرأة ذكية جداً تقول بنبرة امرأة تحسم جداً: "إدغار يقول...؟" (ويكون السامع مدركاً طوال الوقت أن إدغار رجل مغفل تماماً)! ولأن سوزان متزوجة كانت تتوق للاعتماد على رجل في هذا الأمر.

ومع ذلك فقد وعدتُ بإخلاص بأن لا تنفوه بكلمة واحدة إلى الكولونيل رايس، ثم واصلنا وضع خطتنا.

- واضح تماماً أنني يجب أن أبقي هنا وأراقب باجيت، وهذه هي أفضل طريقة لذلك. يجب أن أظاهر بأنني سأعادر هذه الليلة إلى دربان وأخذ حقائبي إلى أسفل، ولكنني سأذهب -في الحقيقة- إلى فندق صغير في المدينة. يمكنني أن أغير مظهري قليلاً وألبس شعراً أشقر مستعاراً وخماراً أبيض سميكاً، وستكون لدي فرصة أفضل لمعرفة ما ينوي عمله إذا ظنّ أنني ابتعدت عن طريقه.

وافقت سوزان على هذه الخطة بحماسة. قمنا بالاستعدادات الظاهرية اللازمة، واستعلمنا -مرة أخرى- عن موعد مغادرة القطار، وحزمت أمتعتي.

تناولنا العشاء معاً في الفندق. لم يظهر الكولونيل رايس لكن السير يوستيس وباجيت كانا يجلسان على طاولتهما، وقد ترك باجيت طاولة الطعام قبل فراغنا من الوجبة مما أزعجني؛ إذ كنت أريد أن أودعه. ومع ذلك يمكن أن ينوب السير يوستيس عنه دون شك. وهكذا ذهبت نحوه حين فرغت من طعامي وقلت: وداعاً يا سير يوستيس؛ سأذهب الليلة إلى دربان.

تنهد السير يوستيس بقوة وقال: هكذا سمعت. ألا تريدني أن آتي معك؟

- كنت أود ذلك.

- أنت فتاة لطيفة. هل أنت متأكدة بأنك لن تغيري رأيك وتأتي للبحث عن الأسود في روديسيا؟

- متأكدة تماماً.

قال السير يوستيس باكتئاب: على فكرة، إن باجيت ذاهب بالسيارة بعد قليل، ويمكنه أن يأخذك إلى محطة القطارات.

قلت بعجلة: آه، لا، أشكرك. لقد طلبنا أنا والسيدة بلير سيارة أجرة.

الذهاب مع غاي باجيت كان آخر شيء أريده! نظر السير يوستيس إليّ بإمعان وقال: لا أظنك تحبين باجيت. ولا ألومك؛ ذلك الحمار المتطفل الثقيل... يتصرف وكأنه مظلوم، ويفعل كل شيء يستطيعه لكي يضايقني ويزعجني!

دخلنا السيارة جميعاً، وعندما انطلقنا في الطريق إلى المدينة رحنا أقدم زناد فكري لأقول شيئاً، وفي نهاية الأمر قطع باجيت نفسه الصمت: لقد أمنت للسير يوستيس سكرتيرة قديرة جداً؛ إنها الأنسة بيتيغرو.

قلت: لم يكن يفرض في مديحتها بالضبط قبل قليل.

نظر باجيت إليّ ببيرو، ثم قال بأسلوب قمعي: إنها طابعة اختزال قديرة.

توقفنا أمام المحطة. ستركتنا هنا بالتأكيد. التفث ومددت له يدي... ولكن لا؛ لقد أصرت قائلاً: ساتي وأودعك. الساعة الآن الثامنة وقطارك يتحرك بعد ربع ساعة.

أعطى أوامره للحمالين. وقفت عاجزة لا أجرؤ على النظر إلى سوزان؛ فقد ارتاب الرجل. لقد عزم على التأكد من أنني ذهبت في القطار. وماذا أستطيع أن أعمل؟ لا شيء.

وجدت نفسي بعد ربع ساعة راحلة في القطار وباجيت واقفة على الرصيف يلوح لي بيده مودعاً. لقد قلب الطاولة عليّ بدهاء، كما أن سلوكه معي قد تغير، فقد كان أسلوبه زاخراً بلطف مشوب بعدم الارتياح، وهو أسلوب لم يكن يناسبه بتاتاً؛ الأمر الذي جعلني أشعر بالغبثان. كان الرجل منافقاً مدهاناً. في البداية حاول قتلي وها هو الآن يحييني! هل نخيل دقيقة واحدة أنني لم أميّزه في تلك الليلة على الباخرة؟ كلا، كان نكلفاً، نكلفاً أجبرني على الإذعان له، وهو يضحك مني وقاحة طوال الوقت.

تحركت - بناء على تعليماته الخبيثة - عاجزة كحمل وديع. كُؤمّت

سألته ببعض الفضول: ماذا فعل الآن؟

- لقد أحضر لي سكرتيرة؛ لا يمكن أن تري امرأة مثلها! إنها في الأربعين وتلبس نظارة وحذاء ضخماً، وعليها سمّ الكفاءة الشديدة التي سيكون فيها موتي. امرأة دميمة الوجه.

- ألن تمسك يدك؟

صاح السير يوستيس: أرجو مخلصاً أن لا تفعل ذلك! سيكون ذلك القشة التي ستقسم ظهري. حسناً، وداعاً يا ذات العينين الصافيتين. إذا اصطدت أسداً فلن أعطيك جلده... بعد الطريقة اللثيمة التي هجررتي بها!

شدّ على يدي بحرارة ثم افترقنا. كانت سوزان تتنظرنني في الصالة، وكانت قد نزلت لكي تودعني.

قلت بسرعة: هيا نذهب فوراً.

أشرت إلى الخادم ليحضر سيارة أجرة، ثم سمعت صوتاً من ورائي أجفنتني: اسمحي لي يا آنسة بيدنفيلد، إنني ذاهب في سيارة وأستطيع أخذك إلى المحطة مع السيدة بلير.

قلت بسرعة: أه، أشكرك، لا حاجة لأن تتعب نفسك. إنني...

- أوكد لك أنه لا توجد مشقة على الإطلاق. أدخل الحقائق في السيارة أيها العامل.

كنت عاجزة. كان بوسعي أن أتمنع أكثر، ولكن وخزة خفيفة من سوزان جعلتني أحترس. قلت ببيرو: أشكرك يا سيد باجيت.

الوقت يا سيد باجيت؛ لقد رحلت. هل هذه هي زجاجة الكولونيا؟
للأسف لم تفكر في هذا قبل ذلك!

مراً قريباً مني وهما في طريقهما إلى خارج المحطة. كان غاي
باجيت يتصبب عرقاً، وبدا واضحاً أنه ذهب إلى الصيدلية وعاد
ركضاً.

- هل أحضر لك سيارة أجرة يا سيدة بلير؟

لم تفشل سوزان في دورها.

- نعم، أرجوك. ألا يمكنني أن أعيدك معي؟ هل لديك عمل كثير
تقوم به للسبب بوستيس؟ يا إلهي! كنت أتمنى لو أن آن بيدنغفيلد ستأتي
معنا غداً. لا أحب فكرة سفر فتاة شابة كهذه إلى دربان لوحدها، ولكنها
كانت مصممة على الذهاب. يخيل إلي أن لديها هناك أحداً تحبه...

ثم ابتعدا عن مجال سمعي. يا لسوزان الذكية! لقد أنقذتني.

انتظرت بعض الوقت ثم خرجت أنا الأخرى من المحطة بعد أن
كدت أصطدم وأنا خارجة برجل... رجل كرهه المنظر ذي أنف كبير
بالنسبة لوجهه.

* * *

أمتعتي في المقصورة، وكانت ذات سريرين. كانت الساعة الثامنة والاثني
عشرة دقيقة، وسيطلق القطار بعد ثلاث دقائق.

ولكن باجيت لم يكن قد حسب لسوزان حساباً. قالت فجأة:
ستكون رحلة حارة جداً يا آن، وخصوصاً عند قطع صحراء كارو غداً.
هل أحضرت معك بعض الكولونيا؟

بدا واضحاً أن دوري قد جاء، فصححت: آه، يا إلهي! لقد تركت
زجاجة الكولونيا على طاولة الزينة في الفندق.

وقد خدم سوزان أسلوبها الأمر؛ فقد التفتت إلى باجيت بأسلوب
سلطوي وقالت: سيد باجيت، أسرع، لديك الوقت. هناك صيدلية مقابل
المحطة؛ يجب أن تشتري لأن زجاجة كولونيا.

تردد، ولكن أسلوب سوزان الجازم غلبه؛ فهي استبدادية بطبيعتها.
ذهب إلي حيث أمرته، وتابعته سوزان بتظارها إلى أن اختفى ثم قالت:
أسرع يا آن واخرجني من الناحية الأخرى... لا تهمني بأمر أمتعتك؛
فيمكنك إرسال بريقة بهذا الخصوص غداً. آه، ليت القطار يتحرك في
موعداه!

فنحت البوابة من جانب الرصيف المقابل ونزلت. لم يكن أحد
يلحظني، وكنت أرى سوزان تقف حيث تركتها ترفع بصرها إلى القطار
وتتظاهر بأنها تتحدث معي من الناظفة. صفر القطار وبدأ يتحرك، ثم
سمعت أفدأماً تجري على الرصيف بقوة.

انسحبت إلى ظل كشك كتب وبقيت أراقب. استدارت سوزان بعد
أن كانت تلوح بمنديلها إلى القطار المتباعد وقالت مبتهجة: لقد فات

تاون. وكان هناك ترام ذاهب إلى المدينة وكان عليّ أن أسرع للحاق به. سمعت وقع أقدام أخرى تجري ورائي، فقفزت إلى الترام بسرعة وكذلك فعل الذي كان يركض خلفي، وعرفته على الفور. كان نفس الرجل الذي مرّ بجاني على الطريق عندما ارتخى رباط حذائي، وبسرعة عرفت لماذا كان وجهه مألوفاً لدي. كان ذلك هو الرجل ضئيل الجسم ذو الأنف الكبير الذي اصطدمت به عندما غادرت محطة القطارات في الليلة الماضية!

أجفنتني تلك الصدفة. أيمكن أن يكون ذلك الرجل يتبعني متعمداً؟ قررت اختبار ذلك بالسرعة الممكنة. ضغطت على الجرس ونزلت في المحطة التالية، ولم ينزل الرجل. انسحبت إلى مدخل أحد المحلات وراقبت، فترجل عند المحطة التالية وعاد يمشي باتجاهي.

وضّحت القضية بما فيه الكفاية؛ كان هذا الشخص يلاحقني. لقد تسرعت في إصدار الحكم بغلتي، فقد أخذ انتصاري على غاي باجيت منحي آخر. أشرت للترام التالي وركبته، وكما توقعت ركب ظلي فيه أيضاً. واستسلمت لبعض التفكير الجاد.

كان واضحاً تماماً بأنني اكتشفت شيئاً أكبر من الذي كنت أعرفه. إن جريمة القتل في ذلك البيت في مارلو لم تكن حادثة معزولة ارتكبتها شخص منفرد. لقد كنت أواجه عصابة، وبفضل ما كشفه الكولونيل رايس لسوزان وما سمعته في البيت في موزينبرغ بدأت أفهم بعضاً من أعمالها المشعبة. إنها الجريمة المنظمة، ينظمها رجل معروف بين أتباعه بأنه «الكولونيل»! تذكرت بعضاً من الحديث الذي سمعته على ظهر السفينة عن الإضراب في منطفة الراند وأسبابه، والاعتقاد بأن منظمة سرية تعمل على إثارة الاضطرابات هناك. كان ذلك هو عمل

الفصل الحادي والعشرون

لم أجد صعوبة أخرى في تنفيذ خططي. وجدت فندقاً صغيراً في شارع خلفي أخذت غرفة فيه. ودفعت تأميناً حيث لم تكن معي أمعتة وذهبت إلى النوم بهدوء.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت في وقت مبكر وخرجت إلى المدينة لشراء حقيبة ملابس متواضعة. كانت فكرتي أن لا أفعل شيئاً لحين مغادرة قطار الحادية عشرة إلى روديسيا وهو يحمل معظم المجموعة. لم يكن من المحتمل أن يقوم باجيت بأية أعمال شائنة قبل أن يتخلص منهم، ولذلك ركب قطاراً إلى خارج المدينة وبدأت الاستمتاع بالمشي في المناطق الريفية. كان الجو بارداً نسبياً وقد سعدت لتسرين ساقّي بعد الرحلة البحرية الطويلة وبعد تقييدي في موزينبرغ.

إن كثيراً من الأمور الكبيرة تتوقف على أشياء صغيرة. ارتخى رباط حذائي ووقفت لأربطه، وكان الطريق قد انعطف في زاوية. وبينما كنت منحنية أربط حذائي جاء رجل يسير وكاد يصطدم بي. رفع قبعته وهمس معتذراً ثم أكمل طريقه، وقد خطر لي في ذلك الوقت بأن وجهه كان مألوفاً بعض الشيء لدي، ولكنني لم أفكر بأكثر من ذلك في تلك اللحظة. نظرت إلى ساعتّي. كان الوقت يتقدم، ودرت عاتدة باتجاه كيب

الأقل... ها قد عدتُ أحلم! المشكلة الحقيقية هي: ما العمل... الآن؟

أنا التي كنت أنفاخر بدوري كمراقبة أصبحت مراقبة الآن، وقد كنت خائفة! لأول مرة بدأت أفقد أعصابي. لقد كنتُ حبة الرمل الصغيرة التي تُعيق العمل السلس للالثة الكبيرة... وخُيِّلَ إليّ أن الآلة الكبيرة ستعامل مع الحبات الصغيرة بكل سرعة وحزم. مرة أنقذني هاري رايبيرن ومرة أنقذت نفسي، ولكنني أحسست فجأة بأن الاحتمالات كانت ضدي تماماً. كان أعدائي يلتفون جميعهم حولي في كل اتجاه وكانوا يقتربون مني، وإذا مضيت في القيام بهذا العمل وحيدة فسوف أهلك.

بذلتُ جهداً لاستجمع قواي، فماذا يمكنهم أن يفعلوا في نهاية الأمر؟ إنني في مدينة متحضرة... يتشر فيها رجال الشرطة في كل شبر. سأكون حذرة في المستقبل. يجب أن لا يوقعوني في فخهم مرة أخرى كما حدث في موزينبرغ.

وعندما وصلت إلى هذه النقطة في تفكيري وصل الترام إلى شارع أدربي، فخرجت منه ومشيت ببطء على الجانب الأيسر من الشارع لا أعرف ماذا أفعل. لم أكلف نفسي عناء النظر إن كان مطاردتي ورائي أم لا؟ فقد كنت أعرف أنه يتبعني. دخلت مطعم كارترايت وطلبت كأسين من الثلجات لتهدئة أعصابي. أكملتُ الأول منهما باستمتاع كبير، وكان السائل البارد يقطر داخل حنجرتي وأنا أتلذذ به. دفعت الكأس الأول جانباً فارغاً.

كنت أجلس على أحد المقاعد العالية ورأيت بطرف عيني متعقبين وهو يدخل ويجلس بشكل ظاهر على طاولة صغيرة قرب الباب. وأنهيت الكأس الثاني وطلت كأساً ثانياً. إنني أستطيع -في الواقع- شرب عددٍ

«الكولونيل»، وكان جواسيسه يعملون وفق خطة. وقد كنت أسمع دائماً أنه لا يشارك في هذه الأعمال بنفسه، حيث حدّد لنفسه القيام بأعمال التوجيه والتنظيم. كان محدداً له أن يكون العقل المفكر ولا يقوم بالأعمال التنفيذية الخطيرة. ولكن -مع ذلك- ربما كان موجوداً في المكان يدير الأمور من موقع أمين.

كان ذلك -إذن- هو معنى وجود الكولونيل رايس على ظهر السفينة قلعة كيلموردن. لقد خرج وراء المجرم الرئيس. كل شيء كان يتسجم مع ذلك الافتراض؛ كان شخصاً ذا منصب رفيع في المخبرات وعمله هو اعتقال الكولونيل.

أومات براسي وأنا أحدث نفسي... كانت الأمور تُضج لي كثيراً. ماذا عن دوري في هذه المسألة؟ ما علاقتي بالموضوع؟ هل كانوا يجرون وراء الألماس فقط؟ هزّزت رأسي بالنفي؛ فكائنات ما كانت قيمة الألماس فهي لا تبرر المحاولات البائسة التي جرت للتخلص مني. كلا، إنني أرمز لشيء أكثر من هذا. لقد كنت أمثل تهديداً أو خطراً عليهم وذلك على نحو لا أدري أنا كُنْه! لقد جعلتهم معلومة أعرفها (أو يظنون أنني أعرفها) حريصين كل الحرص على إزاحتي عن الطريق مهما كان الثمن... وكانت تلك المعلومة مرتبطة بالألماس بشكل أو بآخر. أحسست بالثقة في أن شخصاً واحداً يمكن أن يرشدني... إذا أراد! إنه «الرجل ذو البدلة البنية»... هاري رايبيرن. كان يعرف النصف الآخر من الحكاية، لكنه اختفى في الظلام! كان شخصاً ملاحظاً فأراً من الشبّاك التي نُصبت له، والأغلب أنني لن ألتقي به ثانية أبداً.

عدت أفكر في أحداث الساعة. لن يفيد التفكير العاطفي الساذج في هاري رايبيرن. لقد أظهر كراهيته نحوي منذ البداية. أو أنه على

لنجدتي. كان ذلك هو سبب حصانتي حتى الآن؛ فمنذ الليلة الماضية وحتى الحادية عشرة من صباح هذا اليوم كنت آمنة، أما الآن فإن الشباك تقترب مني لتصيدي.

أسرعت وفتحت حقيبتني ثم دفعت ثمن الشراب، وبينما كنت أفعل ذلك بدا أن قلبي قد توقف؛ لأنني رأيت داخل الحقيبة محفظة رجل مكدمسة بالتقود! لا بد أنه قد أدخلها في حقيبتني بخفة عندما كنت أغادر الترام.

وعلى الفور فقدت أعصابي. أسرعت خارج المطعم، وكان الرجل الصغير صاحب الأنف الكبير يقطع الشارع مع الشرطي. رأي الرجلان وأشار الرجل الصغير إليّ بانفعال، فأطلقت ساقتي للريح. رأيت أنه شرطي بظيء ولا يد أن أسبقه بمسافة، ولكن لم تكن عندي خطة وقتها. ركضت إلى شارع أدربي طلباً للنجاة فقط، وبدأ الناس ينظرون إلي. أحسست أن واحداً منهم قد يوقفني خلال دقيقة.

خطرت لي فكرة فسألت لاهئة: المحطة؟

- إنها باتجاه اليمين.

أسرعت في ذلك الاتجاه؛ فالركض للحاق بالقطار أمر مألوف. دخلت إلى المحطة، ولكن بينما كنت أدخل سمعت وقع أقدام قريبة من ورائي. لقد كان الرجل الصغير صاحب الأنف الكبير يظل عدو، وتكهنت بأنه سيوقفني قبل أن أصل إلى الرصيف الذي كنت أبحث عنه. رفعت بصري إلى الساعة المعلقة... الحادية عشرة إلا دقيقة واحدة. قد أستطيع فعل ذلك إذا نجحت خطتي.

غير محدد من كؤوس المثلجات!

وفجأة نهض الرجل الجالس قرب الباب وخرج، وقد أدهشني ذلك. إن كان يريد الانتظار في الخارج فلماذا لم ينتظر في الخارج من البداية؟ نزلت عن الكرسي وذهبت إلى الباب بحدري، ثم تراجعت بسرعة إلى الوراء؛ فقد كان الرجل يتحدث مع غاي باجيت.

ولئن كانت عندي أية شكوك من قبل فقد كان من شأن ذلك أن يؤكدها. أخرج باجيت ساعته من جيبه ونظر إليها، وتبادلا بعض الكلمات المختصرة ثم دار السكرتير بسرعة وتوجه نحو المحطة. واضح أنه أعطى أوامره، ولكن ماذا كانت؟

وفجأة قفز قلبي من الخوف، فقد عبر الرجل الذي تبغني إلى وسط الشارع وتكلم مع الشرطي. تكلم معه مطولاً وكان يشير بيده نحو مطعم كارترايت، وواضح أنه كان يشرح له شيئاً. فهمت الخطة على الفور؛ كانوا يريدون من الشرطة اعتقالي بتهمة أو بأخرى... ربما بتهمة النشل. كان سهلاً على العصابة أن تقوم بمثل هذا العمل البسيط، وماذا يتبع التأكيد على براءتي؟ لا شك أنهم سيكفونون قد رتبوا جميع التفاصيل، وقبل وقت طويل لفقوا تهمة عن سرقة شركة دي بيرس ضد هاري رايرن وفشل في نفيها. ما هي الفرصة التي عندي للنجاة من مكيدة كهذه يدبرها «الكولونيل»؟

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وعلى الفور خطر لي مظهر آخر من مظاهر القضية؛ وفهمت مغزى نظر غاي باجيت إلى ساعته. كانت الساعة الحادية عشرة، وفي هذه الساعة يغادر قطار البريد إلى روديسيا يحمل معه الأصدقاء المتفذين الذين ربما كانوا سيهبون

لم تقل سوزان شيئاً، لكنني رأيت في عينيها مئة سؤال.
قلت بأسلوب رسمي: يجب أن أبلغ رئيسي بحضوري. أين هو؟
- إنه في المكتب... في المقصورة الوسطى... يملي على الأنسة
بيتيغرو البائسة عدداً لا يصدق من الرسائل.

علقتُ قائلة: إن هذه الحماسة للعمل تُعدّ شيئاً جديداً.
قال الكولونيل رايس: أعتقد أن فكرته هي إعطاؤها عملاً يكفي
لحجزها مع آلة الطباعة في مقصورتها بقية اليوم.

ضحكت. ثم ذهبتُ أبحث عن السير يوستيس وكان الاثنان
الأخيران يتعانني. كان يجوب المقصورة ذهاباً وإياباً في مساحة ضيقة
ويلقي بسيل من الكلمات على السكرتيرة البائسة التي أراها الآن لأول
مرة. كانت امرأة طويلة وقوية الجسم تلبس ثوباً نوبياً نبيهاً ونظارة وتبدو
عليها ملامح الاقتدار. أدركت أنها كانت تجد صعوبة في متابعة السير
يوستيس لأن قلم الرصاص الذي كان معها كان يطير من السرعة وكانت
تعبس عبوساً شديداً.

دخلت المقصورة وقلت: لقد صعدت القطار يا سيدي.

وقف السير يوستيس في وسط الجملة المعقدة التي كان يمليها
حول وضع سوق العمل وحدق إلي. لا بد أن الأنسة بيتيغرو كانت من
النوع العصبي رغم ملامح الاقتدار عليها، فقد جفلت وكان رصاصة
أطلقت عليها.

صاح بانفعال: 'كيف وصلتِ إلى هنا؟!'. ثم سعلت الأنسة بيتيغرو
فسحب يده بسرعة وقال: آه، نعم. إلى أين وصلنا؟ نعم... إن تيلمان

كنت قد دخلت محطة القطارات من البوابة الرئيسة في شارع
أدرلي، أما الآن فقد خرجت ثانية من مخرج جانبي، وكان أمامي
مباشرة المدخل الجانبي لمكتب البريد حيث بوابته الرئيسة تطل على
شارع أدرلي.

وكما توقعت، فإن متابعي كان قد خرج إلى الشارع ليقطع علي
الطريق عندما أخرج بدلاً من أن يتبعني إلى الداخل، أو لكي يطلب من
رجل الشرطة اعتقالي. وعلى الفور نسلت وعبرت الشارع ثانية وعدت
إلى المحطة. كنت أركض كالمجنونة، وكانت الساعة الحادية عشرة
تماماً. كان القطار الطويل يتحرك عندما ظهرت على الرصيف، وحاول
أحد الحمالين وقفي، لكنني تخلصت من قبضته وففزت على موطن
العربة. وصعدت الدرجتين وفتحت الباب. لقد أصبحت آمنة؛ فالقطار
كان يتحرك بعيداً

مر القطار أمام رجل يقف وحيداً عند طرف الرصيف، ولوحت
له يدي قائلة: "وداعاً يا سيد باجيت". لم أر في حياتي رجلاً يصاب
بالذهول مثله؛ كان يبدو وكأنه قد رأى شيئاً.

وبعد قليل كنت أواجه المتاعب مع مفتش التذاكر، لكنني تكلمت
معه بنبرة متشامخة. قلت بغطرسة: أنا سكرتيرة السير يوستيس بيدلار؛
أرجو أن تأخذني إلى عربته الخاصة.

كانت سوزان تغف مع الكولونيل رايس على المنصة الخلفية
للقطار، وعندما رأي الأثنان صاحباً بدهشة.

صاح الكولونيل رايس: مرحباً آنسة آن، من أين جئت؟ ظننت
أنك ذهبت إلى دربان. يا لك من شخص غير متوقع!

روس في خطابه في... ما الأمر؟ لماذا لا تكتنين هذا؟

قال الكولونيل رايس بلطف: أحسب أن الأنسة بيتيغرو قد كسرت قلمها.

أخذته منها وبراه، وحدق السير يوستيس وكذلك أنا. كان في نبرة الكولونيل رايس شيء لم أفهمه تماماً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

(من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

إنني أميل إلى التخلي عن يومياتي، وبدلاً من ذلك سأكتب مقالاً قصيراً بعنوان «مصيبي مع كل سكرتيري». وبالنسبة لهذا الأمر يبدو أنني أصبت بأفة، إذ تجدني في لحظة دون أي سكرتير، ثم لا تلبث أن ترى في لحظة أخرى أن لدي الكثير منهم. وفي الوقت الحالي فإنني مسافر إلى روديسيا مع مجموعة من النساء، وبالطبع فإن رايس يخرج مع المرأتين الجميلتين ويتركني مع المرأة البلوى. هذا ما يحدث معي دائماً... وفوق ذلك فإن هذه عربتي الخاصة وليست عربية رايس.

كما أن آن بيدنغفيلد تصاحبني إلى روديسيا على أنها سكرتيرتي المؤقتة، لكنها كانت طوال عصر هذا اليوم في الخارج على المنصة الخلفية مع رايس تنظر بإعجاب إلى جمال ممر نهر هيكس. صحيح أنني أخبرتها بأن عملها الأساسي سيكون الإمساك بيدي، ولكنها لا تفعل حتى ذلك. قد تكون خائفة من الأنسة بيتيغرو، وإن كانت كذلك فلا ألومها؛ فلا شيء جذاب في الأنسة بيتيغرو... إنها امرأة متفردة بقدمين كبيرتين تشبه الرجل أكثر من المرأة.

المنعطفات، وعندما يكون الجبل في خلفية الصورة سيبدو المنظر خطيراً للغاية.

أوضحتُ لها بأن أحداً لا يمكن أن يعرف بأنها أخذت من مؤخرة القطار، فنظرت مشفقة وقالت: سوف أكتب أسفلها "أخذت من القطار وهو يدور حول المنعطف".

قلت: يمكنك أن تكتبي هذا تحت أية صورة لقطار.

إن النساء لا يفكرن أبداً بهذه الأمور البسيطة!

صاحت أن بيدنغفيلد: إنني مسرورة لأننا مررنا من هنا في وضع النهار. ما كنت سأرى هذا المنظر لو أنني ذهبت ليلة الأس إلى دربان، أليس كذلك؟

قال الكولونيل رايس مبتسماً: نعم، كنت ستستيقظين من نومك صباح الغد لتجدي نفسك في صحراء كارو، وهي صحراء حارة مُعبّرة كلها حجارة وصخور.

قالت آن وهي تنهت وتنظر حولها مسرورة: إنني سعيدة لأنني غيرت رأيي.

كان منظرًا رائعاً. الجبال الشاهقة حولنا، ونحن نلف وندور حولها ونصعد إلى أعلى الجبل بثبات. وسألت أن بيدنغفيلد: أهذا أفضل قطار يذهب إلى روديسيا في النهار؟

ضحك رايس وقال: في النهار؟ يا عزيزتي، توجد ثلاثة قطارات في الأسبوع فقط؛ أيام السبت والاثنين والأربعاء. أتعلمين أنك لن تصلي إلى الشلالات إلا يوم السبت القادم؟

يوجد شيء غامض في آن بيدنغفيلد. كانت قد قفزت إلى داخل القطار في آخر دقيقة وهي تنفخ لاهته كأنها محرك بخاري، وكأنها كانت تعدو في سباق... ومع ذلك فقد أخبرني باجيت بأنه ودعها إلى دربان الليلة الماضية! إما أن باجيت عاد للشرب ثانية أو أن للفئة جسداً يتناسخ.

كما أنها لا تشرح شيئاً أبداً... لا أحد يشرح شيئاً. نعم: «مصيتي مع كل سكرتير». رقم ١ قاتل هارب من العدالة، ورقم ٢ شارب خمر غامض يقوم بدساتس مشبته في إيطاليا، ورقم ٣ فتاة جميلة تمتلك موهبة مفيدة في القدرة على الحضور في مكانين في آن واحد، ورقم ٤ الأنسة بيتيغرو التي لا أشك أنها محتالة خطيرة متخفية! قد تكون واحدة من صديقات باجيت الإيطاليات فرضها عليّ. لن أتعجب إذا ما وجد الناس كلهم أن باجيت قد خدعهم جميعاً! وبصورة عامة أعتقد بأن رايرن كان أفضل المجموعة؛ فهو لم يكن يزعجني أبداً أو يريني وجهه. لقد كان لباجيت من الوقاحة ما جعله يضع صندوق القراطسية هنا، ولا أحد منا يستطيع الحركة دون أن يتعرقل به.

خرجت إلى منصة القطار الخلفية متوقفاً أن يتلقاني أولئك الواقفون عليها بعبارات الترحيب، وكانت المرأتان تصفيان مفتونتين لإحدى الحكايات عن أسفار رايس. لن أسمى هذه العربة عربة «السير يوستيس بيدلار ومجموعته» بل عربة «الكولونيل رايس وحريره».

ثم لا بد أن تأخذ السيدة بليز صوراً سخيفة. كانت تلتقط صوراً للقطار كلما انعطفتنا عند منحني مرعب ونحن ترتفع أعلى وأعلى. صاحت مبتهجة: هل تدركون المغزى؟ إن كنت تريد تصوير الجزء الأمامي من القطار وأنت في المؤخرة فيجب أن يكون ذلك عند أحد

لماذا يحرص راييس كل هذا الحرص على ذهابي الى جوهانسبرغ؟
أظن أن عينه على أن. قلت: ما هي خططك يا أنسة أن؟

أجابت: هذا يعتمد.

عارضتها: كنت أحسبك سكرتيرتي.

- آه، ولكن تم استعادي. لقد كنت تمسك يد الأنسة بينغرو
طوال العصر.

طمأنتها قائلاً: بوسعك القول إنني كنت أفعل أي شيء إلا هذا.

* * *

الخميس ليلاً:

لقد غادرنا كيمبرلي لنونا، وقد طُلب من راييس أن يحكي قصة
سرقة الألباس مرة أخرى. لماذا تشعر النساء بإثارة لذكر أي شيء له
علاقة بالألباس؟

لقد كشفت أن بيدنغفيلد عن لغزها أخيراً. يبدو أنها مراسلة
لصحيفة؟ فقد أرسلت برفقة كبيرة هذا الصباح من دي آر. وإذا كان لي
أن أحكم من خلال الثروة التي جرت في مقصورة السيدة بليز طول الليل
تقريباً فلا بد أنها كانت تقرأ بصوت مرتفع جميع المقالات الخاصة التي
ستنشرها لسنوات قادمة.

يبدو أنها كانت تتعقب من البداية آثار «الرجل ذي البذلة البنية»،
وواضح أنها لم تعرفه على الباخرة كيلموردن (وفي الواقع لم تتح لها
الفرصة)، وهي الآن مشغولة جداً في إرسال البرقيات إلى الوطن: «كيف

قالت السيدة بليز بيخيت: عندها سيكون قد عرف بعضنا بعضاً
معرفة جيدة. كم يوماً ستبقى في منطقة الشلالات يا سير يوستيس؟

قلت بحذر: هذا يعتمد؟

- على ماذا؟

- على كيفية سير الأمور في جوهانسبرغ. كانت فكرتي الأولى
الإقامة لمدة يومين في الشلالات التي لم أرها من قبل، رغم أن هذه
هي زيارتي الثالثة إلى أفريقيا... ثم أذهب إلى جوهانسبرغ لأدرس وضع
الأمور في الراند. إنني في إنكلترا أعدّ مرجعاً في سياسة جنوب أفريقيا،
ولكن - من كل الذي سمعته - فإن جوهانسبرغ بالتحديد ستكون مكاناً
غير صالح للزيارة بعد نحو أسبوع. لا أريد دراسة الأوضاع وسط ثورة
عاصفة.

ابتسم راييس بشيء من التعالي وقال: أظن أنك تبالغ في مخاوفك
يا سير يوستيس؟ فلن يكون في جوهانسبرغ أي خطر كبير.

نظرت المرأتان فوراً إليه بإعجاب كأنه بطل مظفر. وقد ضابقتي ذلك
كثيراً؛ فأنا لا أقل بطولته عن راييس... ولكن يتقصني الجسم المناسب.
إن هؤلاء الرجال الطوال الناحلين ذوي البشرة المسفوعة يحصلون على
كل شيء كما يريدون! قلت بيروود: أظنك ستكون هناك.

- محتمل جداً... قد نسافر معاً.

أجبت مبتعداً عن أي التزام: لست متأكداً من أنني لن أمكث في
الشلالات طويلاً.

على أية حال فإن آن بيدنغفيلد تتعقبه، وهي تريد مجد اكتشافه لنفسها ولصحيفة الديلي بدجيت. إن الفتيات هادئات الأعصاب كثيراً هذه الأيام. ألمحتُ لها بأن ذلك عمل يتنافى مع طبيعة المرأة فضحكت مني وطمأنتني بأن قدرها أن تبقى تطارده، ومع ذلك كنت أستطيع أن أرى بأن رايس لم يحب ذلك هو الآخر. قد يكون رايرن في هذا الفطار، وإن كان كذلك فربما يقتلنا جميعاً ونحن في أسرتنا. ذكرت هذا للسيدة بلير، ولكن بدا أنها ترحب بالفكرة، وقالت بأنني إن قُلت فسيكون هذا عنواناً مثيراً تستفيد منه أن! ها، عنوان مثير لأن!

سنسير غداً خلال منطقة ييشوانالاند وسيكون الغبار مروعاً، كما أن الصبية الصغار سيأتون إلى كل محطة لبيعوك تماثيل خشبية لحيوانات صنعوها بأنفسهم، وأيضاً عرائيس الذرة والسلال. أخشى أن تندفع السيدة بلير إلى الشارع كالمجنونة؛ ففي تلك اللعب سحرٌ طبيعي أشعر بأنه سيعجها.

* * *

مساء الجمعة:

كما كنت أخشى؛ لقد اشترت السيدة بلير وأن تسعة وأربعين تمثالاً خشبياً لحيوانات!

* * *

خرجت في رحلة مع القاتل"، وتخترع قصصاً خيالية من طراز: "ماذا قال لي"، إلخ. (أنا أعرف كيف يتم عمل هذه الأشياء؛ فأنا سأفعلها بنفسي في اليوميات التي سأكتبها عندما يتركني باجيت). وبالطبع سيقوم واحد من المحررين القديرين في صحيفة الديلي بدجيت بزيادة زركرة التفاصيل أكثر حتى إذا ما نُشرت فلن يعرف رايرن نفسه.

ومع ذلك فإن الفتاة ذكية. من الواضح أنها استكشفت بمفردها هوية المرأة التي قُلت في بيتي؛ وكانت ممثلة روسية تدعى نادينا. سألت آن بيدنغفيلد إن كانت متأكدة من هذا، وردت عليّ بأن هذا مجرد استنتاج... على طريقة شيرلوك هولمز تماماً (ومع ذلك أعتمد أنها نُقلت للصحيفة في بريطانيا على أنها حقيقة ثابتة!). إن النساء يملكن مثل هذا النوع من الحدس... لا أشك في أن آن بيدنغفيلد مصيبة تماماً في تخمينها، ولكن من السخافة أن تسمي ذلك استنتاجاً.

لا أستطيع أن أتخيل كيف وصلت حتى أصبحت ضمن هيئة تحرير صحيفة الديلي بدجيت، ولكنها شابة من النوع الذي يستطيع فعل مثل هذه الأمور. من المستحيل مقاومتها؛ فهي مليئة بالأساليب المتملقة التي تخفي تحتها عزيمة لا تقهر. انظر كيف دخلت إلى عربيّ الخاصة!

بدأت أفهم السبب. لقد قال رايس شيئاً عن ارتياب الشرطة بأن رايرن قد ذهب إلى روديسيا، وربما ذهب إلى هناك بقطار الإثنين. أظن أنهم أرسلوا برقيات إلى جميع المحطات ولم يعثروا على أحدٍ بصفاته، لكن هذا لا يعني الكثير. إنه شاب داهية ويعرف أقربيا، وربما كان متخفياً بطريقة متقنة بهيئة خادمة عجوز... بينما كان الشرطة الساذجون يواصلون بحثهم عن شاب وسيم في وجهه أثر جرح يلبس ملابس أوروبية. لم أستوعب موضوع أثر الجرح هذا على الإطلاق.

إن قطارات جنوب أفريقيا لا تصفر أو ترمجر عندما تريد التحرك ثانية، بل إن القطار ينسلّ مبتعداً بهدوء وترفع بصرك وأنت تشتري ثم تركض للحاق به.

يمكنني تخيل ذهول سوزان عندما رأتي أنسلق القطار في كيب تاون. وقد أجرينا دراسة موسعة للوضع في الليلة الأولى لسفرنا، وتحدثنا نصف الليل.

لقد أصبح واضحاً لي ضرورة القيام ببعض التكتيكات الدفاعية بالإضافة إلى الهجومية؛ فقد كنت آمنة تماماً وأنا مسافرة مع السير يوستيس بيدلار وجماعته. كان هو والكولونيل رايس حاميين قويين، وقد رأيت أن أعدائي لن يرغبوا في إثارة عش زنابير كهذا. كما أنني كنت على صلة بغاي باجيت إلى حد ما، ما دمت قريبة من السير يوستيس... وكان غاي باجيت هو قلب اللغز. سألت سوزان إن كانت ترى بأن باجيت يمكن أن يكون هو «الكولونيل الغامض». إن موقعه كسكرتير تابع كان -بالطبع- عكس هذا الافتراض، ولكني رأيت مرة أو مرتين أن السير يوستيس -رغم كل أساليبه الاستبدادية- كان متأثراً كثيراً بسكرتيره. كان السير يوستيس رجلاً طبعاً بإمكان سكرتير حاذق أن يديره كيف يشاء، وقد يكون الغموض النسبي لوضعه مفيداً له في الحقيقة لأنه سيكون حريصاً على البقاء بعيداً عن الأضواء.

لأن سوزان نفت هذه الأفكار نفياً قوياً. رفضت الاعتقاد بأن غاي باجيت هو العقل المدبر، وقالت إن الرأس الحقيقي... «الكولونيل»، كان رجلاً في مكان ما خلف الأضواء، بل وربما كان أصلاً في أفريقيا قبل وصولنا.

وافقتنا على وجود الكثير مما يؤيد وجهة نظرها، ولكنني لم أكن

الفصل الثالث والعشرون

(أن تتابع روايتها)

استمتعت كثيراً بالرحلة إلى روديسيا. كنت أرى كل يوم شيئاً جديداً ومثيراً: المنظر الرائع لوادي نهر هيكس، ثم عظمة صحراء كارو المقفرة، وأخيراً ذلك الخط الراجع الممتد في يشوانالاند، وتلك اللعب الفاتنة التي يبيعها المواطنون. كنت مع سوزان نتخلف عند كل محطة متواضعة يتوقف فيها القطار، وفي كل مرة كان القطار على وشك التحرك من دوننا. كان يبدو لي أن القطار كان يتوقف متى شاء، وحالما يتوقف كانت مجاميع المواطنين تكمدس عند المحطة الخاوية وهم يحملون معهم عرائيس الذرة وقصب السكر وعباءات القراء وتمائيل حيوانات خشبية جميلة. بدأت سوزان على الفور في تجميع عدد من هذه الأخيرة، وسرت على منوالها... ومعظمها كانت قيمته «تيكي» (ثلاثة بنسات) وكان كل واحد مختلفاً عن الآخر؛ فمئتها تمائيل ليزرافات ولنمور وأفاع وحيوان العنلد الكتيب وأشكال سخيفة أخرى لمحاربين سود. لقد استمتعنا أيما استمتاع.

حاول السير يوستيس أن يمتعنا... ولكن عبثاً. ما زلت أحسب أنها كانت معجزة أن القطار لم يتركنا عند إحدى المحطات على الخط.

- لقد كانت له تفسيراته الخاصة لكل شيء.

- ...نعم، لكنها غير مقنعة كثيراً. على سبيل المثال، الليلة التي حاول فيها إلقائي من فوق السفينة كيلموردن، إنه يقول بأنه تبع رايبيرن إلى ظهر المركب وأن رايبيرن صرعه أرضاً، ونحن نعرف أن هذا ليس صحيحاً.

قالت سوزان كارها: نعم، ولكننا سمعنا القصة كرواية غير مباشرة من السير بوستيس فقط. لو أننا سمعناها من باجيت مباشرة فربما كانت مختلفة. أنت تعرفين كيف يخطئ الناس في رواية قصة عندما يكررونها.

فكرت في هذا الأمر ملياً، ثم قلت أخيراً: لا، لا أرى له مخرجاً؛ إن باجيت مذنب. لا يمكنك أن تتجاهلي حقيقة أنه حاول إلقائي عن ظهر المركب، كما أن كل الحقائق الأخرى تتسجم مع ذلك. لماذا تصرين كثيراً على فكرتك الجديدة هذه؟

- بسبب وجهه.

- وجهه؟ ولكن...

- نعم، أعرف ماذا ستقولين. إنه وجه شرير... هذا ما يبدو، ولكن الشكل لا علاقة له بالجواهر في الحقيقة.

لم أقتنع كثيراً بجدل سوزان، وانتقلنا إلى مناقشة خططنا الفورية. كان واضحاً لي ضرورة اتخاذ موقف ما، فلا أستطيع الاستمرار في تجنب إعطاء تفسيرات إلى الأبد. إن حل جميع الصعوبات التي تواجهني موجود عندي، رغم أنني لم أفكر فيه لوقت طويل... صحيفة

مقنعة تماماً؛ ففي كل موقف مشبوه كان يظهر باجيت كممثلٍ مُدبرٍ. صحيح أن شخصيته كان ينقصها الحزم والعزم اللذان يتوقعهما المرء من زعيم مجرم، ولكن هذا الزعيم الغامض - كما قال الكولونيل رايس - لم يكن دوره يتعدى التفكير فقط، والعقلية الإبداعية ترتبط في الغالب بشخص ذي بنية ضعيفة جبانة.

قاطعتني سوزان عندما وصلتُ إلى هذه النقطة في النقاش قائلة: إن ابنة البروفسور هي التي تتكلم هنا.

قلت: "ومع ذلك فهذا صحيح". وسكتُ بعض الوقت ثم أكملت: ليتني أعرف كيف يكون السير بوستيس ثروته!

- هل تشكين فيه ثانية؟

- سوزان، إنني في وضع لا أملك فيه إلا الشك في أي شخص! أنا لا أشك به حقاً... ولكنه - في نهاية الأمر - رئيس باجيت بالفعل، وهو يملك فعلاً بيت ميل هاوس.

قالت سوزان متأملة: كنت أسمع دائماً بأنه جمع ثروته بطريقة لا يرغب كثيراً بالحديث عنها، لكن هذا لا يعني بالضرورة جريمة... قد يكون جمعها من المسامير الصغيرة أو من أدوية معالجة الصلع!

وافقتها على مضمض، فقالت بارتياح: أتحيين أننا نسير في الاتجاه الصحيح؟ أعني: ألا يمكن أن نكون قد ضللنا تماماً عندما افترضنا مشاركة باجيت في الجريمة؟ ماذا لو كان رجلاً شريفاً تماماً؟

فكرت بهذا بعض الوقت ثم هززت رأسي وقلت: لا أستطيع تصديق ذلك.

الدبلي بدجيت! إن صمتي أو كلامي لم يعد يؤثر على هاري رايرن؛ فلقد وُصم بأنه «الرجل ذو البدلة البنية»، ولم يكن ذلك خطئي أنا. أستطيع مساعدته بطريقة أفضل عن طريق النظاره بأني ضده. يجب أن لا يكون عند «الكولونيل» وعصابته أي اشتباه بوجود أي مشاعر من الود بيني وبين الرجل الذي اختاروا جعله كيش فداء لجريمة القتل التي حدثت في مارلو، وحسب معرفتي فإن المرأة التي قُتلت هناك ما زالت مجهولة الهوية، وسوف أبقى للورد ناسبي وأخبره بأنها ليست سوى الممثلة الروسية المشهورة «نادينا» التي كانت تمتع باريس بفنها منذ وقت طويل. لم أكن أصدق أنهم لم يتعرفوا إلى جيشها إلى الآن، ولكن عندما علمت أكثر عن القضية - بعد ذلك بوقت طويل - أدركت كم كان الأمر طبيعياً.

لم تذهب نادينا إلى إنكلترا أبداً أثناء حياتها المهنية الناجحة في باريس. كانت غير معروفة لدى الجمهور الإنكليزي في لندن، وكانت الصور التي نشرتها الصحف عن ضحية مارلو غير واضحة ولا يمكن التعرف على صاحبها، ولذلك لا عجب إن لم يكن قد تعرف عليها أحد. ومن ناحية أخرى فقد أبقَت نادينا نيتها في زيارة إنكلترا سراً دفيناً ولم تخبر أحداً به، وقد استلم مدير أعمالها رسالة في اليوم التالي للجريمة تبدو كأنها منها تقول فيها بأنها ستعود إلى روسيا بسبب بعض الشؤون الخاصة وأنه يجب أن يعالج موضوع مخالفة العقود بأفضل ما يستطيع.

وأنا لم أعلم بهذا كله طبعاً إلا فيما بعد، ومع استحسان سوزان لهذه الفكرة أرسلتُ برقية طويلة من دي آر، وقد وصلت في لحظة سيكولوجية حاسمة (وهذا أيضاً علمته بالطبع فيما بعد). كانت الدبلي بدجيت في حاجة ماسة إلى أبناء مثيره، وقد تم التأكد من تخميني

فثبتت صحته، وأحرزت الدبلي بدجيت قصب سبق لا يحدث إلا نادراً. ضحية بيت ميل هاوس تم التعرف عليها بواسطة مراسلتنا الخاصة... "مراسلتنا تسافر مع القاتل؛ الرجل ذي البدلة البنية"...

وكانت الحقائق الأساسية قد أُرسِلت بالطبع إلى صحف جنوب أفريقيا، لكنني قرأت مقالتي المطولة في وقت متأخر! وقد تلقيت استحساناً وتعليمات كاملة عن طريق برقية في بولاوايو. لقد عُيِّنْتُ في هيئة تحرير الدبلي بدجيت، وقد أرسل إليّ اللورد ناسبي تهنئة خاصة. وقد أُسْتُد إليّ الفضل في تعقب القاتل، فيما كنتُ أنا (وأنا وحدي) أعلم بأن القاتل لم يكن هاري رايرن! ولكن دع العالم يعتقد أنه هو... لأن هذا أفضل شيء في الوقت الحالي.

* * *

كانت حصتها حمل فرس نهر كبير ومحاربين أسودين. لدي إحساس بأن الأنسة يتيغرو لا تحبني؛ ربما رأيت في فتاة وقحة. على أية حال فقد كانت تتجنبني قدر استطاعتها، والغريب أن وجهها كان يبدو لي مألوفاً على نحو غامض، رغم أنني لم أستطع تحديده.

أرحنا أنفسنا معظم الصباح، واعتزنا أن نخرج بعد الظهر بالسيارة إلى ماتوبوس لرؤية قبر روديس، ولكن السير يوستيس غير رأيه. كان مزاجه سيئاً جداً (كحاله في صباح اليوم الذي وصلنا فيه إلى كيب تاون عندما ألقى بحبة الخوخ على الأرض فاتهرست)! واضح أن الوصول إلى أي مكان في وقت مبكر من الصباح يعكر مزاجه، وقد سبب الحماليين، وسبب التادل وقت الإفطار، وسبب كل إدارة الفندق، ولا شك أنه كان يرغب بسبب الأنسة يتيغرو التي كانت تحوم في المكان حاملة قلمها ودفتر ملاحظاتها، ولكني لا أحسب أن بوسع أحد (حتى السير يوستيس) أن يجرؤ على شتم الأنسة يتيغرو؛ فهي تماماً مثل أولئك السكرتيرات القديرات في الروايات. وقد أنقذت زرافتنا العزيرة في الوقت المناسب؛ إذ شعرت بأن السير يوستيس يوشك على تحطيمها على الأرض.

وعودة إلى حملتنا، فبعد أن غير السير يوستيس رأيه قالت الأنسة يتيغرو إنها ستبقى في البيت خشية أن يحتاجها، وفي الدقيقة الأخيرة أرسلت سوزان رسالة تقول فيها إنها تعاني من الصداع. وهكذا ذهبت أنا والكولونيل رايس في السيارة وحدنا.

إنه رجل غريب. لا يلاحظ المرء ذلك عندما يكون في مجموعة، ولكن عندما يكون المرء معه وحده يشعر بقوة شخصيته المسيطرة. إنه يصبح أكثر تكتماً، ومع ذلك يبدو أن صمته يقول أكثر مما يمكن أن يقول كلامه.

الفصل الرابع والعشرون

وصلنا إلى بولاوايو في وقت مبكر من صباح يوم السبت، وقد خيب المكان آمالي. كان حاراً جداً وكرمت الفندق، كما أن السير يوستيس بدا هو الآخر شديد التجهم والتكد. وأحسب أن ما أزعجه هو حيواناتنا الخشبية، وخصوصاً الزرافة الكبيرة. كانت زرافة ضخمة ذات رقبة شديدة الطول وعين زائغة وذيل قصير واهن... كانت ذات شكل مميز، وكان لها سحرها، وقد وقع نزاع بخصوص من مناهي صاحبها: أنا أم سوزان؛ فكل واحدة منا ساهمت بجزء من ثمنها. وقد جادلث سوزان بأنها الأكبر سنّاً وأنها متزوجة، أما أنا فقد تمسكت بموقفي بأنني كنتُ أول من لاحظ جمال الزرافة.

في غضون ذلك يجب أن أعترف بأن هذه التماثيل قد احتلت مساحة كبيرة من مقصورتنا. إن حمل تسعة وأربعين حيواناً خشبياً بأشكالها الغريبة والكبيرة وهي مصنوعة من الخشب الهش يُعدُّ مشكلة إلى حد ما، وقد أثقلنا اثنين من الحماليين حمل كل منهما كومة من هذه التماثيل، وأسقط أحدهما على الفور مجموعة رائعة من النعام فكسر رؤوسها. ويعد هذا التحذير، قمتُ مع سوزان بحمل ما نستطيعه منها وساعدنا في ذلك الكولونيل رايس، ووضعتُ الزرافة الكبيرة بين ذراعي السير يوستيس. وحتى الأنسة يتيغرو المنضبطة لم تغلب من ذلك، حيث

- تختلف الآراء يا آنسة آن حول تعريف «المخلوقات الضعيفة».

كان في صوته نبرة جدية كادت تجفطني. شعرت أنني لا أعرف عن هذا الرجل الجالس بجانبني إلا القليل جداً. قلت: أحسب أنني كنت أقصد الأطفال والكلاب.

- أصدقك القول بأنني لم أكن قاسياً مع الأطفال أو الكلاب أبداً. إذن فأنت لا تصنفين النساء ضمن «المخلوقات الضعيفة»؟

فكرت ثم قلت: لا، لا أظنني أصنفن كذلك... رغم أنني أظن أنهن ضعيفات بالفعل. أعني أنهن ضعيفات في أيامنا هذه، ولكن أبي كان يقول دائماً إن الرجال والنساء الأوائل كانوا يطوفون العالم معاً متساوين في القوة... كالأسود والنمور!

قاطعني الكولونيل رايس بخبث: والزرافات؟

ضحكت؛ فقد كان الجميع يسخرون من تلك الزرافة. قلت: والزرافات أيضاً!

- وهل ما يُقال صحيح؟ أقصد أن النساء يعشقن القوة؟

- أحسب صحيحاً تماماً... إذا أردت الصدق. يظن المرء أنه معجب بالصفات المعنوية، ولكن عندما يقع في الحب فإنه يرتد إلى البدائية حيث القوة الجسدية هي أهم شيء. ولكني لا أؤمن بأن هذه هي النهاية. إن كنت تعيش في ظروف بدائية فإن هذا صحيح، لكنك لا تعيش في هذه الظروف... وهكذا فإن الصفات الخلقية، وليس الخلقية، هي التي تنتصر في النهاية.

قال الكولونيل رايس متأملاً: في النهاية تقعين في الحب... وتخرجين منه، هل هذا ما تقصدينه؟

كان هذا ما حدث عندما توجهنا بالسيارة إلى ماتويوس عبر شجيرات الغابات ذات الألوان الصفراء والخضراء. بدا كل شيء صامتاً على نحو غريب... ما عدا سيارتنا، التي أحسب أنها أول سيارة فورد صنعها إنسان! كان فرشها ممزقاً على شكل شرائط، ورغم أنني لا أعرف شيئاً عن المحركات إلا أنني أستطيع أن أحمن بأن محركها لم يكن أحسن حالاً من فرشها.

وشيناً فشيناً أخذ شكل الطبيعة حولنا يتغير؛ ظهرت صخور كبيرة وقد تجمعت على هيئة أشكال غريبة، وأحسست فجأة بأنني دخلت في عصر بدائي. بدا لي للحظة أن رجال نياندرتال حقيقيون بالنسبة لي كما كانوا بالنسبة لأبي.

التفت إلي الكولونيل رايس وقلت حالمة: لا بد أنه كان يعيش عمالقة ذات يوم، وأطفالهم كانوا كأطفال اليوم... يلعبون بالحصى ويكومونها ثم يفككونها، وكلما استطاعوا الإبقاء عليها متوازنة كلما شعروا بالسرور أكثر. ولو كان لي أن أطلق على هذا المكان اسماً لأسميته «بلد الأطفال العمالقة».

قال الكولونيل رايس بهدوء: ربما كنت أقرب إلى الصواب مما تدركين، فما يميز أفريقيا هو كونها بسيطة وبدائية وكبيرة.

أومات برأسي باستحسان وقلت: أنت تحبها، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن العيش فيها فترة طويلة يجعل الإنسان قاسياً؛ تصبح نظرة المرء إلى الحياة والموت نظرة استخفاف.

قلت وأنا أفكر في هاري رايرن الذي كان أيضاً كذلك: نعم، ولكن أصبح المرء قاسياً مع المخلوقات الضعيفة؟

قال فجأة: ما الذي فعلته هنا يا آنسة بيدنغفيلد؟

- أنا عجيبة تشاهد العالم.

- نعم، هذا صحيح. إن مراسلة الصحيفة هي مجرد غطاء. ليست فيك روح الصحيفة؛ أنت خرجت على مسؤوليتك الخاصة... وتحاولين الإمساك بالحياة. لكن هذا ليس كل شيء.

ما الذي يحاول حملي على إخباره؟ كنت خائفة... خائفة. نظرت إلى وجهه مباشرة. عيناها لا يمكنهما إخفاء الأسرار مثل عينيه، لكنهما تستطيعان نقل الحرب إلى أرض العدو.

سألته عامدة: ما الذي فعله أنت هنا يا كولونيل رايس؟

ظننتُ لبعض الوقت أنه لن يرده علي، وبدا واضحاً أنه فوجئ بسؤالي. وفي نهاية الأمر تكلم، وبدا أن كلماته تعطيه شيئاً من السرور المتجهم: ألاحق الطموح... هذا فقط، ألاحق الطموح!

قلت ببطء: يقولون إنك في الحقيقة مرتبط مع الحكومة... وأنت في المخابرات. هل هذا صحيح؟

هل كنت متوهمة أم أنه تردد لحظة بسيطة قبل أن يجيبني؟

- أؤكد لك - يا آنسة بيدنغفيلد - بأنني هنا بصفتي الفردية المحضة كشخص يسافر لإمتاع نفسه فقط.

وعندما فكرتُ ملياً في هذا الرد لاحقاً رأيت أنه رد غامض بعض الشيء، ولعله قصد أن يكون هكذا.

عدنا إلى السيارة بصمت، وركبنا وانطلقنا وكلُّ منا غارق في

- ليس تماماً، ولكنك نستطيع وضع الأمر على هذا النحو إن شئت.

- لكنني لا أعتقد أنك قد خرجت من الحب يا آنسة آن؟

اعترفت صراحة: نعم، لم أخرج.

- ولا حتى وقعت في الحب؟

لم أجه. وتوقفت السيارة عند وجهتنا المقصودة وانتهى الحديث عند ذلك. خرجنا وبدأنا الصعود البطيء لرؤية العالم. شعرت بقليل من عدم الارتياح من صحبة الكولونيل رايس، ولم تكن هذه هي المرة الأولى. لقد أخفي أفكاره جيداً وراء عينيه السوداوين اللتين لا يخترقهما شيء. أخافني قليلاً... كان دائماً يخيفني؛ فلم أعرف أبداً موطن قديمي معه.

تسلقنا بصمت إلى أن وصلنا إلى المكان الذي يرقد فيه روديس تحرسه صخور عملاقة؛ مكان غريب مخيف بعيد عن أعين الناس يُشيد -دون توقف- أنشودة الجمال القاسي.

جلسنا هناك صامتين لبعض الوقت، ثم نزلنا مرة أخرى، لكننا اتحرفنا قليلاً عن الطريق. كانت الأرض أحياناً وعرة وقد وصلنا مرة إلى منحدر شديد أو صخرة كانت حادة الانحدار.

ذهب الكولونيل رايس أولاً ثم التفت ليساعدني وقال فجأة: "من الأفضل أن أرفعك"، ثم حملني بحركة سريعة من يده. وأحسست بقوته عندما أنزلني وأبعد قبضته عني؛ رجل حديدي بعضلات صلبة. ومرة أخرى أحسست بالخوف، وخصوصاً لأنه لم يتحرك جانباً لكنه وقف أمامي مباشرة يحدق إلى وجهي.

إلى سوزان مباشرة، وكانت مستلقية على السرير تقرأ ولم تكن تبدو وكأنها مصابة بالصداع على الإطلاق قالت: هنا ترقد المتطفلة الزائدة التي لا يريد لها أحد، والتي كانت سابقاً مرافقة لبقعة... ماذا حدث يا عزيزتي أن؟

أحسست بأن من غير الإنصاف أن أخبرها عن الكولونيل رايس، ولكن سوزان حادة الذكاء، وأحسب أنها أدركت وجود شيء في الأمر. وقد سألتني: هل أصبت بنزلة برد يا أن؟ يبدو من السخف قول هذا في هذا الجو الحار، ولكنك ترنجفين.

- لا شيء. أعصاب... أو أنني أشعر بالخوف. ما زلت أشعر أن شيئاً مخيفاً سيحدث.

قالت سوزان بحزم: لا تكوني سخيفة. دعينا نتحدث عن شيء مشوق. أن، بخصوص أحجار الألماس تلك...

- ماذا بها؟

- لست متأكدة أنها في أمان معي. لم يكن في ذلك بأس في السابق، فما كان أحد ليحسب أنها بين أغراضني، ولكن الجميع يعرفون الآن أننا صديقتان، ولذلك فساكون موضع اشتباه أنا الأخرى.

- لا أحد يعلم أنها في بكرات الأفلام. إنه مكان رائع لإخفائها فيه، ولا أظننا سنجد مكاناً أفضل.

واقفتني بارتياب، ولكنها قالت بأننا سنناقش هذا ثانية عندما نصل إلى الشلالات.

أفكاره. وفجأة، ولشدة دهشتي: أمسك بيدي وقال بلطف: أن، أنا أريدك. هل تتزوجيني؟

ذهلت تماماً، ثم قلت متذممة: آه، لا، لا أستطيع.

- ولم لا؟

- إنني لا أهتم بك من هنا الجانب؛ لم أفكر بك أبداً بهذه الطريقة.

- فهمت. هل هذا هو السبب الوحيد؟

كان عليّ أن أكون صادقة: بهذا حقاً له علي، ولذلك قلت: لا، ليس السبب الوحيد. إنني... إنني... أهتم بشخص آخر.

قال ثانية: فهمت. وهل كان هذا صحيحاً في البداية؛ عندما رأيتك أول مرة في السفينة كيلموردن؟

- لا. حدث ذلك... بعدها.

- فهمت.

قالها للمرة الثالثة، ولكن في هذه المرة كان في صوته رنة متعمدة جعلتني التفت وأنظر إليه. كان وجهه أكثر تجهماً من أية مرة رأيته فيها. قلت متلعثمة: ماذا... ماذا تعني؟

نظر إليّ نظرة مسيطرة لا يُسبر غورها ثم قال: فقط... أعرف الآن ما يتوجب عليّ عمله.

جعلتني كلماته أرتعد. كان وراءها عزم لم أفهمه، وقد أخافني ذلك. ولم يقل أحدنا أي كلمة أخرى إلى أن وصلنا إلى الفندق. ذهبت

الشلالات هناك على بعد نصف ميل أمامنا، ولم أر في حياتي أي شيء
بمثل هذه العظمة وهذا الجمال... ولئن أراه أبداً.

قالت سوزان عندما جلسنا لتناول الغداء: آن، إنك مخبولة! لم
أرك على هذه الحالة من قبل أبداً.

ثم نظرت إلي نظرة استغراب، فضحكتُ وقلت: "أحقاً؟". ولكني
أحسست بأن ضحكتي لم تكن طبيعية، فأضفتُ قائلة: كل ما في الأمر
أنني أحببت المكان.

- الأمر أكثر من ذلك.

ظهر شيء من التجهم على وجهها... تجهم خشية وقلق.

نعم، لقد كنت سعيدة، ولكن كان لدي -فوق ذلك- إحساس
غريب بأنني أنتظر شيئاً... شيئاً كان سيحدث عما قريب. كنت متفلسة
ورقلقة.

بعد أن شربنا الشاي خرجنا نتمشى ثم ركبتا عربة يدفعها رجال
سود مبتسمون على سكة القطار نزولاً باتجاه الجسر. كان منظرًا رائعاً؛
الهوة الكبيرة أمامنا والماء المندفِع في الأسفل، وغلالة الضباب من رذاذ
الماء التي كانت تفرج من وقت لآخر لمدة قصيرة ليظهر شلال الماء
ثم تعود لتتغلَق ثانية كلغز غامض. كان ذلك بالنسبة لي هو مكنن سحر
الشلالات؛ طبيعتها الغامضة التي لا تُسَلِّم نفسها للحواس. تعتقد دائماً
بأنك ستري... ولكنك لا ترى أبداً.

عبرنا الجسر ومشيئنا ببطء على جانب الممر الذي كان محدداً
بأحجار بيضاء على الجانبين ويلتف حول حافة الممر الضيق، وفي

رحل قطارنا في الساعة التاسعة. كان مزاج السير يوستيس ما زال
سيئاً، وبدت الأنسة بيتغرو أكثر خضوعاً. وكان الكولونيل رايس كما
هو تماماً، بحيث أحسست بأنني كنت أحلم بكل ذلك الحديث الذي
دار بيننا في طريق العودة.

نمت نوماً عميقاً تلك الليلة على سريري القاسي أتصارع مع
الأحلام المخيفة والغامضة. ثم استيقظت وأنا أشعر بصداع، وخرجت
إلى المنصة الخلفية للعبارة. كان الجو منعشاً وجميلاً، وكانت الغابات
المتنوعة تكسو التلال في كل مكان. أحببت ذلك المكان... أحبته أكثر
من أي مكان رأيته من قبل. تمنيت وقتها أن أتمكن من شراء كوخ صغير
وسط الأشجار لأعيش فيه دائماً... دائماً.

وقبل الساعة الثانية والنصف ناداني الكولونيل رايس وأشار إلى
ضباب رقيق على شكل باقة أزهار بيضاء كان يحوم فوق منطقة مكسوة
بالأشجار، ثم قال: إنه الرذاذ المتطاير من الشلالات؛ لقد اقتربنا
منها.

كنت ما زلت غارقة بذلك الإحساس بالشوشة الحاملة الذي جاءني
بعد ليأتي القلقة. لقد انغمس في نفسي بقوة إحساساً بأنني جئت إلى
موطني... موطني! ومع ذلك لم أكن قد جئت إلى هذا المكان من قبل
أبداً. أم أنني قد جئت إليه في الأحلام؟!

انتقلنا من القطار إلى الفندق مشياً على الأقدام. كان الفندق مبني
كبيراً أبيض زُودت نوافذه كلها بالشبك للوقاية من البعوض، ولم تكن
هناك طرق ولا بيوت.

خرجنا إلى الشرفة، وما أن رأيت المشهد حتى شهقت. كانت

قبل وجبة العشاء. يبدو أن السير يوستيس قد أخذ موقف كراهية أكيدة من الكولونيل رايس، ومازحناه (أنا وسوزان) بلطف لكننا لم نحصل على نتيجة كبيرة.

بعد العشاء انسحب إلى غرفة جلوسه وسحب معه الأنسة بيتيغرو. تحدثت وسوزان مع الكولونيل رايس لبعض الوقت، ثم أعلنت وهي تتأهب بأنها ذاهبة إلى النوم، ولم أحب البقاء وحيدة معه ولذلك نهضت وذهبت لغرفتي.

ولكني كنت أكثر انفعالاً من أن أستطيع النوم. استلقيت على كرسي وسلمت نفسي للأحلام، وكنت طوال الوقت أحس بأمر يقترب شيئاً فشيئاً...

سمعت أحدهم يذق على الباب فخفت. نهضت وذهبت إلى الباب، فوجدت ولدأ أسود صغيراً يحمل رسالة قدمها لي. كانت مُعنونة إليّ بخط لا أعرفه، وأخذتها وعدت إلى الغرفة. وقفت هناك أحملها، وفي النهاية فتحتها. كانت قصيرة جداً!

"يجب أن أراك. لا أجرؤ على المجيء إلى الفندق. هلاً جئت إلى الفسحة القريبة من وادي النخيل؟ أرجوك أن تأتي إحياء لذكرى الغرفة رقم ١٧. الرجل الذي عرفته باسم هاري رايرن".

خفق قلبي إلى حد الاختناق. إذن فقد كان هنا! آه، لقد عرفت ذلك... عرفت ذلك طوال الوقت! لقد شعرت بأنه قريب مني؛ ولقد جئت إلى مخبئه دون قصد مني.

لنفت وشاحاً على رأسي ومشيت إلى الباب. يجب أن أكون حذرة؛ فهو ملاحق ويجب أن لا يراني أحد أقباله. ذهبت إلى غرفة سوزان.

النهاية وصلنا إلى فسحة كبيرة يتفرع منها -إلى اليسار منّا- طريق ينزل إلى الهوة السحيقة.

أوضح الكولونيل رايس: إنه وادي النخيل. هل تنزل، أم تترك ذلك إلى الغد؟ سيستغرق النزول بعض الوقت، والتسلق منه ممتع.

قال السير يوستيس حازماً: ستترك هذا إلى الغد.

لقد لاحظت أنه لا يجب القيام بالأعمال التي تتطلب جهداً عضلياً بالغاً. وكان يتقدمنا ونحن في طريق العودة، وفيما كنا نسير مررنا بمواطنٍ نحيلٍ يمشي بيده وخلفه امرأة تبدو وكأنها كانت تحمل كل أغراض البيت فوق رأسها!

دمدمت سوزان قائلة: عندما أحتاج الكاميرا لا تكون معي أبداً.

قال الكولونيل رايس: هذه فرصة ستكرر كثيراً يا سيدة بليز، فلا تحزني.

وصلنا مرة أخرى إلى الجسر، وواصل الكولونيل حديثه: هل نذهب إلى غابة قوس قزح؟ أم تخافون البلبل؟

صحبتنا أنا وسوزان، أما السير يوستيس فقد عاد إلى الفندق. خاب أملي في غابة قوس قزح؛ فلم يكن فيها الكثير من أقواس قزح، وقد نُقعتا بالماء نفعاً، لكننا كنا نلمح الشلالات من وقت لآخر في الجهة المقابلة لنا وأدركنا كبر حجمها. آه، أينها الشلالات، كم أحبك وسأبقى أحبك أبداً!

عدنا إلى الفندق تماماً في الوقت الذي يسمح لنا بتغيير الملابس

كان الجو أكثر ظلمة من أن أميز أحداً. كل ما استطعتُ تمييزه هو أنه رجل طويل وأوروبي وليس مواطناً أفريقياً، وأطلقتُ ساقتي للريح. سمعته يخطب الأرض بقدميه ورائي فأسرعت أكثر وأنا أركز بصري على الحجارة البيضاء التي كانت توضح لي الطريق، حيث لم يكن القمر ظاهراً في تلك الليلة.

وفجأة شعرت بقدمي بأن لا شيء تحتها. وسمعت الرجل ورائي يضحك ضحكة شريرة مخيفة ترددت أصداؤها في أذني، وأنا أسقط... نزولاً... نزولاً إلى النهاية أسفل مني بعيد.

* * *

كانت تغط في نوم عميق وكنت أسمع أصوات أنفاسها المنتظمة.

السير يوستيس؟ وقتت خارج باب غرفة جلوسه. نعم، كان يملي رسائله على الأنسة بيتيغرو، وكنت أسمع صوتها الرتيب وهي تكرر وراءه: "ولذلك أغامر في القول بأنه حتى تعالج مشكلة الأعمال العلونين...". توقفتُ حتى يتابع هو، وسمعته وهو يتفوه غاضباً بشيء.

أكملت سيرتي. كانت غرفة الكولونيل رايس فارغة ولم أره في الردهة، وكان هو الرجل الذي كنت أخشاه أكثر من الجميع! ومع ذلك، لا أستطيع أن أضيع مزيداً من الوقت. نسلت بسرعة خارج الفندق وسلكت الطريق المؤدي إلى الجسر.

عبرته ووقفت هناك أنتظر في الخفاء. إذا كان أحد يتبعني فسوف أراه وهو يعبر الجسر. لكن الدقائق مرت ولم يأت أحد؛ لم يكن أحد يتبعني. استدرت وسلكت الممر المؤدي إلى الفسحة، وخطوت ست خطوات أو قريباً من ذلك ثم وقتت؛ فقد سمعتُ صوت خشخشة خلفي. لا يمكن أن يكون هذا شخصاً تبني من الفندق. إنه شخص موجود هنا أصلاً، ينتظر.

وعرفت فوراً -دون أي سبب أو منطق ما عدا الغريزة- أنني أنا المهدة. كان ذلك نفس الشعور الذي اتابني في السفينة كيلموردن تلك الليلة... غريزة مؤكدة تحذرنني من الخطر.

التفتُ إلى الوراها بحدّة... لا شيء غير الصمت. تقدمت خطوة أو خطوتين، وسمعت مرة أخرى تلك الخشخشة. نظرت ورائي ثانية وأنا ما زلت أمشي، وظهر شبح رجل من خلال الظلال، وقد عرف أنني رأيته فقفز إلى الأمام يطاردني بشدة.

جلود حيوانات كبيرة وأنياب مختلفة من العاج معلقة عليها. كنت مستلقية على أريكة خشنة مغطاة أيضاً بالجلود، وكانت ذراعي اليسرى ملفوفة كلها، متصلبة تؤلم. في البداية اعتقدت أنني كنت وحيدة ثم رأيت خيال رجل يجلس بيني وبين الضوء ورأسه باتجاه النافذة. كان يجلس جامداً وكأنه نُحِت من خشب. كان في رأسه وشعره الأسود القصير شيء مألوف لدي، ولكني لم أجزؤ على ترك خيالي يضل بعيداً. وفجأة التفت وحسبُ أنفاسي. كان هاري رايرن... هاري رايرن بلحمه ودمه.

نهض وجاء نحوي وقال بقليل من الحرج: أشعرين بتحسن؟

لم أستطع الرد عليه؛ وكانت الدموع تنهمر من عيني. كنت ما أزال ضعيفة، ولكني أمسكت يده بكلتا يدي. لو كان بوسعي فقط أن أموت على هذه الحال وهو يقف ينظر إلي بنظراته الجديدة تلك.

قال: "لا تبكي يا آن، أرجوك لا تبكي. أنت الآن في أمان". ثم ذهب وأحضر كوباً وقدمه لي: اشربي قليلاً من هذا الحليب.

شربت طائعة. استمر يتحدث بنبرة منخفضة ملاطفة كما لو أنه كان يخاطب طفلاً: لا تسأليني أي سؤال الآن. نامي ثانية، وستعود لك قوتك شيئاً فشيئاً. سأذهب عنك إن شئت.

قلت بالاحراج: لا... لا، لا.

قال: "إذن سابقى". ثم أحضر كرسيّاً صغيراً إلى جانبي وجلس عليه. وضع يده على يدي، ويعد أن هدأت وارتحت ذهبت في سبات عميق مرة أخرى.

لا بد أن الوقت كان مساء عندها لكني عندما استيقظت ثانية كانت

الفصل الخامس والعشرون

استعدت وعيي ببطء وألم. وعيت على ألم في رأسي وألم حاد في ذراعي الأيسر عندما حاولت الحركة، وبدا كل شيء غير حقيقي أشبه بحلم. ارتسمت أمامي كوابيس، وشعرت بأنني أسقط... أسقط ثانية. مرة بدا وجه هاري رايرن أمامي وهو قادم لي من وسط الضباب، وكدت أتخيل أن ذلك حقيقي، ثم ابتعدت هذه الرؤى ثانية وهي تسخر مني. ومرة تذكرت شخصاً يضع كوباً بين شفتي وشربت منه. ابتسم وجه أسود في وجهي؛ وجه شيطان، وصرخت. ثم الأحلام ثانية... أحلام طويلة مشوشة كنت أبحث فيها عن هاري رايرن لأحذره... أحذره من ماذا؟ لم أكن أعرف ذلك. ولكن كان يوجد خطر... خطر كبير... وأنا وحدي كنت أستطيع إنقاذه. ثم الظلام ثانية؛ الظلام الرحيب والنوم الحقيقي.

ثم استيقظت أخيراً من جديد. لقد انتهى الكابوس الطويل، وتذكرت كل شيء تماماً: خروجي المتسرع من الفندق لملاقاة هاري، الرجل المتخفي في الظلام، وآخر لحظة سقوط مرعبة...

لم أقتل بفضل معجزة. أصبت بكدمات وآلام وأصبحت ضعيفة جداً، ولكني كنت في قيد الحياة. ولكن أين أنا؟ حركت رأسي بصعوبة ونظرت حولي. كنت في غرفة صغيرة ذات جدران خشبية خشنة، وكانت

- من هي سوزان؟

- السيدة بلير. كنت معها ومع السير يوستيس والكولونيل رايس في الفندق... ولكنك تعرف ذلك بالتأكيد؟

هز رأسه بالنفي وقال: لا أعرف أي شيء سوى أنني وجدتك عالقة بين غصني شجرة فاقدة الوعي وذراعك ملتوية كثيراً.

- أين كانت الشجرة؟

- على سفح الوادي السحيق. ولولا أن علقنت ملابسك بالأغصان لكنت هويت وتمزقت شرّ ممزق.

ارتعدت خوفاً. ثم خطرت لي فكرة فقلت: أنت لم تكن تعرف أنني هناك. ما شأن الرسالة إذن؟

- أي رسالة؟

- الرسالة التي بعثتها لي تطلب مني فيها لقاءك في الفسحة.

حدق إلي وقال: لم أرسل أي رسالة.

شعرت بأني أحمرُّ خجلاً حتى جذور شعري، ولحسن الحظ لم يبدُ أنه لاحظ ذلك. سأله بطريقة لامبالية قدر الإمكان: وكيف حدث أن كنت موجوداً في المكان يمثل هذه الطريقة الرائعة؟ وماذا تفعل في هذا المنطقة أصلاً؟

قال ببساطة: أعيش هنا.

- على هذه الجزيرة؟

الشمس في كبد السماء. كنت في الكوخ وحيدة، ولكن عندما تحركت جاءت إلي امرأة عجوز من أهل البلد مسرعة وابتسمت لي تشجعني. أحضرت لي ماء في حوض وساعدتني في غسل وجهي ويدي، ثم أحضرت لي إناء كبيراً من الحساء فشربته حتى آخر قطرة فيه! سألتها عدة أسئلة لكنها كانت تبسم فقط وتومئ برأسها وتتكلم لغة غريبة، ولذلك أدركت أنها لم تكن تعرف الإنكليزية.

وفجأة نهضت وتراجعت إلى الوراء باحترام عندما دخل هاري رايرن. أوما لها لتصرف فخرجت وتركتنا وحدنا، وابتسم لي وقال: أنت اليوم أفضل حقاً!

- نعم، لكني ما زلت متحيرة جداً. أين أنا؟

- أنت في جزيرة صغيرة على الزامبيزي تبعد أربعة أميال تقريباً عن الشلالات.

- هل... هل يعرف أصدقائي أنني هنا؟

هز رأسه نافية فقلت: يجب أن أبلغهم.

- كما تشائين بالطبع، ولكن لو كنت مكانك لانتظرت ريثما أصبح أقوى قليلاً.

- لماذا؟

لم يجيني على الفور ولذلك أكملت: منذ متى وأنا هنا؟

أذهلني جوابه: منذ نحو شهر.

صحت: آه! يجب أن أبلغ سوزان؛ ستكون قلقة جداً.

الذين سمحوا لك بالوقوع في الشرك القاتل! لا، كنت وانقأ في نفسي بأنني أستطيع العناية بك أكثر من أي شخص آخر. لا يأتي أحد إلى هذه الجزيرة على الإطلاق، وعندني العجوز باناني التي عالجتها من الحمى ذات مرة فشفيت، وبمكثها أن تأتي للعناية بك. إنها مخلصة، ولن تقول كلمة واحدة أبداً. يمكنني إبقاؤك هنا عدة أشهر دون أن يعرف أحد عنك شيئاً.

"يمكنني إبقاؤك هنا عدة أشهر دون أن يعرف أحد عنك شيئاً!"
لكنم نُفِرح المرء بعض الكلمات!

قلت بهدوء: لقد فعلت الصواب، ولن أرسل خيراً لأحد؛ إن يوماً واحداً أو أكثر من القلق لا يعد فرقاً كبيراً، وأياً كان ذلك الذي كتب تلك الرسالة فلا بد أنه يعرف... الكثير! لم يكن ذلك من عمل شخص خارجي.

ذكرت الرسالة هذه المرة دون أن يحمر وجهي على الإطلاق.
وقال متردداً: لو أنك تسمعين نصيحتي...

أجبت بصراحة: لا أحسبني سأفعل، ولكن لا ضرر من الاستماع.
- هل تفعلين دائماً ما تشائين يا آنسة بيدنغفيلد؟
أجبت بحذر: "في العادة". (وكان من شأني أن أقول لأي شخص آخر: "دائماً").

قال على نحو غير متوقع: إنني أشفق على زوجك.
رددت بسرعة: لا حاجة بك لذلك، فما كنت لأحلم بالزواج بأي رجل إلا إذا أحببته بجنون، وبالطبع لا شيء تستمتع به المرأة أكثر من

- نعم، جئت إلى هذا المكان بعد الحرب. أحياناً أخذ المجموعات السياحية من الفندق على قاربي، لكن الحياة هنا تكلفني قليلاً، وفي الغالب أعمل كما أشاء.

- هل تعيش هنا وحدك؟
ردّ ببرود: أؤكد لك أنني لا أتوق لرفقة الناس.

أجبت بسرعة: أسفة لأنني فرضت رفقتي عليك، ولكن يبدو أنني لم تكن لي حيلة في هذا الأمر.

ولدهشتي طرفت عيناه قليلاً وقال: أبداً! لقد حملتك على كتفي مثل كيس فحم وأخذتك إلى قاربي، تماماً كرجل بدائي في العصور الحجرية.

قاطعته: لكنك لم تخبرني كيف حدث أن كنت تتسكع بهذا الشكل الملائم بحيث تنجديني في الوقت المناسب؟

- لم أستطع النوم. كنت قلقاً... مضطرباً... وراودني إحساس بأن شيئاً سوف يحدث، وفي نهاية الأمر أخذت القارب وجئت إلى اليابسة وتسكعت في اتجاه الشلالات، وكنت عند رأس وادي النخيل عندما سمعتك تصرخين.

- لماذا لم تطلب المساعدة من الفندق بدلاً من نقلني كل هذه المسافة إلى هنا؟

احمرّ وجهه وقال: أحسب أن ذلك يبدو لك تطاولاً مني لا يُغتفر... ولكني لا أظنك تدركين - حتى هذه اللحظة - مبلغ الخطر المحدق بك! أعتقد أن كان عليّ أن أخبر أصدقائك؟ يا لطف هؤلاء الأصدقاء

القيام بكل الأشياء التي لا تحبها من أجل شخص تحبه، وكلما كان ذلك نابعاً عن إرادة ذاتية منها كلما أحبته أكثر.

قال ببعض السخرية: أخشى أنني لا أوافقك الرأي. إن العكس هو الصحيح كقاعدة عامة.

صحت بلهفة: بالضبط، وهذا هو سبب وجود الكثير من الزيجات غير السعيدة. إنها غلطة الرجال دائماً؛ إما أنهم يستسلمون لزوجاتهم (فتحترهم زوجاتهم) أو يكونون أنانيين تماماً ويصرون على آرائهم ولا يقولون: "شكراً" أبداً. الأزواج الناجحون يجعلون زوجاتهم يفعلن ما يريدونه تماماً، ثم يدللونهن دلالاً بالغاً لأنهن فعلن ذلك. إن النساء يحبين أن يتسند عليهن أزواجهن، لكنهن يكرهن أن لا يقدر أزواجهن تضحياتهن. ومن ناحية أخرى فإن الرجال لا يقدرون -في الحقيقة- النساء اللاتي يكنّ لطيقات معهم كل الوقت. عندما أتزوج سأكون شيطانة معظم الوقت، ولكنني سأري زوجي من وقت لآخر (حيث لا يتوقع ذلك مني) كيف يمكن أن أكون ملاكاً كاملاً.

ضحك هاري بملء فيه وقال: يا حياة القط والفأر التي ستعيشينها!

طمأنته قائلة: إن العشاق يتقاتلون دائماً لأنهم لا يفهم بعضهم بعضاً، وما أن يأتي الوقت الذي يفهم فيه بعضهم بعضاً حتى يكون الحب قد انتهى.

- هل العكس صحيح؟ هل الناس الذين يحارب بعضهم بعضاً يكونون دائماً عشاقاً بعضهم لبعض؟

قلت وقد ارتبكت بسرعة: إنني... لا أعرف.

مشى نحو الموقد وقال بطريقة عرضية: أتخمين مزيداً من الحساء؟

- نعم، أرجوك. إنني جائعة لدرجة أستطيع معها أكل فرس نهر.
- هذا جيد.

انشغل بالنار بينما كنت أراقبه، ثم قلتُ أعده: عندما أغادر فراشي سأطبخ لك.

- لا أظنك تعرفين شيئاً عن الطبخ.

أجبت به بسرعة وأنا أشير إلى صف من العلب على رف الموقد: أستطيع تسخين الطعام في هذه العلب كما تفعل أنت.

قال: "هذه واحدة لك"، ثم ضحك. كان وجهه كله يتغير عندما يضحك فيصبح صيانياً، سعيداً... شخصية مختلفة.

استمتعت بالحساء. وعندما كنت أتأوله ذكّرت به بأنه لم يقدم لي نصيحته حتى الآن.

- آه، نعم. إن ما كنت أريد قوله هو التالي: لو كنت مكانك لبقيت هادئاً متخفياً هنا، إلى أن تستعيد قوتك كاملة مرة أخرى. سيعتقد أعدائك بأنك مت، ولن يقاوتهم عدم العثور على جثتك. سيعتقدون أنها تمزقت إرباً فوق الصخور وحملها السيل الجارف معه.

ارتعدت أوصالي.

- عندما تستعيد عافيتك تماماً يمكنك الذهاب إلى بيراههدوء، ومن هناك تأخذين سفينة تعيدك إلى إنكلترا.

عند مدخل الكوخ، وكانت الشمس تغرق. كانت دبابيس الشعر من ضرورات الحياة التي لم يستطع هاري تأمينها لي، وكان شعري الأسود يتدلى حتى بلغ ركبتي. جلست وذقتي على يدي غارقة في التفكير، وأحسست بأن هاري ينظر إلي دون أن يلتفت.

أخيراً قال: تبدين مثل ساحرة يا آن.

كان في صوته شيء لم أعهده من قبل، ومدّ يده ولمس شعري. ارتعدت، وفجأة قفز غاضباً وصاح: يجب أن تغادري هذا المكان غداً، هل تسمعين؟ إنني...

- إذا أردتني أن أذهب فسوف أذهب، ولكن إن أردتني أن أبقى... فسوف أبقى.

صاح بانفعال: إلا هذه! إلا هذه. أتدركين من أنا؟ مجرم كبير؟ رجل ملاحق. يعرفونني هنا باسم هاري باركر، ويعتقدون بأنني قد خرجت من البلد، ولكنهم سيجرون حساباتهم ذات يوم ويعرفون، وعندها تقع الواقعة. أنت صغيرة جداً يا آن، وجبيلة جداً... الحياة كلها أمامك؛ الحب والدنيا وكل شيء. أما حياتي أنا فوراني... حياة تلتفت وفستت، لها طعم الرماد المر.

- إن كنت لا تريدني...

- تعرفين أنني أريدك... تعرفين أنني يمكن أن أضحي بنفسي لكي أبقىك هنا مسترة عن العالم إلى الأبد، ولكنني سأنتقدك من نفسك ومني. سوف تذهبين هذه الليلة؛ سنذهبن إلى بير...

- لن أذهب إلى بير.

عارضته بازدياد؛ سيكون هذا تصرفاً خائفاً جداً.

- ها هي التلميذة الغبية تتكلم!

صحت ساخطة: لست تلميذة غبية... إنني امرأة.

نظر إلي نظرة لم أستطع فهمها بينما جلست محمرة من الغضب، ثم خرج فجأة.

تعافيت سريعاً. كانت الإصابتان اللتان تحملتهما ضربة في الرأس والتواء شديداً في الذراع، وكانت الأخيرة هي الأسوأ، وقد ظن متقدي في البداية أنها مكسورة، ولكن أفعني الفحص المتأنى بأنها لم تكن كذلك، ورغم أنها كانت مؤلمة جداً إلا أنني بدأت استعمالها بسرعة.

كانت فترة غريبة. كنا معزولين عن العالم، وكانت باناني العجوز تحوم في المكان أشبه بكلب لا يشعر أحد بوجوده. أصبرت على أن أقوم بالطبخ، أو بما أستطيعه منه بذراع واحدة. كان هاري يخرج لوقت طويل، لكننا كنا نقضي ساعات طويلة معاً تحت ظلال أشجار الخيل نتحدث ونشاجر ونناقش كل شيء. يمكن تصوره، ونشاجر ثم نتصالح ثانية. نخاصمنا كثيراً ولكن نشأت بيننا صراحة حقيقية دائمة لم أكن أصدق إمكانية حدوثها.

وكنت أعرف بأن الوقت كان يقترب على تحسن صحتي بحيث أعادر، وقد أدركت ذلك بقلب مقل. هل كان سيركني أذهب دون كلمة واحدة؟ دون إشارة؟ كانت تأتيه نوبات من الصمت؛ فترات طويلة من المزاجية؛ لحظات كان يقفز فيها من مكانه ويذهب ليشكع وحيداً.

وذات مساء جاءت الأزمة. كنا قد انتهينا من وجبتنا البسيطة وجلسنا

الأشياء أبداً يا آن، أليس كذلك؟ لكن الوقت قد حان. أريدك أن تسمعي
القصة بكاملها... من البداية.

قلت بصوت منخفض: إن كان تذكرك للماضي يؤذيك فلا
تفعل.

- لكنني أريدك أن تعرفي. لم يخطر لي أبداً أنني سأنتحدث عن
ذلك الجزء من حياتي لأحد. أليست تصريحات القدر غريبة؟

سكت بعض الوقت. كانت الشمس قد غربت، وكان الظلام
المخملي لليل أفريقيا قد خيم علينا كغلالة رقيقة.

قلت بهدوء: أعرف بعضه.

- ما الذي تعرفينه؟

- أعرف أن اسمك الحقيقي هو هاري لو كاس.

بقي متردداً... لا ينظر إلي، ولكنه يحدق أمامه مباشرة. لم أكن
أعرف ما الذي يدور في خلده، ولكنه في النهاية هز رأسه إلى الأمام
وكأنه قد سلم بهذه الحقيقة وبدأ روايته.

* * *

- بلي. سندهين إلى بيررا حتى لو تطلب الأمر أن أحملك بنفسي
والتيك على ظهر السفينة. من أية مادة تظنين أنني خلقت؟ أنتظنين
أنني سأستمر بالاستيقاظ ليلة بعد ليلة خشية أن يكونوا قد أوقعوا بك؟
لا يمكن للمرء أن يستمر معتمداً على المعجزات. يجب أن تعودني إلى
إنكلترا يا آن، وأن... وأن تزوجي وتعيشي سعيدة.

- مع رجل مستقر يوفر لي بيتاً هادئاً!

- هذا أفضل من... الكارثة التامة.

- وماذا عنك؟

تجهم وجهه وقال: لديّ عملي الذي أقوم به. لا تسألني ما هو؛ إذ
أحسب أن بوسمك أن تخمنه، ولكنني سأقول لك ما بلي: سوف أبرىء
اسمي أو أموت دون ذلك، وسوف أعتصر الحياة من عيني ذلك الوغد
القدر الذي حاول جاهداً قتلك.

- يجب أن نكون منصفين؛ إنه لم يدفني من أعلى فعلياً.

- لم تكن لديه حاجة لذلك. كانت خطته أذكى من هذا؛ فلقد
ذهبتُ وصعدتُ إلى الممر بعدها، وبدأ كل شيء طبيعياً، ولكن عندما
رأيت العلامات على الأرض أدركت أن الحجارة التي كانت تحدد
الممر قد رفعت من مكانها ووضع ثمانية في أمكنة مختلفة قليلاً. توجد
شجيرات طويلة نامية على الحافة، وقد وُضعت الحجارة عليها حتى
تظني أنك ما زلت تسيرين فوق الممر بينما كنت في الحقيقة تضعين
قدمك في الهواء. فليساعد الله إذا ما وقع بين يدي!

سكت دقيقة ثم قال بنبوة مختلفة تماماً: نحن لم نتحدث عن هذه

التي لم يظأها البشر من قبل في هذا العالم. وبعد أن تخرج إيردسلي من كامبردج تشاجر مع والده الشجار النهائي. كان العجوز قد دفع عنه ديونه مرتين ورفض أن يدفع للمرة الثالثة، وحدث بينهما مشهد مريع. أعلن والده في نهاية الأمر أن صبره قد نفذ وأنه لن يفعل لولده أكثر مما فعله، وقال إنه يجب أن يعتمد على نفسه، وكانت النتيجة - كما تعرفين - أن هذين الشابين ذهباً إلى أميركا الجنوبية معاً للتنقيب عن الألماس. لن أخوض في هذا الآن لكننا قضينا وقتاً رائعاً هناك. كانت المشقات عديدة، ولكنها كانت حياة رائعة... حياة كفاف ينحت المرء فيها الصخر لمجرد البقاء، وفي طريق جديدة لم يمهدها السالكون من قبل. وكان ذلك - والله - خير مكان ليُعرف المرء صديقه حقاً، وقد تشكلت بيننا رابطة قوية لم يكن يحملها إلا الموت. حسناً، وكما أخبرك الكولونيل رايس، فإن جهودنا قد تُوِّجت بالنجاح؛ فقد وجدنا منجماً كمنجم كيمبرلي في قلب غابات غويانا البريطانية، ولا أستطيع أن أصف لك مقدار نشوتنا. ولم يكن هذا بسبب القيمة العالية للاكتشاف؛ فيإيردسلي كان معتاداً على المال، وكان يعلم أنه سيصبح مليونيراً بعد موت والده، وكان لوكاس فقيراً دائماً ومعتاداً على الفقر. لا، إنما كان ذلك بسبب فرحة الاكتشاف.

سكت ثم أضاف معتذراً: هل تمنعين في رواية القصة لك بهذه الطريقة؟ أقصد كما لو لم أكن مشاركاً في هذا الأمر على الإطلاق. يبدو لي الأمر هكذا الآن عندما أنظر إلى الماضي وأرى هذين الولدين. لقد كدت أنسى أن أحدهما كان... هاري رايرن.

قلت: أروها بالطريقة التي تشاء.

مضى يكمل حديثه: جئنا إلي كيمبرلي ونحن مزهوان جداً

محمد قال يا هاري من هذا الذي حدث لك في تلك الليلة التي أنعمت بها عليك على غير العادة من قبله عليه السلام؟ قلت له أنت أنت الذي كنت تعلم أنك ستجد في هذا المكان ما كنت تبحث عنه؟ قلت له لا يمكن أن تكون هاري رايرن؟ قلت له نعم نعمه هاري رايرن. قلت له أنت أنت الذي كنت تعلم أنك ستجد في هذا المكان ما كنت تبحث عنه؟ قلت له لا يمكن أن تكون هاري رايرن؟ قلت له نعم نعمه هاري رايرن.

الفصل السادس والعشرون

- أنت على حق؛ اسمي الحقيقي هو هاري لوكاس. كان والدي جندياً متقاعداً خرج للعمل في مزرعة في روديسيا، ومات عندما كنت في السنة الثانية في كامبردج.

سألته فجأة: هل كنت تحبه؟

قال: "إنني... لا أعرف". ثم احمرَّ وجهه واستمر في حديثه بحماسة مفاجئة: لماذا أقول هذا؟ كنت أحب والدي فعلاً. قلنا أشياء مريرة بعضنا لبعض في آخر مرة رأيت فيها، وقد تشاجرنا كثيراً بسبب طيشي وديوني، لكنني كنت أحب العجوز. أعرف مقدار حبي له الآن... بعدما فات الوقت.

ثم أكمل بهدوء أكثر: وهناك في كامبردج التقيت بالشخص الآخر...

- الشاب إيردسلي؟

- نعم... الشاب إيردسلي. كان والده - كما تعلمين - من أبرز رجالات جنوب أفريقيا، وقد انسجمنا فوراً أنا وصديقي. كان بيننا الحب المشترك لجنوب أفريقيا، وكلانا كان له ذوق خاص في حب الأماكن

محكمة، ولم تصدق المحكمة بأن هذه الألباسات ليست هي التي كانت بحوزتنا في الأصل.

كان للسير لورنس إيردسلي نفوذ كبير، وقد نجح في إغلاق ملف القضية... ولكنها تركت شابين محظمين وقد لحق بهما العار ليوأجها العالم واسمهما ملطخ بتهمة السرقة، وهذا ما حطم قلب الرجل المعجوز تماماً. تقابل مع ابنه مقابلة مريرة حيث قام بتوبيخه بكل ما يمكن تصوره، وقال إنه قد عمل ما في وسعه لإنقاذ اسم العائلة ولكن منذ ذلك اليوم لم يعد ابنه هو ابنه. تخلى عنه كلياً، وبقي الولد صامتاً (بما كان ينصف به من حقم وغرور) وترفع عن إثبات براءته في وجه أبيه الذي لم يكن يصدق براءته. خرج من المقابلة نائراً، وكان صديقه ينتظره. وبعد ذلك بأسبوع أعلنت الحرب فتطوع الصديقان للقتال معاً. أنت تعرفين ما حدث؛ لقد قُتل أفضل صديق يمكن للمرء أن يعرفه، وذلك بسبب اندفاعه المجنون نحو الخطر غير الضروري... مات واسمه ملوث.

أقسم لك -يا آن- بأنني شعرت بالكراهية تجاه تلك المرأة بسبب ما جرى له فقط؛ فقد أثر حبها فيه أكثر مما أثر بي. صحيح أنني كنت وقتها مجنوناً في حبها، ولكن مشاعره كانت أكثر هدوءاً وعمقاً. كانت مركز عالمه كله، وقد مزقت خيانتها جذور حياتها؛ لقد صعقت الضربة وتركته مشلولاً.

سكت هاري ثم أكمل بعد دقيقة؛ كما تعلمين فقد وصفتني التفارير العسكرية بأنني «مفقود ويُحتمل أنه قُتل». لم أتعجب نفسي في تصحيح هذا الخطأ أبداً، بل انتحلت اسم باركر وجئت إلى هذه الجزيرة التي كنت أعرفها منذ زمن طويل. في بداية الحرب كانت لدي آمال طموحة في إثبات براءتي، لكن كل هذه الروح تبدو الآن قد خمدت. كنت

باكتشافنا. وأحضرنا معنا مجموعة رائعة من أحجار الألماس لتقديمها إلى الخبراء، وبعد ذلك... في فندق في كيمبرلي... قابلناها.

تصلبت قليلاً، وشدّت يدي على مقبض الباب دون وعي مني.

- أيتها غرونبرغ... كان هذا اسمها. كانت مثلة، وكانت شابة وجميلة جداً. وُلدت في جنوب أفريقيا وأظن أن أمها كانت مجرية. كان الغموض يكتنف حياتها، وهذا -بالطبع- زاد من جاذبيتها لولدين عادا إلى الوطن من الأذغال. لا بد أن مهمتها كانت سهلة. كلانا وقع في حبها بسرعة، وكلانا أخذ الأمر بكل جدية. كان ذلك هو أول ظل لخلاف يقع بيننا... ولكن حتى ذلك لم يضعف صداقتنا. اعتقد صادقاً أن كلاً منا كان مستعداً لأن يتنحى جانباً من أجل الآخر لكي يفوز ويحصل عليها، ولكن هذه لم تكن لعبتها. كنت -بعد ذلك- أتساءل أحياناً لماذا لم يكن ذلك هدفها، ذلك أن ابن السير لورنس إيردسلي الوحيد كان صيداً ثميناً، ولكن الحقيقة هي أنها كانت متزوجة بأحد العاملين في شركة دي بيرس... رغم أن أحداً لم يكن يعلم بهذا. وقد أظهرت اهتماماً كبيراً باكتشافنا، وأخبرناها كل شيء عنه، حتى أننا أريناها الألماس. كان ينبغي أن تُسمى هذه المرأة دليلة... وقد لعبت دورها جيداً

اكتُشف حادث السطو على محلات دي بيرس وانقضّ الشرطة علينا كقصف الرعد ووضعوا أيديهم على ألباساتنا. في البداية اكتفينا بالضحك؛ فالأمر كله كان سخيفاً جداً. ثم تم إبراز الألماسات في المحكمة، وكانت -دون شك- هي الأحجار المسروقة من دي بيرس.

كانت أيتها غرونبرغ قد اختفت بعد أن أبدلت الألباسات بطريقة

أنتا وهما صغيران ولكنها سرعان ما هجرته، وقد أخبرني بأنها تورطت مع مجموعة سيئة... وكانت تلك أول مرة أسمع فيها عن «الكولونيل». أما كارنون نفسه فلم يتورط في أي عمل غير تلك السرقة. هذا ما أكده لي... وكنت أميل إلى تصديقه؛ إذ لم يكن -بالتأكيد- من تلك الخامة التي تُنتج مجرمين ناجحين.

ولكني بقيت أشعر بأنه يخفي شيئاً. وكاختبار له هددت بقتله في الحال وقلت له إنني لم أعد أهتم كثيراً بما سيحصل لي الآن، وفي نوبة من الرعب حكى لي حكاية أخرى. يبدو أن أنتا غرونبيرغ لم تكن تثق بالكولونيل كثيراً؛ فبينما تظاهرت بأنها سلمته أحجار الألماس التي أخذتها من الفندق احتفظت ببعضها عندها، وقد تصحها كارتون بخبرته الفنية وأرشدتها إلى الأحجار التي يُفضل أن تحتفظ بها. وإذا ظهرت هذه الألماسات في أي وقت فإن لونها ونوعيتها سيجعلان من السهل التعرف عليها، وكان خبيراً دي بيرس سيعترفون -على الفور- بأن تلك الأحجار لم تمر بين أيديهم أبداً. وبهذه الطريقة فإن قصتي حول تبديل الألماسات كانت ستدعم، واسمي سوف يُبرأ، وسوف تتحول الشبهة إلى المتهم الحقيقي. وقد فهمتُ بأن «الكولونيل» كان متورطاً بهذه المسألة شخصياً على غير عاداته، ولذلك اقتنعتُ أنتا بأنها أصبحت تملك شيئاً يدينه إذا ما دعت الحاجة. وقد اقترح كارتون بأن أعمل صفقة مع أنتا غرونبيرغ (أو نادينا، وهو الاسم الذي أطلقته على نفسها بعد ذلك)، وقد رأى أنها ستوافق على التخلي عن الألماسات وعلى خيانة رئيسها السابق مقابل مبلغ كبير من المال، وكان يريد أن يبرق لها بذلك على الفور.

ولكني بقيت مرتاباً في كارتون. كان رجلاً من السهل إخافته لكنه -في خوفه- سيقول لك الكثير من الأكاذيب التي سيكون من الصعب

أشعر دائماً بأنه لا فائدة من ذلك؛ فصدّيقِي قد مات وليس لي أوله أي أقارب أحياء نهمهم براءتنا، وكان مفروضاً أن أكون أنا الآخر ميتاً، إذن لأدع الأمر على ما هو عليه. لقد عشت حياة هادئة هنا، لم أكن سعيداً ولم أكن حزيناً... كنتُ خالياً من كل المشاعر. ولقد عرفتُ الآن أن ذلك كان -إلى حد ما- من تأثير الحرب رغم أنني لم أكن أدرك ذلك في ذلك الوقت.

ثم ذات يوم ظهر شيء أيقظني من غفلتي ثانية. كنتُ أحمل مجموعة من الناس في قاربي في رحلة في النهر، وكنتُ أفق عند مرسى القارب أساعدهم في ركوب القارب عندما صباح أحد الرجال صيحة تعجّب جعلتني أركز اهتمامي عليه. كان رجلاً صغير الحجم نحيفاً له لحية وكان يحدق إليّ بما أوتي من قوة وكانني كنتُ شبحاً. كان انفعاله قوياً جداً بحيث أيقظ في نفسي الفضول؛ فقممتُ بالاستفسار عنه في الفندق وعلمتُ أن اسمه كان كارتون وأنه من كمبرلي وأنه صافل ألماس يعمل عند محلات دي بيرس. وفي دقيقة واحدة جاشت في نفسي مرة أخرى جميع الأحاسيس القديمة بالظلم، فعادرت الجزيرة وذهبت إلى كمبرلي.

ومع ذلك لم أستطع معرفة المزيد عنه، وفي نهاية الأمر قررت أنني يجب أن أسرع إلى مقابلته. أخذتُ مسدسي معي، وعثرت عليه بلمح البرق (وكنتُ قد أدركتُ -من تلك النظرة السريعة عند القارب- بأنه جبان وضعيف جسدياً). وحالما أصبحنا وجهاً لوجه أدركتُ أنه كان خائفاً مني، وفي الحال أجبرته على أن يخبرني بكل ما كان يعرفه. وقد تبين أنه قد خطط لجزء من عملية السطو وأن أنتا غرونبيرغ كانت زوجته، وقد رأنا مرة معاً ونحن نتناول العشاء معها في الفندق، ولأنه قرأ بأنني قُتل فقد أصابه ظهوري عند الشلالات بالدعر. كان قد تزوج

كتب لها الرجل إذناً بمعابنة البيت فخرجت ثانية بطريقتها المتغطسة. إنها لم تلتفت إلى كارتون بكلمة أو حتى إشارة، ومع ذلك كنت واثقاً أن لقاءهما هناك كان بناء على خطة موضوعة سلفاً، ثم بدأت أفتر إلى النتائج. لم أكن أعرف أن السير يوستيس كان موجوداً في كان، ولذلك اعتقدت بأن هذا العمل كان مجرد غطاء للاقائهما به في ميل هاوس. كنت أعرف أنه كان موجوداً في جنوب أفريقيا وقت حادث السطو، ولأنني لم أكن قد رأيت من قبل أبداً فقد قفزت إلى نتيجة مؤداها أنه هو نفسه «الكولونيل» الغامض الذي سمعت عنه الكثير.

تبعث المشتبهين على طول شارع نايتسبريدج. ودخلت أنيتا إلى فندق هايد بارك فأسرعت في خطواتي أنا الآخر ودخلت. ذهبت إلى المطعم مباشرة، وقررت أن لا أجازف بتعرفها عليّ في تلك اللحظة وأن أواصل ملاحقة كارتون. كان لديّ أمل كبير بأنه سيحصل على الألباس وأنا في استطاعت انتزاع الحقيقة منه عن طريق ظهوري المفاجئ وكشف نفسي له عندما لا يتوقع رؤيتي. تبعته إلى محطة قطار الأنفاق في هايد بارك كورنر وكان يقف هناك عند نهاية الرصيف، وكانت تقف بالقرب منه فتاة ولكن لا أحد آخر، وقررت أن أواجهه فوراً هناك. وتعرفين ما حدث... فني صدمة مفاجئة لرؤيته رجلاً كان يظن أنه بعيد في جنوب أفريقيا فقدّ عقله وتراجع إلى الوراثة وسقط على خط السكة... لقد كان جباناً دائماً! وتظاهرت بأنني طيب وفتشت جيوبه، فوجدت محفظة بها بعض النقود ورسالة أو رسالتين غير مهمتين، وكانت هناك بكرة أفلام (لا بد أنني أسقطتها في مكان ما بعد ذلك) وقطعة من الورق عليها موعد في يوم الثاني والعشرين على السفينة «قلعة كيلموردن». وأثناء عجلتي في الهروب قبل أن يعثقني أحد أسقطت تلك الورقة أيضاً، ولكنني -لحسن الحظ- تذكرت الأرقام.

معرفة الحقيقة منها. عدت إلى الفندق وانتظرت، وقد رأيت بأنه سيستم رداً على برفيته في مساء اليوم التالي. ذهبت إلى بيته فقالوا لي إن السيد كارتون قد خرج لكنه سيعود في الغد، وعلى الفور أحسست بالارتياح، وفي اللحظة الأخيرة عرفت أنه كان مبحراً في الحقيقة إلى إنكلترا على الباخرة «قلعة كيلموردن» التي غادرت كيب تاون قبل يومين. وكان لديّ الوقت لألحق بنفس الباخرة في ميناء آخر.

لم أكن أعزم تنبيه كارتون على وجودي في الباخرة. كنت قد قمت بأعمال تمثيل كثيرة أثناء دراستي في كامبردج وكان سهلاً عليّ تغيير مظهري لأبدو رجلاً ملتجئاً كهلاً، وقد تجنبت كارتون على ظهر الباخرة بحذر وبقية في مقصورتي الخاصة قدر الإمكان متظاهراً بالمرض.

ولم أجد صعوبة في ملاحظته عندما وصلنا إلى لندن، فقد ذهب فوراً إلى فندق ولم يخرج حتى اليوم التالي، وغادر الفندق قبل الساعة الواحدة بقليل. كنت وراه، وقد ذهب إلى وكيل عقارات في نايتسبريدج، وهناك سألت عن مواصفات بيوت ليستأجر أحدها على النهر.

كنت أجلس عند طاولة مجاورة أسأل عن بيوت أيضاً، وفجأة دخلت أنيتا غروينبرغ (أو نادينا؛ ستمها ما شئت)... فاتنة ومتغطسة وجميلة كما هي دائماً. يا إلهي، كم أكرهها! ها هي المرأة التي دمرت حياتي... والتي دمرت أيضاً حياة شخص أفضل مني. في تلك اللحظة كنت أستطيع إطباق يدي حول عنقها وخنقها تماماً. وقد اشتعلت غضباً لبعض الوقت، ولم أفهم ما كان وكيل العقارات يقوله، ثم سمعت صوتها بعد ذلك عالياً وواضحاً بلكنة أجنبية مبالغ فيها: "بيت ميل هاوس في مارلو؟ بيت السير يوستيس بيدلار... يبدو أنه يناسبني. على أية حال سوف أذهب وأراه".

بيدلار هو الكولونيل، فربما حُددت بيته كمكان للقاء بالصدفة أو لسبب غامض لم أعرفه.

- هل تعرف أن غاي باجيت كان في مارلو يوم وقوع الجريمة؟

- إذن فهذا يحل المشكلة. لقد اعتقدت أنه كان في كان مع السير بوستيس.

- كان يفترض أن يكون في فلورنسا، ولكنه لم يذهب إلى هناك بالتأكيد. أنا متأكدة تماماً أنه كان في مارلو لكني لا أستطيع إثبات ذلك.

- أنا لم أشبه في باجيت أبداً حتى جاءت تلك الليلة التي حاول فيها إلقاءك من فوق السفينة. إن الرجل معتل رائع.

- نعم، أنيس كذلك؟

- هذا يوضح سبب اختيار ميل هاوس. ربما كان باجيت يستطيع

دخوله والخروج منه دون أن يلحظه أحد. إنه لم يمانع في مرافقتي للسير بوستيس في السفينة؛ إذ لم يُرد أن يعقلوني على الفور. من الواضح أن نادينا لم تحضر الألباسات معها إلى موعد اللقاء (وهو ما كانوا يعتقدون

أنها ستفعله)، وأنصّب أن كارتون كان يحتفظ بها ويخفيها في مكان ما في الباخرة... كان ذلك دوره. كانوا يأملون أن أعرف مفتاح الكشف

عن مكان إخفائها؛ فمادام الكولونيل لم يستعد الألباسات فإنه ما زال في خطر، وهو ما يوضحه اهتمامه بالحصول عليها مهما كان الثمن.

لا أعرف أين خبأها ذلك الشيطان كارتون... إن كان قد خبأها فعلاً.

- هذه قصة أخرى... قصتي أنا، وسوف أحكيها لك الآن.

* * *

أسرعت إلى أقرب حجرة ودائع في المحطة وأزلت التنكر عن وجهي بسرعة (إذ لم أرد أن أعقل بثمة نشل جيوب رجل ميت)، ثم عدت أدراجي إلى فندق هايد بارك. كانت نادينا تتناول غداءها، ولا حاجة لأن أصف بالتفصيل كيف تبعتها إلى مارلو. دخلت هي إلى البيت أولاً، ثم جنث وتحدثت مع المرأة في بيت البواب متظاهراً بأنني كنت معها، ودخلت إلى البيت أنا الآخر.

سكت، وساد صمت ثقيل.

- هل ستصدقيني يا آن؟ أقسم بالله أن ما سأقوله هو الحقيقة.

ذهبت إلى البيت وراها وفي قلبي شيء أشبه ما يكون رغبة بالقتل... ووجدتها مقتولة! وجدتها هناك في غرفة في الطابق الأول... يا إلهي! كان متظراً مرعباً. مقتولة... ولما يمض على دخولي وراها ثلاث دقائق، ولا أثر لوجود أحد آخر في البيت! وبالطبع أدركت على الفور الوضع المرعب الذي كنت فيه؛ فالبضرة مُعلم! واحدة تخلص الضحية ممن كان يتزعم وفي نفس الوقت قدم ضحية يمكن أن تلتصق به هذه الجريمة. كانت يد الكولونيل واضحة جداً في هذا العمل، وللمرة الثانية سأكون ضحيته... وكنت مغفلاً إذ وقعت في الفخ بهذه السهولة!

لا أكاد أعرف ما فعلته بعد ذلك. خرجت من البيت وأنا أبدو في حالة عادية تماماً، لكنني عرفت بأن الأمر لن يطول كثيراً حتى يكتشفوا الجريمة ويعصموا أوصالي في أنحاء البلاد. اختبأت بضعة أيام لا أجرؤ على الحركة، وفي النهاية ساعدني الحفظ؛ فقد سمعت حديثاً بين رجلين كهلين في الشارع أحدهما كان السير بوستيس بيدلار، ورأيت -على الفور- فكرة العمل كسكرتير له، وقد ساعدني على ذلك بعض الحديث الذي سمعته بينهما. لم أعد وثقاً كثيراً الآن بأن السير بوستيس

قال هاري: لولا شيء واحد لجزمت أنه هو. يبدو من الأكيد أن باجيت هو الذي قتل أنيتا غرونيغ في مارلو... وهذا بالتأكيد يفسر الافتراض أنه هو الكولونيل بالفعل؛ حيث أن مسألة أنيتا لم تكن من النوع الذي يمكن أن يناقشها شخص آخر نابع له. ولكن الشيء الوحيد الذي يعمل ضد ذلك الافتراض هو محاولة التخلص منك ليلة وصولك إلى هنا. لقد رأيت باجيت وقد تخلف وراءكم في كيب تاون، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى هنا قبل الأربعاء التالي بأية وسيلة، ومن غير المحتمل أن يكون له أي جواسيس في هذا المكان، وقد كانت جميع خططه أن يتعامل معك في كيب تاون. قد يستطيع بالطبع إرسال برقية تعليمات لمساعد له في جوهانسبرغ يستطيع بدوره ركوب القطار الروديسي في مايفينغ، لكن تعليماته -في تلك الحالة- ينبغي أن تكون محددة بحيث يمكن تفسير كتابة تلك الرسالة.

جلسنا صامتين بعض الوقت ثم أكمل هاري حديثه ببطء: هل قلت إن السيدة بلير كانت نائمة عندما غادرت الفندق وأنت سمعت السير بوستيس يملي رسائله على الأنسة بيتيغرو؟ أين كان راييس؟

- لم أجده في أي مكان.

- هل كان لديه أي سبب يدعو للاعتقاد... بأننا (أنا وأنت) على صداقة معاً؟

أجبت متأملة وأنا أتذكر حديثاً دار بيننا في طريق العودة من ماتوبوس: ربما كان لديه سبب لذلك. إنه ذو شخصية قوية لكنه لا يتطابق مع فكرتي عن «الكولونيل» على الإطلاق. وعلى أية حال فإن مثل هذه الفكرة ستكون سخيفة؛ فهو يعمل في جهاز المخابرات.

الفصل السابع والعشرون

أصغى هاري إليّ باهتمام بينما أعدت عليه سرد جميع الأحداث التي سردتها في هذه الصفحات، وأكثر شيء حيره وأدهشه هو أن يعرف بأن الألماسات كانت بحوزتي طوال تلك الفترة... أو بالأحرى بحوزة سوزان. كانت تلك حقيقة لم يفكر بها أبداً.

وبالطبع -بعد أن سمعت قصته- أدركت مغزى عمل كارتون أو... بالأحرى عمل نادينا حيث لم يكن عندي أي شك أنها هي التي وضعت الخطة. وليس مدهشاً بأن التكتيكات التي نفذت ضدها أو ضد زوجها كانت يمكن أن تؤدي إلى الاستيلاء على الألماس. كانت تحتفظ بالسر لنفسها ولم يكن من الممكن للكولونيل أن يخمن بأنها قد أودعتها بعهدة مضيف بحري!

كانت براءة هاري من تهمة السرقة القديمة تبدو أكيدة، لكن التهمة الأخرى والأخطر هي التي أصابت أعمالنا بالشلل؛ لأنه لن نستطيع الخروج لإثبات قضيتي.

الشيء الوحيد الذي كنا نعود إليه مرة تلو الأخرى هو هوية «الكولونيل». هل كان هو غاي باجيت أم لا؟

الكولونيل رايس، افترضى أن الكولونيل رايس تسلل إلى ظهر المركب وعندما فشل في هجومه عليك هرب حول ظهر السفينة والتقى باجيت الذي كان قادماً لنوه من خلال باب الصالون، فصرعه بضربة وفتز إلى الداخل بعد أن أشلق الباب. اندفعنا حول السفينة ووجدنا باجيت ممدداً هناك. ما رأيك بهذه؟

- لقد نسيت أنه أكد جازماً أنك أنت الذي ضربته.

- حسناً، افترضى أنه حالما استعاد وعيه رأيى أختفى من بعيد؟ ألم يكن سيسلم جداً بأننى أنا الذي هاجمته؟ وخصوصاً أنه كان يعتقد من البداية بأنه كان يلاحقنى أنا؟

قلت ببطء: هذا ممكن، بلى، وهو يغير كل أفكارنا. ولكن توجد أشياء أخرى.

- معظمها عرضة للتفسير. الرجل الذي تبعك في كيب تاون تحدث مع باجيت وفتز باجيت إلى ساعته. ربما سأله الرجل فقط عن الوقت. - أتعني أن ذلك كان مجرد صدفة؟

- ليس ذلك بالضبط. في هذا كله أسلوب منظم يرتبط باجيت بالمسألة. لماذا اختير ميل هاوس مكاناً لجريمة القتل؟ هل ذلك لأن باجيت كان في كيمبرلي عندما سرفت الألماسات؟ أكان يمكن أن يقدم كيش فداء لو لم أظهر على مسرح الأحداث بقدرة قادر؟ - إذن فأنت تعتقد أنه قد يكون بريئاً تماماً؟

- يبدو الأمر هكذا. ولكن إن كان كذلك، فيجب أن نعرف ماذا

- وكيف نعرف ذلك؟ إن أسهل شيء في العالم التلميح بمثل ذلك؛ فلا أحد يعارض مثل تلك الإشارة، ثم تنتشر الشائعة إلى أن يعتقد كل واحد بأنها حقيقة لا ريب فيها. إنها تعطي مبرراً لجميع الأعمال المشكوك فيها. أن، هل يعجبك رايس؟

- يعجبني... ولا يعجبني. إنه يفتنني وفي نفس الوقت يسحرني، لكنني أعرف شيئاً واحداً وهو أنني دائماً أخاف منه قليلاً.

قال هاري ببطء: لقد كان موجوداً في جنوب أفريقيا وقت حدوث عملية السطو في كيمبرلي.

- لكنه هو الذي أخبر سوزان بكل شيء عن «الكولونيل» وكيف كان في باريس يحاول نعبه.

- تمويه... وتمويه ذكي جداً.

- ولكن ما علاقة باجيت بهذا؟ هل هو مخلب قط لدى رايس؟ - ربما لا علاقة له بذلك على الإطلاق.

- ماذا؟

- عودي بتفكيرك إلى الوراء يا آن. هل سمعت رواية باجيت عن تلك الليلة على الباخرة كيلموردن؟

- نعم... من خلال السير يوستيس.

أعدت عليه القصة، وأصغى هاري بانتباه ثم قال: لقد رأى رجلاً يأتي من جهة مقصورة السير يوستيس وتبعه إلى ظهر المركب. هل هذا ما يقوله؟ من كان يسكن في المقصورة المواجهة للسير يوستيس؟

رجل عاش في الغابات طويلاً. ثم سمعت الصوت أيضاً... صوتاً خفيفاً
لمحركة مجاديف في الماء آتية من اتجاه الضفة اليمنى للنهر وتقترب من
مرسانا الصغير بسرعة.

أمعنا النظر في الظلمة ورأينا خيالاً قاتماً غير واضح على سطح
الماء. كان قارباً، ثم رأينا شعلة سريعة انطفأت بسرعة؛ فقد أشعل
أحدهم عود ثقاب. وعلى ضوءه عرفت شخصاً... إنه الهولندي ذو
اللحية الحمراء الذي رأيت في ذلك البيت في موزنبرغ، أما الآخرون
فكانوا من أهل البلد.

- أسرعي... عودي إلى الكوخ.

دفعني هاري معه إلى الورا، وأنزل عن الحائط بندقتين ومسدساً
وقال: هل تستطيعين تعبئة بندقية؟

- لم أفعل ذلك أبداً... أرني كيف.

استوعبت تعليماته بسرعة، وأغلقتنا الباب ووقف هاري قريباً من
النافذة المطلّة على المرسى، وكان القارب على وشك الرسو عليه.

صاح هاري بصوت مدوّ: من هناك؟

ولئن كانت أية شكوك قد راودتنا بخصوص نوايا زائرنا فإن تلك
الشكوك سرعان ما تلاشت؛ فقد انهمر حولنا وأبل من الرصاص،
ولحسن الحظ لم يصب أيّ منا. رفع هاري البندقية وراح يطلق النار،
وسمعت آتتين وصوت سقوط في الماء.

تمتم متجهماً وهو يمسك بالبندقية الثانية: هذا سيلقتهم درساً يفكرون

كان يفعل في مارلو. لو كان عنده تفسير معقول لذلك فإننا نسير في
الطريق الصحيح.

نهض من مكانه وهو يقول: لقد جاوزنا منتصف الليل. ادخلي
يا آن ونامي، وسأخذك في القارب قبل الفجر. يجب أن تلحقي القطار
في ليفينغستون. لدي صديق هناك يخفيك عنده لحين انطلاق القطار.
اذهبي إلى بولاوايو وخذي قطار بيرام هناك، وأنا أستطيع أن أعرف من
صديقي في ليفينغستون ما الذي يجري في الفندق وأين أصدقاؤك الآن.
قلت متأملة: بيرام؟

- نعم يا آن، إنها بيرام من أجلك. هذا عمل رجل؛ فاتركيه لي.

كنا قد أخذنا فترة راحة قصيرة من الانفعال ونحن نتدارس
الموقف، ولكن الانفعال عاد ليسيّطر علينا مرة أخرى حتى إن أيّ منا
لم ينظر إلى الآخر.

دخلت الكوخ واستلقيت على الأريكة المغطاة بالجلد، ولكني لم
أنم. وفي الخارج كنت أسمع هاري رايرن يجوب المكان جيتة وذهاباً
خلال ساعات الظلام الطويلة. وأخيراً صاح بناديني: هيا يا آن، حان
وقت الرحيل.

نهضت وخرجت طائفة. كان الظلام ما يزال مخيماً لكنني عرفت
أن الفجر لم يكن بعيداً.

بدأ هاري يقول: "سركب زورق الكانو العادي وليس الزورق ذا
المحرك..." ثم سكت فجأة ورفع يده وقال: صه! ما هذا؟

أصغيت لكنني لم أسمع شيئاً. كانت أذناه أحد من أذني؛ كانتا أذني

- لا أخاف وأنا معك.

- آه، ولكن الموت معاً ليس متعة كبيرة. ستفعل أفضل من هذا؛ انظري... لقد أحضروا معهم قاربين مليئين هذه المرة، وسيتزلون في نقطتين مختلفتين. والآن إلى عملي المسرحي.

ويعد أن فرغ من كلامه اندلعت من الكوخ ألسنة لهب طويلة، وقد أضاء نورها جسدين جائمين على سطح الكوخ معاً. قال: إنها ملاسي القديمة حشونها ببعض الأسماك البالية... ولكنهم لن يكشفوا الأمر إلا بعد وقت طويل. هيا يا آن، علينا أن نجرب أساليب يائسة.

ركضنا إلى الجانب الآخر من الجزيرة يداً بيد. كانت هناك فتاة ضيقة من الماء تفصل الجزيرة عن اليابسة في تلك الجهة. قال: يجب أن نسيح حتى نصل إليها. هل تعرفين السباحة يا آن؟ هذا لا يهم؛ فأستطيع مساعدتك في العبور. إنه مكان لا يصلح لرسو القوارب... فيه الكثير من الصخور، ولكنه يصلح للسباحة، ويصلح للوصول إلى ليفينغستن.

- أستطيع السباحة قليلاً أبعد من هذه المسافة. ما هو الخطر يا هاري؟

قلت هذا لأنني رأيت على وجهه نظرة متجهمة. وتابعت السؤال: أهى أسماك القرش؟

- لا أيتها الورثة الصغيرة؛ فأسمك القرش تعيش في البحر. لكنك حادة الذكاء يا آن. إنها تماسيح، هذه هي المشكلة.

- تماسيح؟

- نعم، ولكن لا تفكري بها... أو ادعي الله بالسلامة فقط.

فيه. بقي في الخلف جيداً يا آن - أرجوك - وعبثي البندقية بسرعة.

وانهمر مزيد من الرصاص. كسطلت رصاصة خد هاري، وكان رده على النار بنار أقوى منها. كنت قد عبأت البندقية ثانية عندما استدار ليأخذها قبل أن يعود إلى النافذة مرة أخرى، وفجأة صاح: إنهم ذاهبون... لقد أخذوا ما فيه الكفاية. إنهم واضحون هناك على الماء، ولا يستطيعون معرفة عددنا. لقد هزمتهم هزيمة منكرة الآن، ولكنهم سيعودون، سيتوجب علينا الاستعداد لهم.

ثم ألقى البندقية على الأرض والتفت إلي قائلاً: آن، أيتها الجميلة... أيتها الرائعة... أيتها الملكة الصغيرة! شجاعة كالأسد؛ ساحرة سوداء الشعر!

أمسكني بذراعيه وقبطني، ثم قال وهو بحررني فجأة: والآن إلى العمل؛ أخرجني علب البارافين هذه.

فعلت ما طلبه مني. وكان مشغولاً داخل الكوخ، وفي الحال رأيته على سطحه يمشي ببطء ويحمل شيئاً بين ذراعيه. ثم عاد إلي بعد دقائق وقال: انزلي إلى القارب، علينا أن نأخذها إلى الجانب الآخر من الجزيرة.

وعندما ذهبنا رفع علب البارافين. ناديت بصوت خفيف: إنهم عائدون.

كنت قد رأيت شيئاً غير واضح يتحرك خارجاً من الشاطئ المقابل، فأسرع ناحيتي وقال: في الوقت المناسب. يا إلهي... أين القارب؟

كانت جبال القاربين قد قُطعت قطعاً بعيداً. وصغر هاري بصوت خفيف وقال: إننا في مأزق يا حبيبتني. هل تخافين؟

يحسبونني ميتة؛ فأنا وقد عرفوا الآن أنني لم أمت فإن ذهابي إلى بيررا لن يفيد بشيء. يستطيعون ملاحقتني هناك وقتلي بهدوء؛ فلا أحد هناك سيحميني. وقررنا أخيراً أن انضم إلى سوزان أينما كانت وأكرس كل طاقتي للاهتمام بنفسى... كان مطلوباً مني أن لا أقوم بأي مغامرة.

كان علي أن أبقى معها هادئة وأنتظر تعليمات من هاري، وكان يفترض أن تودع الألباسات في أحد البنوك في كيمبرلي باسم باركر. قلت متأملة: بقي شيء واحد؛ يجب أن تكون لدينا شيفرة معينة. لا تريد أن نُخدع مرة أخرى بالرسائل التي تطلب منا المجيء من مكان لآخر.

- هذا سهل. أبة رسالة تأتيك مني ستجدين فيها واو العطف وقد شُطبت بخططين متقاطعين.

- بلا هذه العلامة لن تكون الرسالة حقيقية. وماذا بخصوص البرقيات؟

- أي برقية مني ستكون موقعة باسم أندي.

قال نيد وهو يدخل رأسه في الغرفة: "سيتحرك القطار بعد قليل يا هاري"، ثم سحب رأسه بسرعة.

وقفت وسألته باحتشام: وهل أتزوج رجلاً مستقراً لطيفاً إن وجدت واحداً؟

اقترب هاري مني وقال: يا إلهي! إن تزوجت أي رجل غيري يا أن فسوف أدق عنقه.

* * *

دخلنا في الماء. لا بد أن دعائي قد استجيب لأننا وصلنا الشاطئ دون خطر وخرجنا من الماء ونحن نقطر ماء.

- والآن إلى ليفينغستون. أخشى أنها ستكون رحلة قاسية، والملابس المبتلة ستجعل الرحلة أصعب، ولكن يجب أن تفعل ذلك.

كان السير كابوماس؛ فقد التصقت تنورتني المبتلة والتفت حول ساقبي وسرعان ما تمزقت جواربي من الأشواك، وأخيراً وقفت بعد أن نفذت قواي تماماً. التفت هاري إلي قائلاً: استمري يا حبيبتني؛ سوف أحملك قليلاً.

هكذا دخلت ليفينغستون محمولة على كتفه مثل كيس من الفحم. لا أعرف كيف حملني طوال ذلك الطريق. كان ضوء الفجر قد بدأ يبرز، وكان صديق هاري شاباً في العشرين من عمره له مخزن لبيع التحف المحلية. كان اسمه نيد... وربما كان له اسم آخر لكنني لم أعرفه أبداً. لم تبدُ عليه أي مفاجأة لرؤيته هاري وهو يدخل وملابسه تقطر ماء ممسكاً بيد فتاة مبتلة الثياب مثله... إن الرجال رائعون جداً.

قدم لنا طعاماً تأكله وقهوة ساخنة وجفف لنا ثيابنا بينما كنا نلف أجسامنا ببطانيات مانشستر ذات الألوان الزاهية. وكنا في مأمن في الغرفة الصغيرة الخلفية من الكوخ بعيداً عن الأنظار بينما غادر هو ليقوم بالاستعلام عما حدث لجماعة السير يوستيس وإن كان أي منهم ما زال موجوداً في الفندق أم لا.

عندها أبلغت هاري بأن شيئاً لن يغرني بالذهاب إلى بيررا. لم أكن اعتزم ذلك أبداً على أية حال ولكن زالت الآن جميع الأسباب التي تدعوني للذهاب إليها. لقد كان الهدف من الخطة هو أن أعدائي كانوا

وجهه، ولكنني أعرف أن ذلك هو ما كنت أريد عمله. أحضر لي في الساعة السادسة فنجاناً من الشاي دون سكر، وكان بارداً جداً، ثم رحلت في نوم عميق بعد أن أزهقت تماماً واستيقظت خارج حدود بولاوايو، ونزلت وقد حملوني ثمثال زرافة من الخشب كله سيقان وعتقاً!

وفيما عدا هذه الحوادث الصغيرة المؤسفة، كان كل شيء يجري دون مشكلات. ثم وقعت كارثة جديدة.

كان ذلك في ليلة وصولنا إلى الشلالات؛ وكنت أملي رسائلي على الأنسة بيتيغرو في غرفة جلوسي عندما اقتحمت السيدة بليز علي الغرفة دون كلمة اعتذار وصاحت: أين آن؟

سؤال لطيف نسأله... وكأنني كنت مسؤولاً عن الفتاة. ماذا ستظن الأنسة بيتيغرو الآن؟ ألن نظن أنني معناد على إخراج آن بيدنغفيلد من جيبتي عند منتصف الليل أو نحو ذلك؟ كان ذلك أسلوباً فاضحاً جداً لرجل في مكائتي. قلت بفتور: أظن أنها نائمة في سريرها.

تنحنحت ونظرتُ إلى الأنسة بيتيغرو لكي أبين لها أنني كنت مستعداً لاستئناف الإملاء. كنت أرجو أن تفهم السيدة بليز هذه الإشارة مني، لكنني لم تفهم شيئاً مما فعلته، وبدلاً من ذلك ألقت بنفسها على كرسي وصاحت بانفعال: إنها ليست في غرفتها. لقد ذهبتُ هناك. لقد حملتُ... حلماً فظيماً... بأنها وقعت في خطر رهيب، فنهضتُ وذهبتُ إلى غرفتها لكي أطمئن نفسي فقط. لم تكن هناك ولم يبدُ علي سريرها أنها قد نامت فيه.

ثم نظرتُ إلي نظرة استجداء وقالت: ماذا أفعل يا سيدي يوستيس؟

أنا رجل سلام في الأساس، أنوق إلى حياة هادئة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو أنني أستطيع الحصول عليه؛ فأنا أكون دائماً في وسط العواصف والمخاطر. لقد كان ارتياحي عظيماً لخلاصي من باجيت الذي كان لا يفتأ يتشمم الدساتس، كما أن الأنسة بيتيغرو امرأة مفيدة بالتأكيد؛ فرغم أنه لم يكن فيها شيء من صفات الحورية إلا أن بعض أعمالها لا تقدر بثمن. صحيح أنني كنت في مزاج سيئ في بولاوايو وتصرفت كالدب نتيجة لذلك إلا أنني كنت قد قضيت الليلة في القطار قلقاً، فعند الساعة الثالثة صباحاً دخل عرشي شاب أنيق الثياب وسألني عن المكان الذي كنت ذاهباً إليه. كرر سؤالي متجاهلاً كلامي له: شاي، وأرجوك أن لا تضع فيه سكرًا، وشددتُ على حقيقة أنه ليس نادلاً لكنه ضابط الهجرة. وأخيراً أقنعته بأنني لم أكن أعاني من أي مرض مُعدٍ، وأنني ذاهب لزيارة رودبسيا لدواقع بريئة، ثم أبلغته باسمي الكامل ومكان مولدي. بعد ذلك حاولت أن أخطف قليلاً من النوم، لكن حملاً فظولياً يقظني في الساعة الخامسة والنصف ومعه فنجان من السكر السائل كان يسميه شيئاً. لا أحسبني ألقيت الفنجان في

الفصل الثامن والعشرون

(من مذكرات السير يوستيس بيدلار)

كما قلت من قبل: أنا رجل سلام في الأساس، أنوق إلى حياة هادئة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو أنني أستطيع الحصول عليه؛ فأنا أكون دائماً في وسط العواصف والمخاطر. لقد كان ارتياحي عظيماً لخلاصي من باجيت الذي كان لا يفتأ يتشمم الدساتس، كما أن الأنسة بيتيغرو امرأة مفيدة بالتأكيد؛ فرغم أنه لم يكن فيها شيء من صفات الحورية إلا أن بعض أعمالها لا تقدر بثمن. صحيح أنني كنت في مزاج سيئ في بولاوايو وتصرفت كالدب نتيجة لذلك إلا أنني كنت قد قضيت الليلة في القطار قلقاً، فعند الساعة الثالثة صباحاً دخل عرشي شاب أنيق الثياب وسألني عن المكان الذي كنت ذاهباً إليه. كرر سؤالي متجاهلاً كلامي له: شاي، وأرجوك أن لا تضع فيه سكرًا، وشددتُ على حقيقة أنه ليس نادلاً لكنه ضابط الهجرة. وأخيراً أقنعته بأنني لم أكن أعاني من أي مرض مُعدٍ، وأنني ذاهب لزيارة رودبسيا لدواقع بريئة، ثم أبلغته باسمي الكامل ومكان مولدي. بعد ذلك حاولت أن أخطف قليلاً من النوم، لكن حملاً فظولياً يقظني في الساعة الخامسة والنصف ومعه فنجان من السكر السائل كان يسميه شيئاً. لا أحسبني ألقيت الفنجان في

- أعتقد ذلك حقاً؟

أكملت مهدتاً: أعتقد أنهما هربا ليجعلا من الأمر مياراة.

قلت هذا رغم أنني أدرك تماماً أن كلامي هذا سخيف. ففي مكان كهذا، أين يوجد مكان يهربان إليه؟

لا أعرف إلى متى كان من شأنني أن أوصل طرح الملاحظات التي لا معنى لها، ولكن في تلك اللحظة دخل رايس نفسه. على أية حال كنت على حق جزئياً؛ فقد كان خارج الفندق يتمشى، لكنه لم يأخذ آن معه. ومع ذلك فقد كنت مخطئاً تماماً في طريقة تعاملتي مع الموقف. لقد رأيت ذلك على الفور، فقد قلب رايس كل الفندق رأساً على عقب خلال ثلاث دقائق... لم أز في حياتي رجلاً متزعجاً أكثر منه.

كان الأمر غريباً جداً. أين ذهبت الفتاة؟ لقد خرجت من الفندق تلبس كامل ملبسها بعد الحادية عشرة بعشر دقائق تقريباً ولم تشاهد ثانية أبداً. فكرة الانتحار تبدو مستحيلة؛ فقد كانت من أولئك الفتيات اللاتي يحبين الحياة ولا يمكن أن يفكرن أبداً بتركها، ولا قطار يتحرك في أي من الاتجاهين حتى منتصف نهار اليوم التالي، ولذلك لا يمكن أن تكون قد غادرت المكان. إذن أين هي؟

إن رايس المسكين شديد القلق... لم يترك حجراً إلا وقلبه بحثاً عنها، وتم استئجار كل مأموري الشرطة في دائرة قطرها مئات الأميال، وانطلق مُتعبو الأثر المحليون يجرون بحثاً على أربع. تم القيام بكل ما يمكن عمله، ولكن لم يظهر لأن بيدنغفيلد أي أثر. كانت النظرية المقبولة هي أنها تمشي في نومها. توجد على الممر القريب من الجسر علامات يبدو أنها تدل على أن الفتاة قد خرجت عن حافة الطريق

كظمت في نفسي الرغبة في الرد عليها بالقول: "أذهبي إلى النوم ولا تقلقي دون داع؛ إن فتاة قوية الجسم مثل أن بيدنغفيلد قادرة تماماً على العناية بنفسها"، ولكنني عيست بطريقة حكيمة، وقلت لها: ماذا يقول رايس في هذا الأمر؟

لماذا ينجو رايس من هذه الأمور؟ فلندعه يجابه بعض مساوئ صحة النساء بالإضافة لما يناله من محاسنها.

ولكنها قالت: لا أستطيع أن أجده في أي مكان.

كان واضحاً أنها ستجعل من تلك الليلة ليلة سوداء. تنهدت وجلست على الكرسي، ثم قلت بصبر: لا أفهم تماماً سبب انفعالك.

- إن حلمي...

- هذا من الكاري الذي تناولناه على العشاء!

- آه، سير يوستيس!

كانت المرأة ساخطة تماماً، ومع ذلك فالجميع يعلمون أن الكوابيس نتيجة مباشرة للطعام غير الطبيعي. أكملتُ بأسلوب الإقناع: لماذا لا تخرج أن بيدنغفيلد ورايس للمشي قليلاً دون أن يعلم الفندق كله بذلك؟

- هل تعتقد أنهما خرجا يتمشيان معاً فقط؟ لكن الوقت يعد منتصف الليل؟

تمتمتُ قائلاً: المرء يفعل هذه الأمور الطائشة عندما يكون صغيراً، رغم أن رايس أكبر من أن يقع في هذه الأخطاء.

الجزيرة إذا جاء يسألني عن علاقاتي الغرامية.



لاحقاً:

تقرر بشكل نهائي أن أذهب إلى جوهانسبرغ غداً. ألح عليّ راييس أن أفعل ذلك؛ إذ يبدو -من كل ما أسمع- أن الأمور تسوء هناك، وربما كان من الأفضل أن أذهب قبل أن تسوء الأمور أكثر، وأحسب -على أية حال- أن أحد المضربين سيطلق عليّ النار! كان يُفترض أن ترافقتي السيدة بليير، ولكنها غيرت رأيها في آخر لحظة وقررت البقاء في الشلالات؛ إذ يبدو أنها لا تطيق التوقف عن متابعة راييس. جاءتني ليلاً وقالت -مترددة- بأنها تطلب مني معروفاً. لقد طلبت مني الاهتمام بأغراضها التذكارية.

قلت مذعوراً: لا أحسبك تقصدين الحيوانات؟

كنت أشعر دائماً أنني سأعلق مع هذه الحيوانات عاجلاً أم آجلاً.

وفي نهاية الأمر توصلنا إلى تسوية. توليت أنا مسؤولية صندوقين خشبيين صغيرين لها محتويان على أغراض قابلة للكسر، وافقنا على تعبئة تماثيل الحيوانات من قبل المخزن المحلي في صناديق واسعة يرسلها بالقطار إلى كيب تاون حيث سيتولى باجيت هناك تخزينها.

يقول الأشخاص الذين يرمون هذه التماثيل إنها ذات أشكال غريبة جداً (!) وإنها ستحتاج إلى صناديق خاصة. وقد أوضحت للسيدة بليير بأن كل واحد من هذه التماثيل سيكون قد كلفها جنيهاً كاملاً عندما تستلمه في إنكلترا!

متعمدة. لو كان ذلك صحيحاً فلا بد أنها تمزقت إرباً على الصخور في قعر الوادي، ولسوء الحظ فإن معظم آثار الأقدام قد مسحها عدد من السائحين الذين اختاروا السير في ذلك الطريق في وقت مبكر من صباح يوم الإثنين.

لا أعرف إن كانت تلك نظرية مقنعة كثيراً؛ ففي أيام شبابي قيل لي بأن الذين يمشون في نومهم لا يمكنهم إيذاء أنفسهم... لأن حاستهم السادسة تنبههم. لا أظن أن هذه النظرية تتفق السيدة بليير أيضاً.

لا أستطيع فهم تلك المرأة لقد تغير موقفها تجاه راييس تماماً؛ فهي تراقبه الآن كما تراقب القطة الفأر (وهما اللذان كانا دائماً صديقين!). لقد تغيرت تماماً وأصبحت عصبية وهستيرية وتخاف وتجنفل عند أقل صوت. وبدأت أعتقد أنني ذهبت إلى جوهانسبرغ في الوقت المناسب!

سرت شائعة بالأمس عن وجود جزيرة غامضة في مكان ما أعلى النهر عليها رجل وفتاة، وقد اتفعل راييس جداً. ولكن ظهر أن تلك الإشاعة كانت مجرد وهم؛ فالرجل يسكن هناك منذ سنوات وهو معروف جيداً لدى مدير الفندق. إنه يأخذ السائحين إلى أعلى وأسفل النهر في موسم السياحة ويربهم التماسيح وفرس نهر شارد أو غير ذلك (وأحسب أنه يقتني فرس نهر أليفاً مدرياً على أكل بقايا الطعام التي ترمى له من القارب في المناسبات، ثم يبعده بعد ذلك عن القارب بالمجداف، ويشعر السائحون أخيراً أنهم قد رأوا ما لم يره أحد من قبل!).

ليس معروفاً بالتحديد متى جاءت الفتاة إلى الجزيرة، لكن يبدو واضحاً تماماً أنها لا يمكن أن تكون آن. إن التدخل في شؤون الناس الخاصة يثير حساسيتهم؛ ولو كنت مكان هذا الشاب لطرده راييس من

إن باجيت متلهف على الانضمام إليّ في جوهانسبرغ، وسوف
أجعل من صناديق السيدة بلير عذراً لإيقانه في كيب تاون. لقد كتبت
له بأنه يجب عليه استلام الصناديق ووضعها في مكان آمن حيث أنها
تحتوي على تحف نادرة ذات قيمة كبيرة.

وهكذا سوّيت كل المسائل وسافرت مع الأنسة بيتيغرو.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

جوهانسبرغ، السادس من آذار (مارس):

يوجد شيء غير صحي أبدأ في حالة الأمور هنا، وإذا ما أردتُ
استخدام العبارة المعروفة التي كنت أقرأها كثيراً لقلْتُ إننا نعيش جميعاً
على فوهة بركان؛ فجماعات من العمال المضربين يجوبون الشوارع
يعبسون في وجه المرء وكأنهم يريدون قتله (أظن أنهم يتفلسون في
الناس لمعرفة الرأسماليين الشمان ليقتلوهم عندما تبدأ المذابح).
إنك لا تستطيع ركوب سيارة أجرة، وإذا فعلت ذلك فإن المضربين
سيحبونك منها. كما أن أصحاب الفنادق يلمّحون إلى أنه عندما يتخذ
الطعام فإنهم سوف يقذفونك خارج الفندق!

قابلت الليلة الماضية صديقي العمالي ريفز الذي كان على ظهر
كيلموردن. كان فاقداً أعصابه أكثر من أي رجل رأيته في حياتي. إنه
كبقية هؤلاء الناس؛ فهم يلقون خطابات ملتبهة وطويلة جداً لأغراض
سياسية فقط، ثم يتمنون لو لم يفعلوا ذلك. إنه مشغول الآن بالتنقل
والقول إنه لم يقم بذلك حقاً! عندما لاقيته كان يريد السفر إلى كيب
تاون حيث يعتزم إلقاء خطبة تستغرق ثلاثة أيام باللغة الهولندية يدافع
فيها عن نفسه ويوضح بأن الأشياء التي قالها كانت تعني في الحقيقة شيئاً

- توجد حكمة - يا سير پوستيس - تقول: أعطِ المرء حبلًا كافيًا،
واتركه يشق نفسه.

- آه، تمامًا، تمامًا.

- ليس المضربون أنفسهم هم الذين يسيبون المتاعب، بل توجد
منظمة تعمل وراءهم، إن الأسلحة والمتفجرات تندفق، وقد أسسنا
بمستندات معينة تلقي الكثير من الضوء على الأساليب المستخدمة في
استيرادها باستخدام رموز منظمة؛ فالبطاطا تعني «الصواعق»، والقرنيط
تعني «البنادق»، وخضراوات أخرى تعني متفجرات مختلفة.

قلت: هذا مثير جدًا.

- وأكثر من هذا يا سير پوستيس، فلدينا سبب وجيه للاعتقاد بأن
الرجل الذي يدير العمل كله (وهو العقل الموجه للمسألة) موجود في
هذه اللحظة في جوهانسبرغ.

حدق إلي بقوة جعلتني أخشى أن يكون قد شك في أنني أنا الرجل
المقصود. بدأ العرق ينصب مني بسبب هذه الفكرة وبدأت أشعر بالندم
على تفكيري أصلاً بفكرة دراسة ثورة صغيرة بشكل مباشر وعلى أرض
الواقع.

أكمل حديثه: لا توجد قطارات ذاهبة من جوهانسبرغ إلى بريتوريا،
لكنني أستطيع إرسالك إلى هناك بسيارة خاصة. وفي حال إيقافك في
الطريق يمكنني إعطاؤك رخصتي مرور منفصلتين، إحداهما صادرة من
الحكومة الاتحادية والأخرى توضح أنك زائر إنكليزي ولا علاقة لك
بالاتحاد.

مختلفًا تمامًا. أحمد الله أنني لا أجلس في المجلس التشريعي لجنوب
أفريقيا! صحيح أن مجلس العموم سيء بما فيه الكفاية، ولكننا -على
الأقل- نتكلم لغة واحدة، وتوجد بعض القيود الخفيفة على الإطالة في
الخطابات. عندما ذهبت إلى المجلس التشريعي قبل مغادرة كيب تاون
استمعت إلى رجل أشيب الشعر بشارين متهدلين بدا تمامًا كالمسحفة
الزائفة في «أليس في بلاد العجائب». ألقى كلماته واحدة تلو الأخرى
بطريقة كثيفة جدًا، ولكنه كان -من وقت لآخر- يشدُّ على نفسه قليلاً
فيطلق كلمة متبجحة ما يتشديد عليها. وعندما يفعل ذلك كان
نصف مستمعيه يصيحون: "وووف، وووف" (التي ربما كانت المقابل
الهولندي لعبارة: "اسمع، اسمع")، أما النصف الآخر فيستيقظون
جفلين من إغفاءهم اللذيذة التي كانوا فيها. وقد فهمت أن الرجل قد
منست عليه ثلاثة أيام على الأقل وهو يتكلم... لا بد أن لديهم صبراً
عظيماً في جنوب أفريقيا!

لقد اخترعت أعمالاً لا تنتهي لأبقي باجيت في كيب تاون، لكن
خيالي نضب في النهاية، وسوف ينضم إلي غداً وكأنه كلب وفي يأتي
لموت بجانب سيده. كما أنني كنت أتقدم جيداً في مذكراتي؛ وقد
اخترعت أقوالاً في غاية الذكاء قالها لي قادة الإضراب وقتلنا لهم!

فأبليتني هذا الصباح مسؤول حكومي. كان مهذباً وغامضاً، وقد
المح إلى موقعي الرفيع وأهميتي الكبيرة واقترح ضرورة أن أرحل أو يقوم
هو بترحيلي إلى بريتوريا. سألته: إذن فأنت تتوقع حدوث مشكلات؟

وقد صاغ جوابه بشكل لا يجعل له معنى على الإطلاق، ولذلك
عرفت أنهم يتوقعون متاعب خطيرة، وأخبرته بأن حكومته قد تركت
الأمور تسير دون ضابط.

للكلاب ليلها بها، ولا تمزق أبداً. إن لديها موهبة عجيبة في أن تنقلب مبسمة. ولكن ما زلت لا أفهم لماذا كان لزاماً عليها أن تخرج من الفندق في منتصف تلك الليلة لكي تذهب إلى كيمبرلي، وأيضاً لم يكن أي قطار ذاهباً هناك وقتها. لا بد أنها لبست أجنحة وطارت إلى هناك. ولا أظنها ستفسر ذلك... بل إن أحداً لا يفسر شيئاً... لي أنا! كان عليّ دائماً أن أحنن، وهذا يصبح أمراً رتيباً مملأً بعد فترة. أظن أن سر اختفائها يكمن في مقتضيات الصحافة. "كيف أمسكت بالمجرم"... من مراسلتنا الخاصة!

طويت البرقية وتخلصت من صديقي الحكومي. لا أحب تصور حالي وأنا جانع لكنني لست قلقاً على سلامتي الشخصية؛ إن سماتز قادر تماماً على التعامل مع الثورة.

لبست قبعتي وخرجت لشراء بعض التحف التذكارية. إن محلات التحف في جوهانسبرغ رائعة، وقد كنت أنظر إلى إحدى الواجهات المليئة بأثواب الكاروس المهيبة عندما اصطدم بي رجل خرج من المحل، ولشدة دهشتي كان هذا الرجل هو رايس!

لا أستطيع مدح نفسي بالقول إنه بدا مسروراً لرؤيتي. بل إنه -في الحقيقة- بدا واضح الانزعاج، ولكنني أصررت على أن يصطحبني في طريق عودتي إلى الفندق. لقد شمت من عدم وجود أحد أتحدث معه غير الأنسة بيتيغرو.

قلت من باب فتح حديث: لم أكن أعرف أنك موجود في جوهانسبرغ. متى وصلت؟

- الليلة الماضية.

- واحدة أبرزها لجماعتكم وواحدة للمضربين، أليس كذلك؟
- تماماً.

لم يُرَق لي ذلك المشروع؛ فأنا أعرف ما يحدث في مثل هذه الأحوال... يرتبك المرء ويخلط الأشياء بعضها ببعض، ويمكن أن أبرز الرخصة الخطأ للشخص غير المقصود وسيتهي الحال إلى قتلي بسرعة على يد نائر متعطش للدماء، أو أحد مؤيدي القانون والنظام الذين رأيتهم يحرسون الشوارع لابسين القبعات السوداء وهم يدخنون الغليون ويحملون البنادق دون اكتراث. وإلى جانب ذلك ماذا كنت سأفعل في برينوريا؟ هل أجلس معجباً بالفن المعماري في مباني الاتحاد وأستمع لأصوات رماية الطلقات النارية حول جوهانسبرغ؟ كنت سأحتجز هناك لمدة لا يعلمها إلا الله. لقد سمعت أنهم فجروا خط السكة الحديدية أصلاً، وقد أخضعوا المنطقة لقانون الطوارئ قبل يومين.

قلت: يبدو يا عزيزي أنك لا تدرك أنني أدرس الأوضاع في الراند. وكيف يمكنني دراستها من برينوريا؟ إنني أقدر اهتمامك بسلامتي ولكن لا تقلق علي، فسأكون على ما يرام.

- أنا أحذرك يا سير يوستيس بأن مسألة الغذاء خطيرة للغاية.

قلت منتهداً: إن قليلاً من الصيام سيحسن من شكلي.

فوطع حديثنا ببرقية سُلمت إليّ، وقرأتها ذاهلاً: "آن بخير. إنها معي هنا في كيمبرلي. سوزان بلير".

لا أظن أنني صدقت أبداً مقتل آن حقيقة؛ فقي هذه المرأة شيء غريب لا يمكن تحطيمه... إنها أشبه بتلك الكرة المطاطية التي تُعطى

أوما برأسه وقال: هاري رايرن، واسمه الآخر هاري لوكاس...
وهذا هو اسمه الحقيقي. لقد أفلت متاً جميعاً مرة ثانية، لكننا على وشك
القبض عليه قريباً.

همست: يا الهي، يا الهي!

- إننا لا نشبه في اشتراك الفتاة معه بأية قضية؛ فالأمر من جانبها...
مجرد علاقة غرامية.

لقد أحسستُ دوماً أن رايس يجب أن، وقد أكدت لي ذلك الطريقة
التي قال بها تلك الكلمات الأخيرة.

أكمل بعجلة: لقد ذهبتُ إلى بيررا.

قلت محدقاً إليه: أحقاً؟ كيف عرفت؟

- لقد كتبتُ إليّ من يولاوايو تخبرني بأنها عائدة إلى الوطن من
ذلك الطريق، وهذا أفضل ما نستطيع عمله تلك الفتاة المسكينة.

قلت متأملاً: لا أظن أنها موجودة في بيررا.

- عندما كتبتُ لي كانت على وشك الانطلاق إلى هناك.

كنت متحيراً من الواضح أن أحدهما كان يكذب، ومن غير
استبعاد أن قد يكون لها أسباب وجيهة لأقوالها المضللة، فقد
استسلمتُ لمتعة تسجيل النقاط ضد رايس. إنه دائماً واثق أكثر ممّا
ينبغي. أخرجت البرقية من جيبتي وسلمتها له.

سألته بلا مبالاة: إذن كيف تفسر هذه؟

بدا مذهولاً، ثم قال: لقد قالت إنها ذاهبة لتوها إلى بيررا.

أعرف أن من المفترض أن يكون رايس ذكياً، ولكنه -برأيي-

- أين تقيم؟

- مع أصدقاء.

كان ميئالاً إلى التكتّم بطريقة غريبة، وبدا مرتبكاً من أسئلتي.

قلت: أرجو أن يكونوا من مربي الدواجن. إن حمية تتألف من
بيض طازج وديك كبير من وقت لآخر ستكون قريباً أمراً مرغوباً جداً...
من كل ما سمعته.

قلت عندما وصلنا إلى الفندق: على فكرة، هل سمعت أن الأنسة
بيدنغفيلد في قيد الحياة؟

أوما برأسه بالإيجاب، فقلت: لقد أصابتنا بذعر حقيقي. أين عساها
ذهبت في تلك الليلة؟

- كانت في الجزيرة طوال الوقت.

- أي جزيرة؟ لا تقل لي إنها تلك التي يعيش فيها ذلك الشاب؟

- نعم.

- هذا غير لائق. سيصاب باجيت بالصدمة؛ فقد كان دائم الاستياء
من أن بيدنغفيلد. أظن أن هذا هو الشاب الذي أرادت الالتقاء أصلاً به
في دربان؟

- لا أعتقد ذلك.

قلت من باب تشجيعه: لا تخبرني أي شيء لا تريد إخباري به.

- أظنه شاباً ستكون مسرورين جميعاً لو أسكننا به.

صحّت وقد زاد انفعالي: لا تقل لي إنه...؟

سكتُ لأخذ نفس فقال: لقد أسأت فهمي. ليس هذا من قصدته.

صحت مذهولاً: ماذا؟ باجيت؟ إنه يعمل معي منذ ثماني سنوات... وهو شخص موثوق جداً.

ابتسم محدثي وقال: ما زلنا غير متفاهمين. إنني أعني السيدة.

- الآنسة بيتيغرو؟

- نعم. لقد شوهدت وهي تخرج من محل أغراساتو للمتحف الوطنية.

- يا إلهي! لقد كنتُ على وشك دخول ذلك المحل بعد ظهر هذا اليوم، وربما كان من شأنك أن تمسكني أنا وأنا خارج منه!

يبدو أنه لا يوجد في جوهانسبيرغ شيء بريء يمكن أن يقلعه المرء دون الاشتباه به.

- آه! ولكنها شوهدت هناك أكثر من مرة... وفي ظروف مريبة.

وقد أُخبرك أيضاً - بيني وبينك يا سير يوستيس - بأن المكان مشبوه

باعتباره مكاناً معروفاً للقاءات التي تجربها المنظمة السرية التي تقف

وراء هذه الثورة، وسأكون مسروراً لو سمعت منك كل ما تستطيع أن

تخبرني به عن هذه المرأة. أين وكيف وظفتها عندك؟

أجبت ببرود: لقد أعارتها لي حكومتك.

انهار محدثي تماماً.

* * *

غبي بعض الشيء؛ فهو لم يخطر بباله أبداً أن الفتيات لا يقلن الحقيقة دائماً.

تمتم: كيمبرلي أيضاً. ماذا يفعلن هناك؟

- نعم، لقد فاجأني هذا. كنت أحسب أن الآنسة آن ستكون في خضم الأحداث هنا تجمع التقارير لصحيفة الديلي بدجيت.

مرة أخرى قال: كيمبرلي؟

بدا أنه تضايق من هذه المدينة. لا يوجد هناك شيء تراه، والحفر في الطرق لم تُسوِّ بعد.

- أنت تعرف كيف هن النساء.

هز رأسه وخرج. كان واضحاً أنني جلبت له شيئاً يفكر فيه. ولم يمض وقت طويل على مغادرته حتى عاد المسؤول الحكومي ثانية.

- أرجو أن تسامحني على إزعاجي لك ثانية سير يوستيس، ولكن لدي سؤال أو سؤالان أريد أن أسألك إياهما.

قلت مبتهجاً: تفضل يا عزيزي... اسأل ما بدا لك.

- إنه أمر يتعلق بسكرتيرك...

قلت بعجلة: لا أعرف عنه شيئاً؛ فقد فرض نفسه عليّ وأنا في

لندن، وسرق مني أوراقاً ثمينة (سأنال التائب عليها) ثم اختفى في

كيب تاون كالمساحر. صحيح أنني كنت في منطقة الشلالات في نفس

الوقت الذي كان هو فيها، ولكنني كنت في الفندق وأستطيع أن أؤكد

لك بأنني لم أراه طوال الوقت الذي كنت فيه هناك.

يجذب سوى شكله القاسي الجميل وأسلوبه البدائي في الحب.

سببت كل غضبي على سوزان لبعض الوقت، ثم أنهيت كلامي قائلة: لمجرد أنك مرتاحة في زواجك وتزدادين سمنة، فقد نسبت أنه يوجد شيء اسمه الرومانسية.

- آه، أنا لا أزداد سمنة يا آن؛ لا بد أن القلق الذي انتابني عليك مؤخراً قد أضعفني تماماً.

قلت بيروود: أنت تبدين في عافية ممتازة، وأحسب أن وزنك قد ازداد بعض الشيء.

قالت سوزان بصوت كئيب: كما أنني لستُ مرتاحة كثيراً في زواجي أيضاً. إنني أتلقى بقرقيات رهيبة من كلارنس تأمرني بالعودة إلى البيت على الفور، وفي نهاية الأمر لم أعد أرد عليها والآن لم تصلني منه بريقة منذ أكثر من أسبوعين.

أخشى أنني لم أحمل متاعب سوزان الزوجية على محمل الجد. سيكون بإمكانها أن تراضي كلارنس تماماً عندما يحين الوقت. وحولت الحديث إلى موضوع الألماس.

نظرت سوزان إليّ وقد فغرت ففها وقالت: لا بد أن أوضح لك الأمر يا آن. حالما بدأت أشك في الكولونيل رايس فقلت كثيراً على أمر الألماس، وكنت أريد البقاء في منطقة الشلالات لأنني شككت بأنه قد يكون خطفك إلى مكان قريب، ولكنني لم أعرف ماذا أفعل بالألماسات. كنت خائفة من الاحتفاظ بها عندي...

الفصل الثلاثون

(أن تستأنف روايتها)

أبرقتُ إلى سوزان حالما وصلت إلى كمبرلي، وقد جاءني إلى هناك بسرعة خيالية وأعلنت عن وصولها بقرقيات أرسلتها قبل أن تصل. لقد فوجئتُ تماماً إذ اكتشفت أنها تحبني كثيراً... كنت أظن علاقتي معها مجرد حدث جديد في حياتها، ولكن عندما التقيت بها ألفت بنفسها علي تعانقي وذرفت عينها.

وعندما عدنا إلى حالتنا الطبيعية بعد الانفعال جلست على السرير وأخبرتها بالفصحة كلها من ألفها إلى يانها.

قالت متأملة بعد أن انتهيت: كنت دائماً تشكّين في الكولونيل رايس، ولكنني لم أشك فيه إلى أن جاءت الليلة التي اختفيت فيها. لقد أعجبني كثيراً منذ البداية ورأيت أنه قد يكون زوجاً مناسباً لك. آه، لا تعضبي يا عزيزتي آن، ولكن كيف تعرفين أن الشاب صاحبك هذا يقول الحقيقة؟ أنت تصدقين كل كلمة بقولها.

صحت ساخطة: أصدقه بالطبع.

- ولكن ما هو الشيء الذي جذبك فيه؟ لا أرى أن فيه أي شيء

الشيء الوحيد الذي جعل اليوم يبدو حيويًا كانت برفية أرسلت من جوهانسبرغ. كانت تبدو برفية عادية: "وصلت بأمان. كل شيء يجري بشكل طبيعي. إيريك هنا وأيضاً يوستيس ولكن ليس غاي. ابقي حيث أنت في الوقت الحالي. أندي".

كان إيريك هو الاسم المتعارف عليه بيننا لرايس، وقد اخترته لأنه اسم كنت أكرهه كثيراً. كان واضحاً عدم وجود شيء أفعله إلى أن أتتمكن من رؤية باجيت، وقد شغلت سوزان نفسها بكتابة برفية تهدئة طويلة إلى كلارنس البعيد. لقد أصبحت مشاعرهما مرهفة تجاهه؛ فهي مغرمة بكلارنس كثيراً بطريقة تختلف عن طريقي مع هاري. قالت: أتسنى لو أنه هنا يا آن. لقد مضى وقت طويل على فراقنا.

قلت أهدئها: سوزان، قريباً ستكونين قد انتهيت من جنوب أفريقيا ومن المغامرة.

قالت سوزان حزينة: أريد قبعة جميلة. هل آتي معك غداً للقاء غاي باجيت؟

- أفضل الذهاب وحدي؛ فسيكون أكثر خجلاً لو أراد الحديث أمامنا نحن الاثنين.

وهكذا كنت أقف عند مدخل باب الفندق بعد ظهر اليوم التالي أحاول جاهدة فتح مظلة الشمس التي أبت أن تفتح بينما كانت سوزان مستلقية في سريرها بهدوء تقرأ كتاباً وبجاتها سلة من الفواكه.

وحسب كلام عامل الفندق فإن القطار يسير بشكل طبيعي اليوم وسيصل في الوقت المحدد تقريباً، رغم أنه كان متشككاً جداً إن كان

نظرت سوزان حولها خائفة، وكأنها كانت تخاف أن يكون للجدران أذان، ثم همست في أذني -بحماسة- بضع كلمات.

وافقتها قائلة: فكرة جيدة تماماً، أعني في ذلك الوقت، إلا أنها غريبة الآن بعض الشيء. وماذا فعل السير يوستيس بالصاديق؟

- أرسلت الكبيرة منها إلى كيب تاون. لقد أخبرني باجيت بذلك في رسالة قبل أن أغادر الشلالات وقد أرفق مع الرسالة وصلاً بتخزينها. وعلى فكرة، سيغادر كيب تاون اليوم لينضم إلى السير يوستيس في جوهانسبرغ.

قلت متأملة: فهمت. وأين الصناديق الصغيرة؟

- أظن أن السير يوستيس أخذها معه.

قلبت النظر في المسألة، وأخيراً قلت: هذا فظيح... ولكنه تصرف مأمون تماماً. من الأفضل أن لا نفعل شيئاً في الوقت الحالي.

نظرت سوزان إليّ مبتسمة وقالت: أنت لا تحيين عدم فعل شيء يا آن؟

أجبتها صادقة: لا أحب ذلك كثيراً.

الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو الحصول على جدول مواعيد القطارات لنرى متى يمر قطار غاي باجيت من كيمبرلي، وقد وجدت أنه سيصل الساعة الخامسة وأربعين دقيقة بعد ظهر الغد ثم يغادر ثانية الساعة السادسة. كنت أريد رؤية باجيت في أسرع وقت ممكن وقد بدت لي هذه فرصة جيدة. كان الوضع في الرائد يزداد خطورة وقد يمضي وقت طويل قبل حصولي على فرصة أخرى.

ولكن من التلميحات التي كان يلمح بها وكلامه فإني أخشى أن هذا أكيد. على أية حال كنت أعتزم مصارحته بالأمر وعرض استقالتي عليه. إنه رجل غريب الأطوار يا آنسة بيدنغفيلد، ذو روح فكاهية شاذة، ويبدو أنه يتسلى بإيقائي معلقاً بالمسامير. أحسب أنه كان يدرك الحقائق تماماً منذ البداية، وربما قد عرف هذه الأشياء منذ سنوات.

كنت أرجو أن أستطيع عاجلاً أم آجلاً فهم الموضوع الذي يتحدث عنه باجيت. أكمل حديثه بطلاقة: من الصعب على رجل بمكانة السير يوستيس أن يضع نفسه مكاتي. أعرف أنني كنت الملموم، ولكنه بدا خداعاً غير مؤذ، وكان الأولي به أن يصارحني مباشرة... بدلاً من إلقاء النكات المُقنَّعة على حسابي.

دَوَى صغير القطار وبدأ الركاب يعودون إلى القطار.

- نعم يا سيد باجيت. أنا متأكدة أنني أنفق معك في كل ما نقوله عن السير يوستيس، ولكن لماذا ذهبت إلى مارلو؟

- كان خطأ مني، ولكنه طبيعي في مثل تلك الظروف... نعم، ما زلت أشعر أنه كان عملاً طبيعياً في تلك الظروف.

صحت يائسة: أية ظروف؟

لأول مرة بدا أن باجيت أدرك أنني أسأله سؤالاً. تخلى عن التفكير في غرابة أطوار السير يوستيس وتبرئة نفسه وبدأ يركز تفكيره علي. قال بصلاية: أرجو عفوك يا آنسة بيدنغفيلد، ولكني لا أفهم سبب اهتمامك في هذه المسألة.

كان قد عاد إلى القطار الآن ويتحدث معي وهو يحني جسمه إلى

سيتمكن من مواصلة طريقه إلى جوهانسبرغ؛ فقد أكد لي جازماً بأن خط السكة الحديدية قد تم تفجيرها. وبدا ذلك مُفرحاً!

وصل القطار متأخراً عشر دقائق فقط. الجميع بدأ يخرج إلى الرصيف ويتحرك بنشاط جيئة وذهاباً، ولم أجد صعوبة في رؤية باجيت. دنوت منه مثلهنه، وقد جفل جفلة المعتادة التي كانت تصدر منه عندما يراني... وكانت زائدة بعض الشيء هذه المرة.

- يا إلهي، لقد فهمت أنك اختفيت يا آنسة بيدنغفيلد!

أخبرته بهدوء: لقد ظهرت ثانية. وكيف حالك يا سيد باجيت؟

- بخير، أشكرك. إنني أتطلع لمواصلة عملي مع السير يوستيس ثانية.

- لدي شيء أودّ سؤالك عنه يا سيد باجيت. أرجو أن لا تتضايق، ولكن الكثير من الأمور مرهونة به، أكثر مما يمكنك تصوره. أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل في مارلو يوم الثامن من كانون الثاني الأخير؟ حدّق غاضباً: ما هذا يا آنسة بيدنغفيلد... إنني... الحديقة...

- لقد كنت هناك، أليس كذلك؟

- لقد... كنت في الجوار لأسباب خاصة بي، بلى.

- ألا تقول لي ما هي تلك الأسباب؟

- ألم يخبرك السير يوستيس أصلاً؟

- السير يوستيس؟ وهل يعرف؟

- أنا متأكد تقريباً من أنه يعرف. كنت أرجو أن لا يكون قد ميزني،

أسفل. أحسست باليأس؛ فماذا يمكن للمرء أن يفعل حيال رجل كهذا؟ قلت مُثابرةً: يمكنك بالطبع إن كان ما ستقوله فظيماً بحيث تخجل من قوله لي...

وجدتُ في النهاية المفتاح المناسب لدفعه للكلام. تصلبت باجيت واحمرَّ وجهه غضباً وقال: فظيخ؟ أحجل؟ لا أفهم ما تقولين.

- إذن أخبرني.

أخبرني بثلاث جمل قصيرة. وفي النهاية عرفت سر باجيت، ولم يكن ذلك ما توقعت أبداً!

عدت إلى الفندق مشياً على الأقدام ببطء، وهناك سلموني برقية فتحتها. كانت تحتوي على تعليمات واضحة وكاملة للتوجه إلى جوهانسبرغ، أو بالأحرى إلى محطة معينة في جوهانسبرغ حيث ستلافتني هناك سيارة. ولم تكن موقعة باسم أندي بل باسم هاري.

جلست على الكرسي أفكر تفكيراً جاداً.



الفصل الحادي والثلاثون

(من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

جوهانسبرغ، السابع من آذار (مارس):

وصلت باجيت. إنه بالطبع خائف جبان، وقد اقترح على الفور أن نذهب إلى بريتوريا. ولكن عندما أخبرته - بلطف وحزم في آن واحد - بأننا سنبقى هنا انقلب تماماً وتمنى لو أن معه بندقيته هنا، وبدأ يتبجح ويتحدث عن جسر كان يحرسه أثناء الحرب العظمى، وكان جسراً لخط السكة الحديدية في بلدة باديبكوم عند ملتقى الطرق فيها أو شيئاً من هذا.

قاطعته على الفور طالباً منه إخراج آلة الطباعة الكبيرة من صندوقها. رأيتُ أن ذلك سيشغله بعض الوقت، لأن آلة الطباعة لا بد أن تكون قد خربت - كشأنها دائماً - وكان سيتوجب عليه أخذها لإصلاحها في مكان ما. لكنني كنت قد نسبت قدرة باجيت في الاحتياط لهذه الأمور.

- لقد أخرجتُ جميع الأغراض من كل الصناديق يا سيدي، وآلة الطباعة في حالة ممتازة.

- ماذا تعني بقولك... كل الصناديق؟

- أحسب يا سيدي أن هذا كل ما في الصندوقين ما عدا بعض
الشريات المتنوعة، غطاء سيارة وبعض القفازات الغربية...

- لولا أنك غبي من يوم مولدك يا باجيت لفهمت من البداية أنها
لا يمكن أن تكون أغراضاً خاصة بي.

- كنت أعتقد أن بعضها ربما كان للآنسة بيتيغرو.

- آه، لقد ذكرتني... ماذا تقصد من وراء اختيارك امرأة مريّة
كسكرتيرة لي؟

أخبرته عن الاستجواب الذي خضعت له، وعلى الفور شعرتُ
بالأسف؛ فقد رأيت في عينيه التماعة تقول: لقد كنت أعرف ذلك جيداً.
غيرت مجرى الحديث بسرعة، ولكن الوقت كان قد تأخر؛ فقد كان
باجيت غاضباً.

ثم شرع يضجرني بقصة طويلة لا معنى لها عن كيلموردن. كانت
عن بكرة أفلام وعن رهان، وقال لي إن بكرة الأفلام قد أقيمت من خلال
كثرة في منتصف الليل من قبل مضيف جاهل. إنني أكره المزاح السمج،
وقد أخبرت باجيت بذلك، فبدأ يقص علي الحكاية كلها مرة أخرى.
وعلى أية حال فإنه يروي القصص بطريقة رديئة تماماً، وقد مرّ وقت
طويل قبل أن أفهم رأس القصة من ذيلها.

لم أره بعدها إلا عند ساعة الغداء. وقتها جاء مليئاً بالانفعال مثل
كلب صيد يلاحق طريدة، والقصة باختصار أنه شاهد رايرن.

صحت مدعوراً: ماذا؟

- الصندوقين الصغيرين أيضاً.

- لبتك تكون قليل اللهفة على تقديم خدمات لا يريدّها أحد
يا باجيت. لا شأن لك بهذين الصندوقين الصغيرين؛ فهما للسيدة
بليز.

بدا باجيت خائب الأمل؛ فقد كان يكره ارتكاب أي خطأ. أكملت:
لذلك يجب حزم الأغراض فيهما مرة أخرى وبترتيب، وبعد ذلك
يمكنك الخروج والتنزه. ربما تكون جوهانسبرغ غداً كومة أبنية مدمرة
يتساعد منها الدخان، ولذلك قد تكون هذه فرصتك الأخيرة لرؤيتها.

اعتقدت أن ذلك سيخلصني منه طوال الصباح، ولكنه قال: عندي
شيء أود قوله لك عندما يكون عندك وقت فراغ يا سيدي.

قلت بسرعة: ليس عندي وقت فراغ الآن... في هذه الدقيقة ليس
عندي أي وقت فراغ على الإطلاق.

انسحب باجيت، فناديت قائلاً: على فكرة، ماذا كان يوجد في
صناديق السيدة باير؟

- بعض ملابس الفرو و... قبعات فراء على ما أظن.

وافقت: هذا صحيح. لقد اشترتها وهي في القطار. إنها قبعات...
من نوع ما! لن أعجب لعدم تمييزك لها كقبعات. وماذا غير ذلك؟

- بعض بكرات الأفلام وبعض السلال... الكثير من السلال...

- هذا هو المُتوقع؛ فالسيدة بليز من أولئك النساء اللاتي لا يشترين
أبداً أقل من دزينة من أي شيء.

هزئت رأسي متسائلاً فقال: "هذا!"، وقدم لي آلة حلاقة ومعجون حلاقة قائلاً: ماذا تعمل امرأة بهذه الأشياء؟

لم أكن أعترم مجادلته في هذا الموضوع، إلا أنني رفضت اعتبار العثور على آلة حلاقة في غرفة الأتسة بيتيغرو دليلاً ضدها.

- أنت لست مقتنعاً يا سير يوستيس، ولكن ماذا تقول في هذه؟

نظرت إلى الشيء الذي كان يديّيه عالياً وهو مبتهج. قلت باستياء: كأنها شعر.

- إنها شعر... وأحسب أنها ما يسمونه باروكة.

- بالفعل.

- والآن هل اقتنعت بأن بيتيغرو في حقيقتها رجل متخفي في شكل امرأة؟

- أظن - يا عزيزي باجيت - أنني مقتنع بذلك. كان عليّ أن أميز ذلك من قدميها.

- انتهينا إذن، والآن يا سيدي، أريد أن أتحدث معك عن أموري الخاصة، لا أشك - من خلال تلميحاتك وإشاراتك الضمنية الكثيرة إلى فترة وجودي في فلورنسا - في أنك قد اكتشفت عني شيئاً.

أخيراً سيكشف الغطاء عن الذي فعله باجيت في فلورنسا!

قلت بلطف: تكلم وأزح هذا الهم عن صدرك يا عزيزي، فهذه أفضل طريقة.

- أشكرك يا سير يوستيس.

نعم، لقد لمح شخصاً كان متأكداً أنه رايرن وكان يقطع الشارع وقام بتبعه. ثم سألتني: ومع من - باعتبارك - رأيت يقف ويتحدث؟ مع الأتسة بيتيغرو!

- ماذا؟

- نعم يا سير يوستيس. وهذا ليس كل شيء، فقد كنت أقوم بالاستعلام عنها...

- انتظر قليلاً. ما الذي حدث لرايرن؟

- دخل هو والأتسة بيتيغرو إلى محل التحف ذاك عند الزاوية...

صدرت عني صيحة عجب لا إرادية، وسكت باجيت متسائلاً فقلت: لا شيء، أكمل.

- انتظرت في الخارج طويلاً، ولكنهما لم يخرجوا. وفي نهاية الأمر دخلت، ولم يكن في المحل أحداً! لا بد أن له مخرجاً آخر.

حدقت إليه فيما مضى قائلاً: كما كنت أقول، عدتُ إلى الفندق وقمت بعمل بعض الاستعلامات عن الأتسة بيتيغرو.

كان باجيت قد خفض صوته وتنفس بصعوبة (وهو ما يفعله دائماً عندما يريد أن يفضي لي بشيء خاص): سير يوستيس، لقد شوهد رجل يخرج من غرفتها الليلة الماضية.

رفعت حاجبي دهشة ونعمت: وأنا الذي كنت أعتبرها دائماً سيدة محترمة!

أكمل باجيت دون اكتراث: ذهبْتُ إلى غرفتها مباشرة وفتشتها. وماذا نظنتي وجدت؟

- أهو زوجها؟ إن الأزواج مزعجون؛ دائماً يظهر من حيث لا يتوقع المرء.

- أنا لا أفهمك يا سير يوستيس... زوج من؟

- زوج السيدة.

- أبة سيدة؟

- ما بالك يا باجيت؟ السيدة التي التقيت بها في فلورنسا. لا بد من وجود امرأة في الأمر. لا تقل لي إنك قد اكتفيت بسرقة كنيسة أو طعنت إيطالياً في ظهره لمجرد أن شكله لم يعجبك.

- إنني عاجز عن فهمك سير يوستيس... أظن أنك تعزح.

- أحياناً أكون رجلاً مسلماً عندما أحمل عناء المحاولة، ولكني أؤكد لك أنني لا أحاول أن أبدو مسلماً هذه اللحظة.

- كنت أرجو أن أكون بعيداً عنك بعداً لا تستطيع معه تمييزي يا سيدي.

- تمييزك أين؟

- في مارلو، يا سير يوستيس.

- في مارلو؟ وماذا كنت تفعل بالله عليك في مارلو؟

- ظننت أنك فهمت أن... الله... الله... الله...

- لقد بدأت لا أفهم شيئاً. عد إلى القصة من بدايتها واحكها لي مرة أخرى. ذهبت إلى فلورنسا...

- إذن فأنت لا تعرف... ولم تميزني في نهاية المطاف!

- يبدو - فيما أرى - أنك قد فضحت نفسك دون حاجة وجعلك

ضميرك جباناً، ولكني سأتمكن من الحكم أفضل عندما أسمع الرواية كلها. والآن، خذ نفساً عميقاً وابدأ ثانية. ماذا حدث بعد أن ذهبت إلى فلورنسا...

- ولكني لم أذهب إلى فلورنسا. هذا هو لب الموضوع.

- حسناً، أين ذهبت إذن؟

- ذهبت إلى البيت... إلى مارلو.

- ولماذا ذهبت إلى مارلو؟

- أردت أن أرى زوجتي. كانت مريضة وتوقع...

- زوجتك؟ لكني لم أعرف أنك كنت متزوجاً!

- نعم يا سيدي، هذا ما أريد أن أقوله لك. لقد خدعتك في هذه المسألة.

- منذ متى وأنت متزوج؟

- منذ أكثر من ثمانية أعوام. كان قد مضى على زواجي ستة أشهر فقط عندما عملت سكرتيراً لك. وقد خشيت أن أفقد الوظيفة؛ فالسكرتير المقيم يجب أن لا يكون متزوجاً، ولذلك كتمت الحقيقة.

- إنك تفتاجني. وأين كانت زوجتك كل تلك السنوات؟

- هلاً أتيت إلى غرفتي الخلفية؟ لدينا الكثير من السلع الفريدة هناك.

هناك ارتكبت الخطأ، وأنا الذي كنتُ أظن أنني سأكون ذكياً جداً. تبعته إلى الغرفة خلف الستارة.

* * *

- كان لنا بيت صغير على النهر في مارلو قرب ميل هاوس، وذلك منذ أكثر من خمس سنوات.

- يا إلهي! هل من أطفال؟

- أربعة أطفال يا سير يوستيس.

حدثت إليه مذهولاً. كان ينبغي أن أعرف من البداية أن رجلاً كجاجيت لا يشعر بالذنب لسر يكتمه. لقد كان الاحترام الذي يبدو على باجيت هو مصدر اللعنة التي تلاحقتني دائماً؛ فهذا -بالضبط- هو النوع من الأسرار التي يمكن أن يخفيها... زوجة وأربعة أطفال.

سألته أخيراً عندما نظرت إليه فترة طويلة باهتمام شديد: هل أخبرت أحداً غيري بذلك؟

- الأنسة بيدنغفيلد فقط؛ لقد جاءت إلى المحطة في كيمبرلي.

واصلت النظر إليه يامعان. وقد تاملت من نظراتي تلك وقال: أرجو أن لا تكون قد تضايقت يا سير يوستيس؟

- يا صاحبي العزيز، إنني لا أجد حرجاً من أن أقول لك دون مواربة إنك قد أفسدت الحكاية تماماً!

خرجتُ متكدراً تماماً، وعندما مررت من أمام محل التحف في الزاوية هاجمني إغراء مفاجئ لم أستطع مقاومته فدخلت المحل. وجاءني صاحب المحل متذلاً وهو يفرك يديه قائلاً: هل يمكنني تقديم أي شيء لك؟ فراء، تحف؟

- أريد شيئاً غير عادي؛ شيئاً من أجل مناسبة خاصة. هل يمكنك أن تريني ما عندك؟

أحد الأبواب. قال: "السيدة التي تريد رؤية السيد هاري رايبون... ثم ضحك.

دخلت بعد أن تم تقديمي على هذا النحو. كانت الغرفة قليلة الأثاث تفوح منها رائحة التبغ الرخيص، وكان رجل يجلس خلف مكتب يكتب. وقد رفع بصره ثم رفع حاجبيه دهشة وقال: يا إلهي! أليست هذه هي الأنسة بيدنغفيلد؟

اعتذرت قائلة: لا بد أنني مزدوجة الرؤية! أهذا السيد تشيتشستر أم الأنسة بيتيغرو؟ أرى تشابهاً غريباً بينهما.

- لقد جُمد العمل بكلا الشخصيتين الآن... لقد خلعت تنورتي... ونوبي الكهنوتي أيضاً. هلاً جلست؟

جلست رابطة الجأش وقلت: يبدو أنني جئت إلى العنوان الخطأ.

- أخشى أن هذا صحيح من وجهة نظرك الشخصية. الحق يا آنسة بيدنغفيلد أنك ما كان يجب أن تعفي في الفخ للمرة الثانية!

اعترفت بشيء من الخضوع: لم يكن ذلك ذكاء بالغا من طرفي. بدا أن شيئاً ما في أسلوبه قد حيرته، فقال بجفاف: ولكنك لا تكادين تظهريين بمظهر المنزعج لذلك.

سألته: وهل من شأن أي بطولات أهدبها أن تؤثر عليك؟

- كلا بالتأكيد.

قلت: "لقد كانت عمتي جين تقول دائماً إن المرأة الحققة لا تُصدّم

منها... والسيدة التي تريد رؤية السيد هاري رايبون... ثم ضحك.

دخلت بعد أن تم تقديمي على هذا النحو. كانت الغرفة قليلة الأثاث تفوح منها رائحة التبغ الرخيص، وكان رجل يجلس خلف مكتب يكتب. وقد رفع بصره ثم رفع حاجبيه دهشة وقال: يا إلهي! أليست هذه هي الأنسة بيدنغفيلد؟

الفصل الثاني والثلاثون

(آن تستأنف روايتها)

واجهت متاعب كبيرة مع سوزان. جادلت وتوسلت، بل حتى إنها بكت قبل أن تركني أفند خطئي، ولكنني -في النهاية- أقتعتها برأيي. وعدتني بأن نفذ تعليماتي حرفياً وجاءت إلى المحطة تودعني وداعاً باكية.

وصلت إلى وجهتي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. قابلني رجل هولندي قصير أسود اللحية لم أكن قد رأيته من قبل، وكانت معه سيارة تنتظري ثم انطلقنا. كنت أسمع دويّاً غريباً عن بُعد، وسألته عن كنهه فأجابني باقتضاب: "بنادق". إذن كان القتال قد نشب في جوهانسبرغ!

فهمت أن وجهتنا كانت منطقة في ضواحي المدينة. انعطفتنا ودرنا عدة مرات إلى هناك، وفي كل دقيقة كانت أصوات البنادق تقترب أكثر. كان وقتاً مشيراً، وتوقفنا أخيراً أمام مبنى آيل للسقوط إلى حد ما. فتح لنا الباب خادمٌ وأشار إليّ دليلي بالدخول.

وقفت مترددة في الصالة الكبيرة القذرة، وتقدمني الرجل وفتح

رفع كفيه دون مبالاة وقال: اعتذر لك يا طفلي العزيزة، اعتذر حقاً. لقد أعجبت بك دوماً... ولكنك كنت تندخلين في شؤوني بطريقة مزعجة جداً، وما كنت لأسمح بأن تضعي خططي هباء بسبب فتاة صغيرة.

قلت وأنا أحاول النظر إلى المسألة نظرة مجردة: اعتقد أن خطتك عند الشلالات كانت هي الأذكى؛ فقد كنت مستعدة تماماً لأن أقسم بأنك كنت في الفندق عندما خرجت أنا. لن أصدق مستقبلاً إلا ما تراه عيناي.

- نعم، لقد حقق مينكس واحداً من أعظم نجاحاته بقيامه بدور الآنسة بيتيغرو، وهو يستطيع تقليد صوتي بشكل جيد تماماً.

- بقي أمر واحد أود لو أعرفه.

- وما هو؟

- كيف أقنعت باجيت بتوظيفها؟

- آه، كان ذلك بسيطاً للغاية؛ فقد التفتت باجيت عند مدخل مكتب المقوض التجاري (أو غرفة تجارة المناجم أو كائناً ما كان المكان الذي ذهب إليه)... وأخبرته بأنني قد خابرت مستعجلاً وأن الدائرة الحكومية المعنية قد اختارتها سكرتيرة لي، وقد تقبل باجيت الأمر بسهولة.

قلت وأنا أتفحصه: أنت صريح جداً.

- لا سبب يدعوني لأكون عكس ذلك.

لم أرثع للتلصيح في عبارته هذه، وسارعت لوضع تفسيري لتلك

إليّ أنا. إن مينكس مغفل... ممثل ذكي، ولكنه مغفل. كان ذلك مينكس الذي رأيته في الطابق السفلي.

قلت بوهن: آه، حقاً؟

قال السير يوستيس مبتهجاً: والآن لندخل في الحقائق. منذ متى تعرفين بأنني «الكولونيل»؟

- منذ أن أخبرني السيد باجيت أنه رآك في مارلو في وقت كان يُفترض أن تكون فيه في مدينة كان.

أوما السير يوستيس برأسه بحزن وقال: نعم، لقد أخبرت المغفل بأنه قد أفسد الأمور تماماً. لم يفهم بالطبع؛ فقد كان كل عقله مركزاً على مسألة ما إذا كنت أنا قد ميّرتُه، ولم يخطر بباله أبداً أن يتساءل ماذا كنت أفعل هناك. كان ذلك حظاً سيئاً للغاية؛ لأنني كنت قد رتبت الأمر بكل حرص، فأرسلته إلى فلورنسا، وأخبرت الفندق أنني ذاهب إلى مدينة نيس ليلة واحدة وربما ليلتين. وما أن تم اكتشاف جريمة القتل حتى كنت قد عدت ثانية إلى كان، دون أن يحلم أحد بأنني غادرت منطقة الريفيرا.

كان ما زال يتكلم بطريقة طبيعية ودون انفعال. كان عليّ أن أقرص نفسي للتأكد من أنني لست أحلم وأن هذا كله كان حقيقة... أن الرجل الجالس أمامي هو المجرم شديد التستر، «الكولونيل».

قلّبت الأمور في نفسي ثم قلت ببطء: إذن فأنت من حاول إقائي عن ظهر سفينة كيلموردن... أنت من تبعه باجيت إلى ظهر السفينة في تلك الليلة؟

أوظف الخبير؛ هذا هو شعاري دائماً. وفي المرة الوحيدة التي خرجت فيها عن هذا الشعار شعرت بالأسف، لكنني لم أستطع وقتها الثقة بأحد ليقيم لي بذلك العمل. كانت نادينا تعرف الكثير. أنا رجل بسيط رقيق القلب وذو مزاج جيد ما دمت لا أجد من يتحدثني، وقد تحدثني نادينا وهددتني... في وقت كنت فيه في قمة نجاحي، وكنت سابقاً بأمان بمجرد موتها ووقوع الألماسات بيدي. لقد وصلت الآن إلى نتيجة مفادها أنني أفسدت تلك المهمة. ذاك الأبله باجيت بقصته حول زوجته وعائلته! كانت الغلظة غلظتي... كان توظيفي لذلك الرجل يدغدغ روح المرح والفكاهة لدي. خذها بحكمة لك يا عزيزتي آن؛ لا تدعي روح الفكاهة لديك تسبتر عليك. كان لدي إحساس غريزي منذ سنوات بأن من الحكمة التخلص من باجيت، ولكن الرجل كان جاداً في عمله ويعمل بضمير حي إلى الحد الذي لم أجد معه عنزراً لفصله، ولذلك تركت الأمور تسير كما هي. ولكننا نبتعد عن الموضوع. السؤال هو: ماذا أفعل بك. كانت روايتك واضحة بطريقة تثير الإعجاب، ولكن بقي شيء واحد لا أعرفه: أين الألماسات الآن؟

قلت وأنا أرقبه: إنها مع هاري رايرن.

لم تغير ملامح وجهه، بل حافظ على روح الفكاهة الساخرة وقال: هممم، أريد تلك الألماسات.

- لا أرى لديك فرصة كبيرة في الحصول عليها.

- أحقاً؟ بل لدي. لا أريد أن أكون كريهاً، ولكنني أريدك أن تفكري بأن العنور على فتاة مقنولة في هذه المنطقة من المدينة لن يفاجئ أحداً. في الطابق السفلي رجل يقوم بهذه الأعمال بدقة متناهية، وأنت فتاة واعية. إن ما أقترحه هو التالي: ستجلسين وتكتبين لهاري رايرن تخبرينه

أمر مؤسف أن لا تروق لك فكرة أن تكوني الليدي بيدلار؛ فالبدائل الأخرى قاسية بعض الشيء.

أحسست بشعور مخيف ينخر في عظامي. كنت أعرف طبعاً منذ البداية بأنني أجازف مجازفة كبيرة، ولكن بدا أن الجائزة تستحق ذلك. هل تنتهي الأمور وفق حساباتي أم لا؟

مضى السير يوستيس قائلاً: حقيقة الأمر هي أن لدي نقطة ضعف أمامك، ولا أريد -حقاً- اللجوء إلى الإجراءات المتطرفة. ما رأيك أن تقضي عليّ الحكاية كلها من البداية، ثم سنرى ما يمكننا أن نفعل بعدها. ولكن احذري، دون خيالات رومانسية... أريد الحقيقة.

لم أكن أعزم ارتكاب أي خطأ في ذلك؛ فإنا أكنّ لدهاء السير يوستيس قدراً كبيراً من الاحترام. كانت لحظة لقول الحقيقة، الحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة. أخبرته بالحكاية كلها ولم أحذف منها شيئاً، وصولاً حتى لحظة إنقاذي على يد هاري.

وعندما انتهيت أو ما برأسه استحسنانياً وقال: فتاة حكيمة. لقد أفرغت كل ما في صدرك، ودعيني أخبرك بأنني كنت سأكشف أمرك بسرعة لو لم تفعل ذلك. وما كان كثير من الناس على أية حال ليصدقوا قصتك، وخصوصاً بدايتها، ولكنني أصدقك. إنك فتاة من النوع الذي ينطلق بهذه الطريقة... دون سابق إنذار، ولدوافع بسيطة جداً. لقد صادفك حظ مذهل بالطبع، ولكن عاجلاً أو آجلاً سيصطدم الهواي فجأة بالمحترف، ثم تكون النتيجة محسومة، وأنا المحترف! فقد بدأت هذا العمل عندما كنت شاباً صغيراً، ورغم كل الاعتبارات بدت هذه طريقة جيدة للوصول إلى الثراء بسرعة. أستطيع دائماً التفكير بحلول للمشكلات ووضع خطط ذكية... ولم أكن أعطى أبداً فأحاول تنفيذ خططي بنفسي. كنت دائماً

إلى الغرفة الخلفية». اذهب معه. ستجد رسولاً سيحضرك
إلَيَّ. افعل ما يطلبه منك بالضبط. تأكد من أنك أحضرت
الألماسات معك. لا تخير أحداً بشيء».

سكت السير يوستيس ثم قال: سأترك اللامسات العاطفية لخيالك،
ولكن احذري من القيام بأي خطأ.

قلت: ستكون عبارة "المخلصة لك إلى الأبد، آن" كافية.

ثم كتبت الكلمات. مَدَّ السير يوستيس يده لأخذ الرسالة وقرأها
بإمعان ثم قال: لا بأس بهذا، والآن العنوان.

أعطيته له. كان ذلك العنوان هو المحل الصغير الذي كان يستلم
الرسائل والبرقيات مقابل مبلغ من النقود.

ضرب بيده جرساً على الطاولة، وردَّ مينكس على النداء فقال له:
أرسل هذه الرسالة على الفور... بالطريق المعتاد.

- حسناً يا كولونيل.

نظر إلى الاسم المكتوب على الظرف. وكان السير يوستيس يراقبه
بإمعان، ثم قال: أحسبه صديقاً لك، أليس كذلك؟

- صديقي؟

بدا الرجل مرعوباً.

- لقد تحدثت معه حديثاً مطولاً بالأمس في جوهانسبرغ.

- جاء رجل وسألني عن تحركاتك وتحركات الكولونيل رايس،

بأن يأتي إليك هنا ويحضر الألماسات معه.

- لن أفعل شيئاً من ذلك.

- لا تقاطعي من هم أكبر منك سناً. إنني أقترح عقد صفقة معك:
الألماسات مقابل حياتك. ولا ترتكبي أي خطأ في حساباتك في هذا
الشان؛ فحياتك طوع يدي دون شك.

- وهاري؟

- أنا أرثُ كثيراً من أن أفصل عاشقين بعضهما عن بعض؛ سيكون
حرأً هو الآخر... بعد أن نتفاهم بالطبع على أن لا يتدخل أحد منكما
في شؤوني في المستقبل.

- وما ضمانتي على أنك ستلتزم بتنفيذ وعدك في هذه الصفقة؟

- لا ضمانة أبداً يا فتاتي العزيزة. سيتعين عليك أن تنقي بي وتأملي
خيراً. وبالطبع إذا كنت في مزاج بطولي تفضلين معه الموت فتلك مسألة
أخرى.

هذا ما كنت أعمل من أجله. كنت حريصة أن لا أفتر بلهفة على
الطعم، فتركنه بهدوني وبغريني بحيث استسلمتُ تدريجياً. كتبت
ما أملاه علي السير يوستيس:

عزيزي هاري،

أعتقد أنني رأيت فرصة لإثبات براءتك دون أي احتمال
للشك. أرجو أن تتبع تعليماتي بدقة. اذهب إلى محل
أغراساتو للتحف. اطلب أن ترى شيئاً «غير عادي»
و«المناسبة خاصة». سيألك الرجل عندها بأن «تأتي معه

رايبرن، لا أعرف من منهما. كانت تلك نسخة عن تلك الورقة التي التقطتها أنتِ عن الأرض وكان مكتوباً فيها نفس الأرقام (٢٢، ١، ١٧) وأوصلتني إلى نفس الاستنتاجات التي وصلتِ أنتِ إليها. اعتبرتها موعداً مع رايبرن، وعندما حاول يائساً ركوب الباخرة كيلموردن اقتنعت بأنني كنت مصيباً في فهمي، ولذلك تظاهرت بالافتناع بأقواله وتركته يائي. وبقيت أراقبه مراقبة لصيقة آملاً أن أعلم المزيد. ثم وجدت أن مينكس يحاول اللعب بمفرده ويتدخل في شؤوني، فأوقفت ذلك على الفور، وعاد ليصبح تحت السيطرة تماماً. كان مزعجاً أن لا أحصل على الغرفة رقم ١٧ وقد أفلقتني أن لا أستطيع تحديد دورك أنت. هل كنت تلك الفتاة البريئة كما تبدين، أم أنك غير ذلك؟ عندما انطلق رايبرن للوفاء بالموعد في تلك الليلة طلبت من مينكس أن يذهب ليعترض سبيله، وقد فشل مينكس في هذه المهمة بالطبع.

- ولكن لماذا كانت البرقية تقول «١٧» بدلاً من «١٧١»؟

- لقد وجدتُ تفسيراً لذلك. لا بد أن كارتون قد أعطى موظف البرقيات مذكرته الخاصة لكي ينسخها على النموذج الخاص بالبرقيات، ولم يقرأ النسخة ويدققها. وقد ارتكب الموظف الخطأ نفسه الذي ارتكبه جميعاً وقرأها على أنها «١٧، ١، ٢٢» بدلاً من «٢٢، ١، ١٧». الشيء الذي لا أعرفه هو كيف ذهب مينكس إلى الغرفة ١٧... لا بد أنها الغريزة فقط.

- وماذا عن الرسالة التي كُلفت بحملها من إنكلترا إلى الجنرال سماتز؟ من الذي عبث بها؟

- أظن - يا عزيزتي آن- أنك لا تتوقعين أن أكشف الكثير من

فأعطيته معلومات مضللة.

- رائع يا عزيزي، رائع. أنا المخطف! إذن.

نظرت صدفة إلى الرجل فيما كان يغادر الغرفة. كان صاحب اللون وكأنه يحس برعب قاتل، وحالما خرج رفع السير يوستيس جهاز الاتصال الداخلي القريب منه وتحدث مع الطابق السفلي: أهذا أنت يا شوارت؟ راقب مينكس؟ يجب أن لا يغادر البيت دون أوامر.

وضع السماعة وقطب جبينه وهو يريت على الطاولة بيده. وبعد لحظات من الصمت قلت: هل لي أن أسالك بضع أسئلة يا سير يوستيس؟

- بالتأكيد. أية أعصاب رائعة هذه التي عندك يا آن! إنك قادرة على إعطاء اهتمام ذكي للأمور في الوقت الذي تبكي فيه معظم الفتيات ويعصرون أيديهن من الذعر.

- لماذا أخذت هاري سكرتيراً لك بدلاً من أن تسلمه إلى الشرطة؟

- كنت أريد تلك الألماسات النعسة؛ فقد كانت تلك الشيطانة الصغيرة، نادينا، تثير صاحبك هاري علي لغائبتها الخاصة، وقد هددت بأن تبعتها له إذا لم أعطها السعر الذي أودته. كانت تلك غلطة أخرى ارتكبتها أنا... اعتقدت أنها ستحضر الألماسات معها في ذلك اليوم، ولكنها كانت أذكى من أن تفعل ذلك. وكان كارتون زوجها ميتاً أيضاً، ولم أعد أملك أي مفتاح يوصلني إلى مكان إخفاء الألماسات. ثم تمكنتُ من الحصول على نسخة من البرقية التي أرسلها إلى نادينا شخص ممن كانوا على ظهر السفينة كيلموردن... إما أنه كارتون أو.

أمسكته وأنا أشعر بالارتياح. كان شيئاً مفيداً في مثل هذا البيت، لكن الملابس الحديثة غير مناسبة أبداً لإخفاء أسلحة نارية، وفي نهاية الأمر دستنه بحذر داخل جوربي من أعلى.

وقد شكل كتلة فظيعة على ساقي من الداخل، وتوقعت أن تنطلق رصاصة منه في أي لحظة وتصيبي، ولكنه بدا لي المكان الوحيد الممكن.

* * *

خططي دون أن أبذل جهداً لحمايتي؟ فمع وجود قاتل هارب متخفي بهيئة سكرتير لي لم أتردد أبداً في أن أستبدل بالرسالة ورقة فارغة. وما كان أحد ليشك في العجوز بيدلار المسكين.

- وماذا عن الكولونيل رايس؟

- نعم، كان وجوده أمراً بغيضاً. عندما أخبرني باجيت بأنه رجل مخابرات أحسست بداخلي إحساساً كريهاً. تذكرت أنه كان يتطفل ويتابع نادينا في باريس أثناء الحرب، وقد راودتني شكوك مرعبة بأنه يلاحقني أنا! لا أحب طريقة التصاقه بي منذ ذلك الحين... إنه رجل من أولئك الأقوياء الصامتين الذين يخفون أشياء دائماً في أنفسهم.

رَن جرس خفيف، ورفع السير يوستيس جهاز الاتصال الداخلي وأصغى بعض الوقت ثم أجاب: "حسناً، سأراه الآن". ثم قال لي: جاءني عمل. دعيني أريك غرفتك يا آنسة آن.

قادني إلى جناح صغير سيء الحال، وأحضرَ خادمٌ صبيّ حقيتي الصغيرة، وخرج السير يوستيس بعد أن ألتح علي أن أطلب أي شيء أريده، وكان صورةً للمضيف المهذب. كانت على المغسلة علبة فيها ماء حار وشرعت في إخراج بعض الأغراض الضرورية من الحقيبة، وقد حيرني وجود شيء صلب وغير مألوف في الحقيبة الصغيرة الخاصة بمستلزمات الحمام. فككت رباطها ونظرت إلى داخلها.

ولشدة دهشتي أخرجت منها مسدساً صغيراً ذا مقبض من اللؤلؤ، ولكنه لم يكن موجوداً هنا عندما خرجت من كيمبرلي! وتفحصته بحذر فوجدته محشواً.

- قد يهكم أن تعرفي أن باجيت هو الذي كشف الأمر. لقد أصر على إثارة سامي بقصة طويلة لا معنى لها عن رهان وعلية أفلام، ولم يأخذ مني استنتاج الحقيقة طويلاً... عدم ثقة السيدة بلير بالكولونيل رايس، وغضبها، ومناشدها لي أن أهتم بشائليها التذكارية. وكان باجيت الممتاز قد فتح الصناديق أصلاً بدافع الحماسة المفرطة. وقبل أن أغادر الفندق نقلت جميع بكرات الأفلام إلى جيبتي، وها هي في الزاوية هناك. أتعرف بأنني لم أحصل على فرصة لفحص تلك العُلب حتى الآن (فقد أُصفت أعظيتها بشكل قوي بحيث لا تُفتح بغير مفتاح للعب المعدنية) ولكنني لاحظت أن واحدة منها تختلف تماماً في وزنها عن البقية وتخشخش بطريقة غريبة. إن القضية تبدو واضحة، اليس كذلك؟ والأن - كما ترين - فقد أوقعتكما في الفخ بطريقة جميلة. أمر مؤسف أن لا تروق لك فكرة أن تصبحي الليدي بيدلارا

ثم أردت عليه، بل وقفت أنظر إليه. وسمعت صوت أقدام على الدرج، وفتح الباب ودفع رجلان بهاري رايرن إلى داخل الغرفة. نظر السير يوستيس إلى نظرة المستصر، وقال بهدوء: كانت الخطة تقضي أن تضعنا نفسيكما - أيها الهاويان - في مواجهة المحترفين.

صاح هاري بصوت أجش: ما معنى هذا؟

قال السير يوستيس بمرح في غير أوانه: قال العنكبوت للذبابية: هذا يعني أنك دخلت حوزتي. يا عزيزي رايرن، إنك سيء الحظ إلى درجة غريبة.

- لقد قلت - يا آن - إن باستطاعتي المجيء بأمان.

- لا تلمها يا عزيزي. أنا الذي أملت عليها تلك الرسالة، ولم

الفصل الثالث والثلاثون

لم أَدع للمثول أمام السير يوستيس إلا في وقت متأخر من بعد الظهر بعدما جاؤوا لي بالشاي في الساعة الحادية عشرة ثم بوجبة غداء مُشبعة، وأحسست بالقوة استعداداً لمزيد من الصراع.

كان السير يوستيس وحيداً يذرع الغرفة جينة وذهاباً، وكان في عينيه بريق وفي سلوكه قلق لم تغتني ملاحظته. كان منفعلًا لأمر ما، وكان في سلوكه معي بعض التغيير الطفيف.

قال: عندي أخبار لك؛ إن صاحبك في الطريق، وسيكون هنا خلال بضع دقائق. خففي من حماسك، فلدي المزيد مما أقوله: لقد حاولت خداعي صباح اليوم. لقد حذرتك وقلت لك إن من الحكمة قول الحقيقة، وقد أطمعتني حتى نقطة معينة، ثم انحرفت عن الطريق. لقد حاولت جعلي أصدق أن الألماسات بحوزة هاري رايرن، وفي ذلك الوقت قبلت كلامك هذا لأنه سهل علي مهمتي... مهمة إقناعك بإحضار هاري رايرن إلى هنا. ولكن يا عزيزتي آن، كانت الألماسات في حوزتي منذ أن غادرت الشلالات... مع أنني لم أكتشف هذه الحقيقة إلا بالأمس.

قلت لاهمة: أنت تعرف!

جاء ناحيتي وأخذ المسدس من يدي.

تهدد السير يوستيس بارتياح ومسح جبينه بمندبيل قائلاً: لقد خرجتُ عن طوري بالفعل. أحسب أن لدي ضعفاً في القلب دون شك، وأنا مسرور لأن المسدس الآن في يد رجل قدير؛ فلم أكن لأثق بحمل الأنسة آن له. حسناً يا صديقي الشاب، كما قلت، نستطيع الآن أن نتحدث. أعترف -طائماً- بأنك سجلتَ نقطة ضدي. لا أعرف من أين جاء ذلك المسدس؛ فقد جعلتهم يفتشون أمعة الفتاة عندما وصلت. من أين أخرجته الآن؟ لا أظنه كان معك قبل دقيقة؟

أجبت: نعم، كان معي. كان في جوربي.

قال السير يوستيس بحزن: ليست لدي معلومات كافية عن النساء. كان يجب أن أدرسهن أكثر. أنساءل إن كان من شأن باجيت أن يعرف ذلك؟

ضرب هاري على الطاولة بحدة وقال: لا تمثل أمامي دور المغفل. لولا الشعر الأبيض في رأسك لكذفت بك خارج النافذة... أيها الوغد السافل! وسواء أكان شعرك أبيض أم غير أبيض فسوف...

تقدم خطوة أو خطوتين، فقفز السير يوستيس وراء الطاولة بخفة وقال مؤنباً: الشباب عنيقون دائماً؛ فهم -إذ لا يستطيعون استخدام عقولهم- تراهم يعتمدون كلياً على عضلاتهم. دعنا نتحدث بلغة العقل. أنت الآن صاحب اليد العليا، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر. إن البيت مليء برجالني، والتفوق العددي يجعلك في موقف يائس، وقد كان نجاحك المؤقت هذا ناتجاً عن حادث عرضي.

تستطع الفتاة إلا أن تستجيب. كان من الحكمة أن لا تكتبها، ولكني لم أخبرها بذلك في ذلك الوقت. وقد اتبعت أنت تعليماتها وذهبت إلى محل التنف وأخذوك من خلال العمر السري من الغرفة الخلفية... ثم وجدت نفسك بين يدي أعدائك!

نظر هاري إليّ ففهمت نظراته واقتربت أكثر من السير يوستيس الذي تمتم قائلاً: نعم، أنت غير محظوظ دون شك! أظن أن هذه هي المرة الثالثة التي تقع فيها.

قال هاري: أنت على حق؛ هذه هي المرة الثالثة. لقد هزمتني مرتين، ولكن ألم تسمع أبداً بأن الحظ يتغير في المرة الثالثة؟ لقد جاء الآن دوري... عليك به يا آن.

كنت جاهزة تماماً، وفي سرعة البرق أخرجت المسدس من تحت جوربي وصوبته نحو رأسه. ففز الرجلان اللذان يحرسان هاري إلى الأمام لكن صوته منعهما: خطوة واحدة أخرى ويموت! إذا اقتريا منك أكثر يا آن فاضغطي على الزناد... لا تتردد.

أجبت مبهجة: لن أتردد، ولكنني أخاف قليلاً من الضغط عليه على أية حال.

أحسب أن السير يوستيس كان يشاركني مخاوفني؛ فقد كان يرتجف خوفاً ككتلة هلام. وقد أمر الرجلين قائلاً: ابقيا حيث أنتما.

توقف الرجلان طائعين. وقال هاري: قل لهما أن يغادرا الغرفة.

أعطى السير يوستيس أوامره لهما. خرج الرجلان، وأغلق هاري الباب بالمزلاج وراهما ثم قال عابساً: "والآن نستطيع أن نتحدث". ثم

- أحقاً؟

بدا أن شيئاً في نبرة هاري (أو شيئاً من السخرية المُرّة) قد لفت انتباه السير يوستيس فأخذ يحدث إليه، فقال هاري ثانية: 'أحقاً؟ اجلس سير يوستيس واسمع لما أقوله لك'. ثم واصل حديثه وهو ما زال يصوب المسدس إليه: إن الأوراق ضدك هذه المرة. أولاً اسمع هذا!

كان هذا صوت دقات غامضة على الباب أسفل متناً. كنا نسمع صحبات وضجيجاً ثم صوت إطلاق نار. شحّب لون السير يوستيس وقال: ما هذا؟

- رايس ورجاله. لعلك لم تكن تعرف - يا سير يوستيس - بأن آن قد اتفقت معي على ترتيب نستطيع من خلاله معرفة إن كانت الرسائل المتبادلة بيننا حقيقية أم لا؟ كان يجب أن توقع البرقيات باسم 'أندي' وكان يجب كتابة حرف واو العطف في الرسائل مشطوباً عليه بإشارة متقاطعة في مكان ما من الرسالة. كانت آن تعرف أن برقيتك مزيفة. لقد جاءت إلى هنا بمحض إرادتها ودخلت الشرك متعمدة على أمل أن نمسك بك في فخك نفسه، وقبل أن تغادر كيمبرلي أرسلت لي برقية وأخرى إلى رايس، وكانت السيدة بليز على اتصال معنا منذ البداية. لقد استلمت الرسالة التي أُمليتْها عليها، والتي كانت كما توقعتها تماماً. وكنت قد ناقشت مع رايس احتمالات وجود ممر سري يؤدي إلى خارج محل التحف وقد اكتشف هو المكان الذي يقع فيه المخرج.

سُمتعت أصوات صراخ وتهدم وانفجار كبير هز الغرفة فقال هاري: إنهم يقصفون هذا الجزء من البلدة... يجب أن أخرجك من هذا المكان يا آن.

برق ضوء وقاح في الخارج واشتعلت النيران في البيت المقابل لنا. كان السير يوستيس قد نهض وأخذ يمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً، وبقي هاري يصوب المسدس عليه.

- وهكذا - يا سير يوستيس - فقد انتهت اللعبة كما ترى. أنت نفسك الذي زودتنا - بكل لطفك - بفتح عرفنا من مكان وجودك. كان رجال رايس يراقبون مخرج الممر السري، ورغم الاحتياطات التي أخذتها أنت فقد نجحوا في متابعتي إلى هنا.

التفت السير يوستيس فجأة وقال: عمل ذكي جداً، وجدبر بالإكبار. ولكن ما زالت لدي كلمة أقولها. إن كنت قد خسرت اللعبة فقد خسرتها أنت أيضاً. لن نستطيع أبداً أن ندينتي بجريمة قتل نادينا. إن كل ما لديك من دليل ضدي هو أنني كنت في مارلو في ذلك اليوم، ولا أحد يمكنه أن يثبت معرفتي بالمرأة. ولكنك كنت تعرفها، ولديك دافع لقتلها... كما أن سجلك يدنك. تذكر أنك لصر. ولعله يوجد شيء آخر لا تعرفه؛ وهو أن الأثامات عندي، وهنا يذهب...

ويحركة سريعة لا تصدق انحنى ولوح بذراعيه ورمى. سمعنا صوت انكسار الزجاج حيث كسر الشيء الذي رماه زجاج النافذة واختفى في كتلة النار المتقدة مقابلنا.

- وهنا يذهب أملك الوحيد في إثبات براءتك بخصوص قضية كيمبرلي. والآن سوف نتحدث: سأجري صفقة معك. لقد حشرتني في الزاوية، وسوف يجد رايس كل ما يحتاجه في هذا البيت. توجد فرصة لي إن أنا خرجت من هنا، وإذا بقيت فسأنتهي، ولكنك ستنتهي أنت أيضاً أيها الشاب! توجد فتحة في سقف الغرفة المجاورة، فإذا ما منحنتني دقيقتين للانطلاق سأكون على ما يرام. لدي بعض الترتيبات الصغيرة

مارلو... معناه أنك قد خططت للتخلص من مدام نادينا عندما انقلبت عليك بعد أن كانت أداة بيدك... وأخيراً ستكون قادرين على إثبات الجريمة عليك.

- حقاً؟ ومتمن حصلت على كل هذه المعلومات المثيرة؟ من الرجل الذي ما زال الشرطة يبحثون عنه حتى في هذه اللحظة؟ ستكون شهادته بالغة القيمة!

- لدينا دليل آخر؛ شخص آخر عرف أن نادينا كانت ذاهبة لمقابلتك في ميل هاوس.

بدأت المفاجأة على السير يوستيس. أشار الكولونيل رايس بيده، فتقدم آرثر مينكس المعروف باسم الكاهن إدوارد تشيتشيستر والمعروف بالأنسة بيتغرو.

كان شاحباً فلحاً، ولكنه تكلم بصوت واضح: رأيت نادينا في باريس في الليلة التي سبقت ذهابها إلى إنكلترا. كنت في ذلك الوقت أنقص شخصية كونت روسي، وقد أخبرتني عن خطتها. حذرته لأنني كنت أعرف نوعية الرجل الذي كانت تتعامل معه، ولكنها لم تأخذ بنصيحتي. وكانت على الطاولة برقية، وقد قرأتها. وبعد ذلك فكرت بمحاولة الحصول على الألماسات لنفسي. وفي جوهانسبرغ لقيني السيد هايرن صدفة وأقنعني بأن أنضم إلى جانبه.

نظر السير يوستيس إليه ولم يقل شيئاً، ولكن بدا واضحاً انهيار مينكس. وأخيراً قال السير يوستيس: الجرذان دائماً تترك السفن الغارقة. لا أهتم بأمر الجرذان، ولكنني أقضي على الطفيليات عاجلاً أم آجلاً.

قلت: بقي شيء واحد أريد قوله لك يا سير يوستيس؛ إن تلك

الجاهزة أصلاً. اتركني أخرج من هنا وأعطني فرصة دقائق أنطلق فيها... وسأترك لك اعترافاً خطياً موقعاً بأنني قتلت نادينا.

صحت قائلة: نعم يا هاري. نعم، نعم، نعم!

التفت إلي بوجه عابس وقال: كلا يا آن، لا وألف لا. أنت لا تعرفين ما تقولينه.

- بل أعرف؛ فهذا يحل كل شيء.

- لن أستطيع بعدها النظر إلى وجه رايس ثانية. تبا لي إن أنا تركت هذا الشعب المعجوز المراوغ يهرب. لا فائدة يا آن؛ لن أفعل ذلك.

ضحك السير يوستيس. قَبِلَ بالهزيمة دون أي انفعال وقال: حسناً، حسناً، يبدو أنك وجدت من يضاهيك عناداً يا آن، ولكنني أؤكد لكما أن الاستقامة الأخلاقية لا تنفد دائماً.

سمعنا صوت خشب يتصدع ووقع أقدام تصعد الدرج. فتح هاري المزلاج، وكان الكولونيل رايس أول رجل يدخل الغرفة. أشرق وجهه عندما رآنا وقال: "أنت بخير يا آن. كنت أخشى..."، ثم التفت إلى السير يوستيس وقال: لقد كنتُ الأحقك منذ فترة طويلة يا بيدلار... وقد أمسكت بك أخيراً.

صاح السير يوستيس متصنعاً: يبدو أن الجميع قد جُتوا تماماً. لقد كان هذان الشابان يهددانني بالمسدسات ويتهمانني بأفطع الأشياء. لا أعرف ما معنى هذا كله.

- ألا تعرف معناه؟ معناه أنني وجدت الكولونيل... معناه أنك يوم الثامن من كانون الثاني (يناير) الماضي لم تكن في مدينة كان بل في

الفصل الرابع والثلاثون

لم تتمكن من العودة إلى جوهانسبرغ تلك الليلة. كانت القذائف تتساقط من فوقنا متسارعة، وفهمت أننا كدنا نصبح الآن معزولين بسبب سيطرة الثوار على مناطق جديدة.

كان المكان الذي لجأنا إليه مزرعة تبعد نحو عشرين ميلاً عن جوهانسبرغ على المروج الخضراء. وكنت منهارة من التعب؛ فقد تركتني الأحداث المثيرة والمقلقة في اليومين الأخيرين خاوية القوى.

بقيت أفنع نفسي بأن متاعبنا قد انتهت دون أن أتمكن من تصديق ذلك. لقد اجتمعنا أنا وهاري ويجب أن لا نتفصل مرة أخرى، ومع ذلك كنت أدرك -طوال الوقت- وجود حاجز بيننا... تحفظ من جانبه لم أستطع إدراك سببه.

أما السير يومتيس فقد اقتيد في الاتجاه المعاكس برفقة حراسة مشددة، وقد لوح لنا بيده بمرح عند مغادرته.

خرجت إلى الشرفة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ونظرت عبر المرح الأخضر في اتجاه جوهانسبرغ. كنت أرى مستودعات الذخيرة الكبيرة وهي تلمع في شمس الصباح المشرقة وأسمع ترائق تيران الأسلحة عن بعد. لم تكن الثورة قد انتهت بعد.

العلبة التي ألقىتها خارج النافذة لم تكن تحتوي على الألماسات، بل كانت تحتوي على بلّورات عادية. أما الألماسات الحقيقية فهي موجودة في مكان آمن تماماً. إنها -في الواقع- بداخل معدة الزرافة الكبيرة. حفرت سوزان نجويفاً في التمثال وحشرت الألماسات فيه مع كمية من القطن حتى لا تُصدر أصواتاً، ثم أغلقت عليها ثانية.

نظر السير يومتيس إليّ لبعض الوقت، وكان رؤده يعبر عن شخصيته أفضل تعبير، إذ قال: لقد كرهت تلك الزرافة التعمسة على الدوام... لا بد أنه كان إحساساً غريباً مني.

أوما برأسه وقال: أعرف ما تقصدين يا آن. هذا هو وجه الظلم في الحرب، ولكن لدي أخبار أخرى لك.

- وما هي؟

- اعتراف بدم كفاءتي؛ لقد نجح بيدلار في الهروب.

- ماذا؟

- نعم. لا أحد يعرف كيف نجح في ذلك. لقد أفلوا عليه إحدى الغرف بإحكام لقضاء الليل... كانت غرفة في الطابق العلوي في إحدى المزارع القريبة التي استولى عليها الجيش، ولكن الغرفة كانت فارغة هذا الصباح، وكان المصفور قد طار من قفصه.

كنت في قرارة نفسي مسرورة بعض الشيء؛ إذ لم أستطع أبداً (حتى هذا اليوم) أن أتخلص من حب خفي لملاح تجاه السير يوستيس. وأحسب أن ذلك أمر بشع، ولكن هذا ما حصل. صحيح أنه كان وغداً بكل ما في الكلمة من معنى، ولكنه كان وغداً مرحباً... لم أقابل شخصاً مسلماً مثله أبداً!

أخفيت مشاعري بالطبع. أمر طبيعي أن يشعر الكولونيل رايس بأحاسيس مختلفة تماماً عن أحاسيسي؛ فقد كان يريد تقديم السير يوستيس للمحاكمة. ولو أمعن المرء التفكير في هروبه لما وجد فيه ما يثير الدهشة؛ فلا بد أن يكون لديه جواسيس وعملاء حول جوهانسبرغ كلها. ويقض النظر عن رأي الكولونيل رايس، كنتُ متشككة - إلى أبعد حد - في قدرتهم على إلقاء القبض عليه. ربما كان لديه أسلوب مخطط جيداً للتسحاب، والحقيقة إنه قال لنا شيئاً من هذا القبيل.

نادتني زوجة المزارع لتناول الإفطار. كانت امرأة لطيفة حنونة، وكنت قد بدأت أحبها كثيراً، وقد أخبرتني بأن هاري قد خرج عند الفجر ولم يعد بعد. ومرة أخرى شعرت بشيء من عدم الارتياح يجتاحني. ما هو ذلك الظل الذي كنت أحس بقوة بوجوده بيننا؟

بعد الإفطار جلست على الشرفة ويدي كتاب لم أقرأه. كنت غارقة في أفكاري حتى إنني لم ألاحظ الكولونيل رايس حين جاء على فرس ما لبث أن ترجل عنه. لم أدرك وجوده إلا بعد أن قال لي: "صباح الخير يا آن".

قلت وقد احمرّ وجهي: آه، إنه أنت.

- نعم، هل لي أن أجلس.

سحب كرسيّاً بجانبني. كانت تلك هي المرة الأولى التي نجلس فيها وحدنا منذ ذلك اليوم في الماتوبوس. وكالعادة، أحسست بذلك المزيج الغريب من السحر والخوف الذي كان دائماً يسيبه رايس لي.

سألته: ما هي الأخبار؟

- سيكون سماتز في جوهانسبرغ غداً. إنني أقدر أن تستمر هذه الثورة ثلاثة أيام أخرى قبل أن تنهار كلية، وحتى ذلك الحين فإن القتال مستمر.

- ليت المرء يستطيع التأكد من أن من يستحقون القتل هم الذين يُقتلون فعلاً. أقصد أولئك الذين أرادوا القتال... وليس المساكين الذين صدف أنهم يعيشون في المناطق التي يجري فيها القتال.

- بالطبع.

طاطأت رأسي وأنا أشعر بالخزي من ذلك الشك الوضع الذي راودني وقتها.

حدثت ثانية بصوت حالم: عندما كنت في مطلع صباهي أحببت فتاة لكنها نبذتني، وبعد ذلك لم أفكر إلا في عملي. وكانت حياتي المهنية تعني كل شيء بالنسبة لي، ثم التقيت بك يا أن...

كنت صامتة. أظن أن الفتاة لا يمكن أن تحب رجلين في آن واحد، ولكن يمكنها الشعور بمعنى ذلك. كانت جاذبية هذا الرجل هائلة جداً، ورفعت بصري أنظر إليه فجأة وقلت: أعتقد أنك ستحقق نجاحاً عظيماً، وأن أمامك حياة مهنية عظيمة. ستكون واحداً من الرجال المشهورين في العالم.

أحسست وكأنني أطلق نبوءة.

- ومع ذلك سأكون وحيداً.

- هذا شأن كل من يفعلون أشياء عظيمة حقاً.

- أنتظنين ذلك؟

- بل أنا واثقة منه.

قال بصوت منخفض: كنت أفضل... الأخرى.

ثم جاء هاري ينمشي حول زاوية البيت فنهض الكولونيل رايس وقال: "صباح الخير يا... لوكاس". وتسبب ما احمرّ وجه هاري كثيراً.

قلت بمرح: نعم، يجب أن تُنادى باسمك الحقيقي الآن.

عبّرت عن أفكارني بطريقة مناسبة، وإن كانت فاترة، ثم قلّ الحديث بيننا. وفجأة سأل الكولونيل رايس عن هاري. أخبرتته بأنه قد خرج عند الفجر وأني لم أره هذا الصباح.

- هل تعرفين يا أن بأنه بريء تماماً باستثناء بعض الإجراءات الرسمية؟ بقيت -بالطبع- أمور فنية، ولكن جرم السير يوستيس ثابت تماماً. لا شيء الآن يفيدكما بعيدين بعضكما عن بعض.

قال هذا دون أن ينظر إليّ وبصوت بطيء مهتز.

قلت بامتنان: أعرف.

- كما لا يوجد أي سبب يمنعه من العودة إلى اسمه الحقيقي على الفور.

- بالطبع لا يوجد.

- هل تعرفين اسمه الحقيقي؟

فاجأني سؤاله. قلت: أعرفه بالطبع... هاري لوكاس.

لم يجبني، وقد بدا لي أن في طبيعة صمته شيئاً غريباً.

عاد يقول: أن، هل تذكرين عندما كنا نسير بالسيارة عائدين من ماتويوس ذلك اليوم وأخبرتك بأنني أعرف ما يتوجب عليّ عمله؟

- بالطبع أتذكره.

- أظن أن بوسعي القول إنني قد عملته؛ لقد بُرّئت ساحة الرجل الذي تحيينه.

- هل هذا ما كنت تعنيه؟

لكن هاري مضى يحدق إلى الكولونيل رايس، وأخيراً قال: إذن
فأنت تعرف يا سيدي.

- أنا لا أنسى وجهاً رأيتُه أبداً؛ وقد رأيتك مرة وأنت صبي.

سألت متحيرةً أتل بصرى من واحد إلى الآخر: ما كل هذا؟

بدا الأمر أشبه بصراع إرادات بينهما، وقد ربح رايس الصراع.
ابتعد هاري قليلاً وقال: أظن أنك على حق يا سيدي. أخبرها عن اسمي
الحقيقي.

- آن، هذا ليس هاري لوكاس. لقد قُتل هاري لوكاس في الحرب.
هذا جون هارولد إيردسلي.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

ومع كلماته الأخيرة تلك استدار الكولونيل رايس وتركنا. ووقفتُ
أحدق إليه وهو يتعد، إلا أن صوت هاري أعادني إلى نفسي: آن،
سامحيني، قولي إنك تسامحيتني.

أمسك بيدي فسحبها بطريقة آلية تقريباً وقلت: لماذا خدعتني؟

- لا أعرف إن كنتُ استطيع جعلك تفهمين. كنت خائفاً من كل
ذلك الشيء... قوة وسحر الثروة. كنت أريدك أن تحبيني لشخصي
فقط... للرجل الذي كنته، دون حُلِيٍّ وزخارف.

- أتعني أنك لم تثق بي؟

- بوسعك التعبير عن الأمر بهذا الشكل إن شئت، ولكنه ليس
صحيحاً تماماً. كنت قد أصبحت شديد المرارة مشحوناً بالشكوك...
أميل دوماً للبحث عن دوافع خفية... وكان شيئاً رائعاً أن أحظى بمثل
هذا الحب الذي أبدته لي.

قلت ببطء: فهمت.

كنت أقلب في ذهني القصة التي أخبرني بها، ولاحظت - للمرة

هادئاً... مخلصاً جداً. أما أنا فكنْتُ دوماً ذا مزاج ناري حاد. كانت
ستموت خوفاً لو عرفت أنني عدت إلى الحياة مرة أخرى.

- هاري، لو لم يخبرني رايس، فما الذي كنت تعتزم فعله؟

- لا أقول شيئاً. أوصل جباتي على أنني لو كاس.

- وملايين والدك؟

- كنت أرى بأن يأخذها رايس. كان -على أية حال- سيستفيد
منها أفضل مني. ما الذي تفكرين فيه يا آن؟ إنك عابسة.

قلت بتمهل: إنني أفكر، وأكاد أتمنى لو لم يجعلك الكولونيل
رايس تخبرني.

- كلا... كان مصيباً؛ فأنا مدين لك بقول الحفيظة.

سكت قليلاً ثم قال فجأة: أتعرفين يا آن أنني أغار من رايس. إنه
يحبك هو الآخر... وهو رجل أعظم مما أنا عليه، أو مما يمكن أن أكون
عليه في أي يوم قادم.

التفتُ إليه ضاحكة وقلت: هاري، أيها الأحق. أنت الذي
أريده... وهذا كل ما يهمني.

انطلقنا نحو كيب تاون بأسرع وقت ممكن. كانت سوزان هناك
لتحتي، وقد نزعنا أحشاء الزرافة الكبيرة معاً. وعندما خمدت الثورة
تماماً جاء الكولونيل رايس إلى كيب تاون، وبناء على اقتراحه أُعيد
فتح فيلا مويزينغ (التي كانت ملكاً للسير لورنس إيردسلي) وأقمنا فيها
جميعاً.

الأولى - أن بها تناقضات كنت قد تجاهلتها... الثقة التي يمنحها المال،
القدرة على شراء أحجار الألماس من نادينا مرة أخرى، والطريقة التي
فضّل بها أن يتحدث عن الرجلين من منظور شخص خارجي آخر.
وعندما قال «صدّيق» لم يكن يعني إيردسلي ولكن لو كاس. كان لو كاس
الشاب الهادئ هو الذي أحب نادينا حباً عميقاً.

سألته: كيف حدث ذلك؟

- كنا نحن الاثنين متهورين... متلهفين على الموت. وذات ليلة
تبادلنا السلسلة التي يُكتب عليها اسم الجندي... لجلب الحظ! وقد قُتل
لو كاس في اليوم التالي وتمزق جسده إرباً.

ارتعدت وقلت: ولكن لماذا لم تخبرني بذلك الآن؟ هذا الصباح؟
لا يُعقل أنك كنت تشك في حيي لك بعد كل هذا الوقت؟

- آن، لم أرد أن أفسد الأمر كله. كنت أريد أخذك معي إلى
الجزيرة. ما فائدة المال؟ لا يمكنه شراء السعادة. كان من شأننا أن نكون
سعداء على الجزيرة. إنني خائف من تلك الحياة الأخرى... لقد كادت
تفسدني ذات يوم.

- هل كان السير يوستيس يعرف حقيقة شخصيتك؟

- آه، نعم.

- وكارتون؟

- لا. وأنا نحن الاثنين مع نادينا في كيمبرلي ذات ليلة، ولكنه لم
يعرف من منا فلان ومن منا فلان الآخر. وقد قيل كلامي بأنني لو كاس،
وخذعت نادينا بهرقته. لم تكن تخاف من لو كاس أبداً؛ فقد كان شاباً

لنُعد إلى روديسيا... إلى الجزيرة. لا أستطيع تحمل كل هذه الهراء.
لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا.

تحجرت من قبضته بعض الوقت، ثم قلت وأنا أتصنع الحسرة:
وماذا عن ملابسك الفرنسية؟

حتى هذا اليوم لا يعرف هاري أبداً متى أكون جادة ومتى أكون
مناكفةً له فحسب!

- تياً لملابسك الفرنسية. أتظنين أنني أهتم بهذه السخافات؟ لن
أدعك تذهبين، أسمعته؟ أنت امرأتي. إذا تركتك تذهبين فقد أفقدك؛
إنني لا أتق بك أبداً. سنأتين معي الآن... هذه الليلة... وتياً للجميع.

اعترضت قائلة: وفرشاة أسناني؟

- سنشتري غيرها. أعرف أنني مجنون، ولكن تعالي أرجوك!

انطلق في خطوات سريعة، وتبعته بمثل إذعان تلك المرأة التي
رأيتها عند الشلالات (لأ أنني لم أكن أحمل أثقالاً فوق رأسي مثلها).
ثم أسرع في سيره ممّا جعل من الصعب عليّ اللحاق به، وأخيراً قلت
بصوت خافت: هاري، هل سنسير كل هذه الطريق إلى روديسيا على
الأقدام؟

التفت فجأة وهو يضحك ملء شذقيه وقال: أنا مجنون يا حبيبتى...
أعرف هذا، لكنني أحبك كثيراً.

- نحن زوج من المجانين. آه، هاري أنت لم تسألني أبداً، ولكنني
لا أقدم تضحية إذ أجيء معك؛ فقد أردتُ المحيء!

* * *

هناك وضعنا خططنا؛ إذ تقرر أن أعود إلى إنكلترا مع سوزان
وأ تزوج انطلاقاً من بيتها في لندن، وجهاز العروس يُشتري من
باريس! كانت سوزان تستمتع بوضع كل هذه التفاصيل كثيراً، وكذلك
أنا. ومع ذلك كان المستقبل يبدو خيالياً بصورة غريبة، وكنت أشعر
أحياناً دون أن أعرف السبب بالاختناق الشديد... وكانني لا أستطيع
التنفس.

وفي الليلة التي سبقت إبحارنا لم أستطع النوم، فقد كنت أحس
بالتعاسة ولم أعرف السبب. لقد كرهت مغادرة أفريقيا؛ فهل ستبقى
على حالها عندما أعود إليها مرة أخرى؟ هل سأجد فيها قط ما وجدته
من قبل؟

ثم أجفطني صوت دقات أمرة على النافذة فقفزت من مكاني. كان
هاري على الشرفة خارج البيت وقال: ضعني عليك ملابس تفيك البرد
يا آن واخرجي؛ أريد الحديث معك.

لبست بسرعة وخرجت إلى هواء الليل البارد، وكان ساكناً
عظراً يوحي بإحساس مخملي. أشار هاري إليّ بالابتعاد عن البيت
حتى لا نسمعنا أحد. كان وجهه يبدو شاحباً وحازماً وكانت عيانه
تلتهبان.

- آن، هل تذكرين عندما قلتُ لي مرة بأن النساء يستمتعن بعمل
أشياء يكرهتها من أجل شخص يحببهن؟

قلت وأنا أتساءل عن الذي سيقوله: نعم.

أمسك بي بذراعيه وقال: آن، تعالي معي بعيداً... الآن؛ هذه الليلة.

باريس، وأكبر السيارات وأحدث عربات الأطفال. آه،
نعم، ستعلمين ذلك!

ولكن استمتعا بشهر عسلكما أيها المجنونان العزيزان،
ولكن شهراً طويلاً. وفكرا في أحياناً وأنا أسمن متمتعة
في الترف!

صديقتكما المحبة: سوزان بليز

وكانت عندي أيضاً رسالة أخرى كنت أقرؤها أحياناً. جاءت بعد
تلك الرسالة بوقت طويل وكانت مصحوبة بطرد ضخم، ويبدو أنها قد
كُتبت من مكان ما في بوليفيا.

كانت الرسالة تقول:

عزيزتي آن بيدنغفيلد،

لا أستطيع مقاومة رغبتني في الكتابة إليك، والدافع لذلك
ليس -في جزء كبير منه- المتعة التي أجنيتها في الكتابة
إليك، بل المتعة الكبيرة التي أعرف أنك ستشعرين بها
عندما تسمعين أخباري. لم يكن صديقنا رايس ذكياً كما
كان يظن نفسه، اليس كذلك؟

أظن أنني سأعيتك وصيةً على أعمالي الكتابية، وها
أنا أرسل لك مذكراتي. ليس فيها ما يثير اهتمام رايس
وجماعته، لكنني أظن أن بها بعض الفقرات التي ستسليكن.
استخدمتها كما نشأين. وأقترح عليك كتابة مقال للديلي
يُدجبت بعنوان 'مجرمون التفهيم'، وأشترط عليك فقط
أن أكون الشخصية المركزية.

لا أشك في أنك في هذا الوقت لم تعودتي الأنسة آن

الفصل السادس والثلاثون

كان ذلك قبل سنتين، وما زلنا نعيش على الجزيرة. أمامي على
الطاولة الخشبية الخشنة كانت الرسالة التي كتبها لي سوزان.

عزيزتي الساذجين الفاعين في الغاية.. عزيزي المجنونين
في الحب،

لست مدهوشة... أبداً. كنت أشعر طوال الوقت ونحن
نتكلم عن باريس وجهاز العروس أن ذلك الحديث لم
يكن حقيقياً... وأنكما ستختفیان يوماً ما لتتزوجا سراً على
الطريقة العجرية القديمة والجميلة. ولكنكما فعلاً زوج من
المجانين! فهذه الفكرة في التخلي عن ثروة واسعة سخيفة.
أراد الكولونيل رايس أن يجادل في هذه المسألة لكنني
أقنعتُه بأن يترك الحكم للزمن. إنه يستطيع إدارة الأملاك
لصالح هاري... وهو أفضل من يقوم بهذا العمل؛ ذلك أن
أشهر العسل لا تدوم إلى الأبد في نهاية المطاف... إنك
لست هنا يا آن ولذلك يمكنك أن أقول ذلك بأمان دون
أن تفجري في وجهي غضباً كقطة منوحشة: إن الحب
في البرية يدوم فترة من الزمن، ولكن يوماً ما ستبدئين
فجأة بالحلم ببيوت بارك لين، وبمعاطف القراء، وملابس

صح التعبير، حيث أنني متأكدة من أنه كان يشعر دائماً بإحساس لطيف وحقيقي صوبي.

إذن لماذا حاول قتلي مرتين؟ يقول هاري: "لأنه وغد سافل"، ويبدو أن هذا يفسر الأمر باعتقاده. أما سوزان فكانت أكثر تمييزاً. تحدثتُ معها عن ذلك كثيراً، وقد أرجعت ذلك لـ«عقدة الخوف»؛ فهي تميل قليلاً إلى التحليل النفسي. لقد ذكرتُ لي بأن حياة السير يوستيس كلها كانت مدفوعة بالرغبة في الأمان والراحة. كان لديه إحساس حاد بالرغبة بالمحافظة على الذات، وقد أزال قتل نادينا مخاوف معينة لديه. إن تصرفاته تجاهي لا تُمثل حقيقة مشاعره نحوي، بل كانت نتيجة مخاوفه المُثلَّحة على سلامته الشخصية، وأظن أن سوزان على حق. أما بالنسبة لنادينا فقد كانت امرأة تستحق الموت. الرجال يفعلون جميع الأمور المرعبة ليصبحوا أغنياء، ولكن على النساء أن لا يتظاهرن كذباً بأنهن يعشقن لدوافع خفية.

يمكنني أن أسامح السير يوستيس بسهولة، ولكنني لن أسامح نادينا. أبداً، أبداً.

قبل أيام كنتُ أفتح بعض العلب التي كانت ملفوفة بأوراق من نسخة قديمة لصحيفة ديلي بَدجيت، وفجأة لاحظت الكلمات: «الرجل ذو البدلة البنية». لكنَّ بدا ذلك موعلاً في الماضي! كنت قد قطعت صلتي طبعاً بصحيفة ديلي بَدجيت منذ زمن طويل وأنهيت علاقتي معها قبل أن تنهي هي العلاقة من جانبها. وكان زواجي الرومانسي قد حظي بهالة كبيرة من الشهرة.

ابني يستلقي تحت الشمس ويرفس برجله. إنه «رجل ذو بدلة

يبدنغفيلد ولكن الليدي إيردسلي، وتصرفين باللقب في بارك لين كالملكة. أحب أن أقول إنني لا أحمل لك في قلبي أي ضغينة. من الصعب على المرء -بالطبع- أن يبدأ من جديد في مثل هذا العمر، ولكن لدي -لحسن الحظ- مال مدخر احتفظت به لمثل هذه الأحداث غير المتوقعة. وقد نعمني هذا المال الآن كثيراً، وأنا أجمع حولي دائرة صغيرة لطيفة. وبالمناسبة، إذا التقيتُ صديقك الغريب ذلك، آرثر مينكس، فأخبره فقط أنني لم أنسه؛ فبسبب له ذلك هلعاً شديداً.

وإجمالاً أعتقد أنني أظهرت روحاً عالية من التسامح، حتى مع باجيت. لقد سمعت أنه أنجب (أو أن السيدة باجيت بالأحرى) قد أنجبت الولد السادس قبل أيام؛ ستكون إنكلترا -عماً قريب- مأهولة كلياً بأولاد باجيت. أرسلت للمولود الجديد كأساً فضياً، مع بطاقة تهنئة، وأستطيع تخيل باجيت وهو يأخذ الكوز وبطاقة المعايدة إلى شرطة سكونلانديارد مباشرة دون أن ترسم بسمه على وجهه!

فلباركك الله يا ذات العينين الصافيتين. مترين يوماً من الأيام أتى خطأ هذا الذي ارتكبته عندما لم تزوجيني.

المخلص إلى الأبد: يوستيس بيدلار

كان هاري غاضباً. إنها النقطة الوحيدة التي لا أتفق معه فيها اتفاقاً تاماً؛ فبالنسبة له كان السير يوستيس الرجل الذي حاول قتلي، وهو الذي يعتبره مسؤولاً عن وفاة صديقه. وقد كانت محاولات السير يوستيس للقضاء على حياتي تحيرني دائماً؛ فهي لا تتسجم مع الصورة العامة إذا

بنية إن شئت! إنه يلبس أقل قدر من الملابس، وذلك أفضل ما يناسب
الأجواء الحارة هنا، وملابسه بنية تماماً. إنه يتقّب في الأرض دائماً،
وأحسبه سيثبه والذدي وسيكون عنده نفس الهوس بخزف العصر
البلستوسيني.

أرسلت لي سوزان برفقة عندما ولدته:

نهائي وحيي لآخر القادمين إلى جزيرة المجانين. هل رأسه
طويل أم عريض؟

ما كنت لأتحمل ذلك من سوزان، وقد أرسلت لها رداً من كلمة
واحدة توفر المصاريف وتجيب عن سؤالها تماماً: «مسطح»!

